صورة من المؤلف
الى المكتبة الشرقية الزاهرة
في بيروت تنفع

رواية

جمعية اخوان العهد

سرية

892.78
Ha2818j A
c.2

الحلقة الثانية

من سلسلة روايات في موضوع

اسرار النهضة العربية

او

اتحاد الامم العربية

تأليف نقولا الحداد

تبحث في انشقاق العرب عن الترك استعداداً لتكوين الاتحاد العربي العام وتأهباً لانشاء دولة عربية عظمى في المستقبل

دارت حوادثها الرئيسية في دمشق لعهد جمال باشا السفاح . وتمثل فيها زعماء العرب من كل ناحية متهمين بمؤامرة . وفيما كان جمال يضهدهم ويحاكمهم كان يساومهم على تولي زعامة ثورتهم

نشرت تباعاً في مجلة السيدات والرجال في سنتها الخامسة

مصر القاهرة سنة ١٩٢٣ — ١٩٢٤

48133

مطبعة يوسف كوى بمصر

مقدمة

الآن تتطور الامم كلها تطوراً جديداً يلائم طبيعة الحال التي بلغ اليها الاجتماع البشري . وفي السنوات الاخيرة تهدمت ممالك وانشقت امم . والآن تتكون ممالك جديدة وتنتظم امم جديدة

وللأمم الشرقية نصيب كبير في هذا التجديد الذي تتجدده الامم والدول — والتجديد قائم على قاعدة ائتلاف الامم المتماثلة ، وائتلافها على قدر تماثلها ، وعلى قاعدة انفصال الامم غير المتماثلة بعضها عن بعض ، وتباعدها بقدر تغايرها .

لذلك قد حان أن تتأهب الامم العربيـة للائتلاف في امة واحدة أو مجموعة امم متحدة أو متحالفة

والهدف الذي ترمي اليه هذه السلسلة من روايات « اسرار النهضة العربية » هو اعداد الاذهان العربية لهذه النظرية ، وتوجيه الافكار والعواطف الى تحقيق هـذه النظرية ، وتمهيد السبيل للعوامل الطبيعية والاجتماعية التي شرعت تعمل لتحقيقها

وفي رواية « فرعونة العرب عند الترك » التي نشرناها وطبعناها على حدة في السنة الماضية والتي تعد الحلقـة الاولى من هذه السلسلة ابنا روح الوحدة العربية واختمار ثورتها استعداداً لهذا الانفصال كما اننا أبنا تمخض الدولة العثمانية الاليم لولادة هذه الوحدة العربية

وفي هذه الحلقة الثانية من السلسلة التي نحن بصددها الآن نرى هذه الوحدة تولد

وقد افترضت حوادث هذه الرواية واقعة في مدة الحرب في سوريا لعهد سيطرة جمال باشا الحربية . ولذلك سيرى القارىء فيها الروح العربية الكريمة النبيلة تحاول الانفصال عن الترك بأسف وألم كأنه انفصال مقضي بأمر الله منذ الازل

وسيرى أيضاً انه ليس الغرض من هذا الانفصال مناوءة الدولة التركية بل تكوين دولة عربية جديدة كبيرة تجمع جميع قوات العرب المشتتة تحت لوائها وتكون هذه الدولة ظهيراً جديداً لمقرّ الخلافة الاسلامية . فكأن هذا الانفصال انما هو كافتراق أخوين في عيلتين جديدتين تبقيان متآزرتين .

ولا يخفى ان هذه الفكرة مهما كانت سديدة تعد ثورية لأنها خروج من حالة مشروعة الى حالة جديدة لم تشرع بعد .

ولذلك كان السعي الى تحقيق هذه الفكرة يعده رجال الدولة خيانة للدولة . والساعون مهما حسنت نيتهم يعدون خونة في نظر لاتراك

فحول هذه النقطة دارت حوادث الرواية المعقدة وتجمعت في دائرتها الاسرار . ولهذا سترى فيها من غرائب المفارقات أن الحفيد يقبض على جده ويسلمه للديوان العرفي وهو لا يدري على من يقبض . والابن يترافع ضد أبيه وهو لا يعلم . والبنت توجس شراً من أمها وهي لاتدري أنها أمها . والزوج تحت رحمة زوجته وهما لا يتعارفان . وهكذا ترى أشخاص الرواية بعضهم أضداد بعض وهم اقرباء بعضهم لبعض لانهم يجهلون بعضهم بعضاً .

على هذا النحو تشغل الرواية القارىء بما فيها من الاسرار والمباحثات وبما فيها من معاندة الاقدار

ذلك ناهيك عما اندمج فيها من الاخلاق الشرقية النبيلة ولا سيما العربية وما اختصت به هذه الامة من خلال المروءة والوفاء وشرف العرض

وسترى كيف كان جمال باشا السفاح كابوساً على السوريين ، وكيف كان يجور على العرب وهو يحاول ان يترأس ثورتهم ويشق عصا الطاعة على دولته

وفي النية ان مدَّ الله في الأجل أن نؤلف الحلقة الثالثة بحيث نجعل مدارها على حوادث الثورة العربية التي كان من جرائها استقلال مملكة الحجاز ، والحلقة الرابعة عن الحركات العربية السياسية والثورية حول عقد الهدنة . وبعد ذلك نرى ما يتيسر من تأليف الحلقات الأخرى حسب ما يقتضي الموضوع وما نقف عليه من اسرار الحوادث . والله المستعان

مصر سنة ١٩٢٣ نقولا الحداد

— نعم

— هل رأيت اليوم وامس احداً قدم من الغرب ونزل في هذا المنحدر ؟

— نعم . دائماً ارى اشخاصاً مسافرين

— كم شخص رأيت اليوم ؟

— كثيرين . لم أعدّهم

— أكلهم نزلوا في هذا المنحدر ؟

— لا طريق غيره الى البلدة

— ولكن مامن أحد وصل الى البلدة .

فحملق فيه حسن الراعي وقال : — عجباً كيف ذلك . هل انت مراقب ؟

— كلا وانما كنت انتظر خادمي ان ياتيني بجوادي وكل برهة آتي الى الوادي لاتطلع في المنحدر عسى ان ارى جوادي فأرى شخصاً نازلاً في هذا المنحدر ولكنه لايلبث ان يختفي

— عجباً . ان ما تقوله يشبه السحر

— اي نعم . امر محير

— ولكن كيف تراه يختفي ؟

— اراه ينعطف في احدى العطفات فيتوارى وراء الانجم والصخور ثم لايعود يبدو ثانية

— غريب غريب . هل جئت الى ذلك المنعطف وبحثت

— نعم مراراً جئت الى هناك وبحثت فلم اجد مكاناً يختفي فيه انسان

— لعلّ في تلك البقعة جناً يخطف البشر

فضحك الرجل وقال : — ويك يا هذا أما انا بشر ؟ فلماذا لم يختطفني الجنّ

— الجن يهاب بطلاً مثلك .

فضحك الفتى فقال الراعي

— الحق ان هذا سر محير ياسيدي الامير

فحملق فيه الرجل وقال : — كيف تعرف اني امير ؟

— سيماؤهم على وجوههم يامولاي

— وماذا يبدو لك من سيماني يا هذا مما يدلك على امارتي ؟

— في سيمائك ما تهابه الجن ولهذا لم تجسر على خطفك

— اذاً لا تزال تعتقد ان هناك جناً يخطف الناس

— اذا لم يكن ثمت جن فماذا يكون ؟ وكيف يتلاشى اولئك الناس في ذلك المنحدر ؟

— اني حيران . وقد زاد حيرتي اني رأيت بعض الاشخاص الذين انحدروا في ذلك المنحدر واختفوا فيه يخرجون من بطن الوادي الملتف الى جنب هذه الاكمة

— عجباً عجباً . تكاد تجنني ياسيدي الامير . لعل هناك بالوعة تبتلع اولئك الناس ثم تبرزهم من جهة اخرى

— ما هذه التخيلات يا هذا ؟

— كيف يستطيع مثلي ان يعلل هذه الاعجوبة يا سيدي ؟

— لعلك تعرف هذه البالوعة

— لا لا ياسيدي . الحمد لله اني لم اعرفها والا لذهبت فيها

— وماذا يضرك ان تبتلعك من هنا وتبرزك من هناك

— ربما لم يكن حظي اذا كون من البارزين . هل رأيت جميع الذين اختفوا في المنحدر يبرزون ؟

— لا ولعلهم برزوا في وقت آخر . او سيبرزون

— ولعل الجن يفطرون عليهم بعد صيامهم الطويل لاني ارعى ماشيتي هنا منذ سنين ولم أر قط احداً نزل في المنحدر ولم يئته منه

— ولماذا تختطف الجان البشر الآن

— ان الزمان قد تغير ياسيدي . لقد اصبح الناس يأنسون للجان اكثر مما يأنسون بعضهم لبعض فيتساهلون ان يخطفهم الجن

— عجباً .

— لا تعجب يامولاي . ليس للجان آلات التدمير والاهلاك التي للانسان . فقد اصطنع الانسان جهنم حسده زبانية جهنم عليها .

— يا هذا !

— الا تصدق ياسيدي . هل عند الجان طيارة كالطيارة التي رأيتها منذ نصف ساعة ؟

— عندهم بساط الريح

— كذابون ليس عندهم . لم نره قط . وهل عندهم المدفع الرشاش الذي يمطر الفولاذ مصهوراً ؟

— أما قال ربك : وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ؟

— وهل عندهم غواصة تقذف النار تحت الماء فتدك السفين

— لا أدري لا بد ان يكون عندهم والا فكيف يغوصون في الارض

— وهل عندهم الغازات السامة ؟

فتحير الرجل ماذا يجيب وتردد وقال : لا وانما عندهم ألسنة من لهيب

— ليس عند الجن شيء من هذا ياسيدي لأننا ما رأينا ولا سمعنا . وهب ان عندهم كل ذلك فما اعتدوا على الانسان كما اعتدى الناس بعضهم على بعض

— يخافون اسم الله فلا يجسرون ان يقتربوا من الانسان وهو يكثر من لفظ اسم الله

— اذاً الجن يخافون اسم الله اكثر مما يخافه الناس

— ما هذا ! ويحك يا هذا !

— ألا تصدق ؟ المسألة بسيطة . قف امام صف من الجنود وهم يسلطون عليك بنادق موزر واذكر اسم الله على الدوام وانظر هل يرتعدون ويردون عنك بنادقهم

— والله انك لراع فيلسوف يا هذا

— نعم فلا تعجب اذاً ، اذا قلت لك ان الناس صاروا في هذا الزمان يجدون ان الجن آمن ملجأ لهم من الانس

— اذاً تظن هؤلاء الذين نزلوا في هذا المنحدر واختفوا فيه لجأوا الى الجن

— كذا أظن

— ولماذا لم تلجأ انت

— الى الآن لم يجسر احد ان يؤذيني حتى استعيذ بالجن

— لماذا لم تتجند والدولة في حرب الآن ؟

— لماذا اتجند ؟

— للدفاع عن وطنك

— اني خير من يدافع عن وطنه . الجندية تأخذ مني كل عام نصف ماشيتي لكي تموّن فرقة بها . فاذا لم ارع ماشيتي وأربيها وأربي نتاجها فلا يعيش جيش يحارب

— بارك الله بك . هل عندك طعام الآن

— فرغ وطابي . فالى الغد ياسيدي الامير

— ويحك . ما أنا امير .

— ستصير أميراً ان شاء الله

— كيف تعرف ذلك

— لأن من يخدم ينال الجزاء

— فنظر فيه الرجل محدقاً وهو يقول : يلوح لي انك تضمر اموراً غير ما تظهر يا ماكر

— كيف تعرف ذلك ؟

— كذا . . . يلوح لي

عند ذلك نبح الكلب فانتهره حسن والتفت الرجل كأنه يود ان يفهم سر نباح الكلب فرأى شخصاً ماشياً في الطريق على بعد ربع ميل عنهما وهو متجه الى المنحدر فاسرع قائلاً : اود ان ارى ماذا يكون مصير هذا الرجل . هل تخطفه الجان وتبتلعه بالوعة الآس .

وأسرع نحوه وكانت الشمس تغوص في افق الغرب فجمع حسن ماشيته وساقها الى حظيرتها

الفصل الثاني

حلبة ثمينة في كوخ الراعي

شق ذلك الفتى المسلح الذي كان يخاطب حسناً الطريق المؤدية الى رأس المنحدر فاشرف على الشخص الآخر وهو ينعطف في عطفة صخرية تظلها أنجم الآس واختفى هناك

فأسرع ذلك الرجل المسلح الى ذلك المنعطف لكي يرى كيف اختفى ذلك الشخص فيه . وحام هنا وهنالك فلم يستطع ان يكتشف منفذاً في الارض ولا فوهة . فازداد حيرةً . كيف اختفى ذلك الشخص هناك . لا ريب انه جن من الجان

وما زال حائماً حول ذلك المكان حتى خيم الظلام . ولم يبق من ضياء الا ضياء ثوابت السماء الضعيف . ولما عقد النية على ان يبرح تلك الناحية سمع وقع أقدام . فكمن تحت شجيرات الآس . ثم ما لبث ان شعر بوقع

الاقدام فاستعد للصدام . ولما اقترب القادم أحس انه توقف امام الصخرة التي هو كامن الى جانب منها . ثم مالبث ان رأى القادم يقترب الى الصخرة حتى رآه جيداً على بعد بضعة أمتار منه . ولكن القادم لم يره لانه كان مغلغلاً بين شجيرات الآس . ثم مالبث ان رآه قد فتح غصون الآس النابتة عند قاعدة الصخرة بعضها عن بعض وهي غصون غضة جداً . وغلغل بينها كما يغلغل الصل . وفي دقيقة اختفى كأن الارض ابتلعته حقيقةً .

كان ذلك الرجل المدجج بالسلاح يرى هذا الأمر الغريب وشعر رأسه يزبئرُّ اذ لاح في ضميره ان يكون هناك مسكن للجن ويكون هؤلاء الغائصون في الارض جاناً حقيقة

بعد دقيقة انسلَّ على مهل وقلبه يخفق خفوقاً بالرغم مما أوتيه من شجاعة ، حتى دنا من ذلك المكان الذي غلغل فيه ذلك الشيطان وأنصت فلم يسمع حركة ولا دبيباً ولا حفيفاً . فازداد حيرة وارتباكاً . ثم غلغل قليلاً بين شجيرات الآس الغضة فلم يجد المسلك سهلاً وخاف ان يغلغل كله . فارتد جزعاً وبقي يفكر ماذا يفعل

وما هي الا دقائق معدودة حتى سمع حركة في قلب الارض فجزع وارتد الى مكمنه وتربص . وما هي الا دقيقة أخرى حتى رأى ذلك الشبح يعود خارجاً من بين الشجيرات الغضة التي كان قد غلغل فيها قبلاً . ورآه قبل ان يقف يتلفت الى هنا وهناك موجساً . وما وقف الا بعد ان انسلَّ على الارض مسافةً وصار في الطريق المنحدر فسار فيه الى البطحاء التي كان فيها الراعي حسن . فانسل الرجل المسلح وراءه وتتبعه بكل خفة ورشاقة عن بعدٍ . وليس الا ضياء النجوم في السماء يكشف شبحه له

وما زال يتتبعه حتى اعترض له في الطريق شخص آخر فوقف قائلاً : همساً

— من الرجل

فاجابه ذاك همساً : انا . انا . هل انت عثمان بك ؟

— نعم . هل انت حليم ؟

— نعم . هل عرفت هذا الرجل ؟

— لا . هل عرفته انت ؟

— نعم . هو الراعي

— اذاً يجب ان نسيطر عليه الليلة عقلاً وجسداً

— انه ذاهب الى حظيرة ماشيته

— نقبض عليه هناك

— اين كان هذا الخبيث ؟

— اذاً له صلة بالـ . . .

— بلا شك . تعقبني عن بعد عشرين خطوة ولا تهجم الا عند الضرورة . هل رأيت احداً غيره ؟

— كلا . وانما سمعت وقع اقدام بعيدة

— لعلها وقع اقدامي . هيا قبل ان . . .

وانسل ذلك الفتى المسلح وراء الراعي الى ان رآه دخل الى كوخه الحقير فكمن له خارجاً

حتى رأى نوراً يومض من خصاص الباب . فوصوص منها . ورأى الراعي يبحث عن شيء بين ملابسه المعلقة فاذا هو يستخرج منها كتاباً صغيراً . وقد وضعه بين ثوبه وصدره واطفأ المصباح وارتد يريد الخروج . وما فتح الباب حتى رأى تحت نور النجوم المتلألأة مسدس الفتى المدجج بالسلاح مسدداً اليه . فذعر وارتد الى الوراء . ولكن الفتى المسلح قال له : مكانك ! حاذر ان ترجع او ان تتقدم قيد شبر والا قضيت عليك في لحظة . حاذر ان تبدي أية حركة . ارفع ذراعيك

ثم صفر المسلح قليلاً فانقض الشخص الآخر على الكوخ . فقال له ذاك : أنر المصباح حالاً

فضرب الثاني عود ثقاب ، فضاء ورأي المصباح فأضاءه . ثم بحث في الكوخ فوجد حبلاً فاوثقا كلاهما الراعي وثاقاً محكماً . وسأله الأول :

— لماذا عدت من بالوعة الجن

فبقي الراعي صامتاً . فقال له : اذا لم تجب فضينا عليك

فقال بجنان ثابت : — لم اعد اطمع بالحياة

— تعني انك لن تقول

فبقي صامتاً . ففتشاه فلم يجدا معه سوى الكتاب الذي اخذه من بين ملابسه ففحصاه فاذا هو القرآن الشريف . فسأله احدهما : لماذا جئت تأخذ القرآن من هنا ؟

— ولماذا يحتاج الانسان القرآن لغير قراءته

— وهل في بالوعة الجان رواق للدرس او قراءة القرآن ؟

فبقي صامتاً . وفيما هما يبحثان في جيبه وجدا نقاباً اسود صغيراً فيه ثقبان للعينين كأنه يستعمل للتنكر . فسألاه عن امره فلم يجب

فتشا الكوخ كله فلم يجدا شيئاً آخر يستلفت النظر . حاولا ان يستخرجا من ضميره سراً فلم يستطيعا واخيراً قال الفتى الاول المسلح : اخاف ان نضيع الوقت في استجوابه على غير فائدة . فالأفضل ان تبقى انت تحفره هنا وانا اعود الى بالوعة الجان . اين رفاقنا الآخرون ؟

— أظنهم كامنين حيث تعهدهم

— اذاً يجب ان اعود عاجلا . ولكن خطر لي خاطر .

— ما هو

— ان ارتدي ثوب هذا التعس فوق ثوبي اذ لابد ان اضطر الى التمويه والتنكر

— نفذ خاطرك

— اذاً دعنا نحل وثاقه ونخلع عنه ثوبه

وفيما هما يحلان ثوب الراعي ظهر لهما انه ليس راعياً كما يقول بل هو متنكر بثوب راع تمويهاً . ثم وجدا معه سلسلة ذهبية في عنقه معلقة فيها حلية ذهبية مرصعة بالفيروز والعقيق والزبرجد بشكل رسوم مصرية قديمة . فسأله الفتى المسلح ماهذا ؟

— هذا كما ترى

— وهل راع مثلك يتحلى بحلية ؟ ليست حلية يا هذا والا ما اخفيتها تحت ملابسي . ان هي الا تذكار

— ممن ؟

— هل يهمك يا هذا ان تعلم ممن . هبها تذكاراً من اخت أو أخ أو ام أو اب

— على كل حال اظنني احق بها منك

— عجباً . ابلغت منك الجسة الى هذا الحد ان تنهبني شيئاً ليست قيمته عندك مهما عظمت عشر معشار قيمته عندي ؟

فزجره الفتى المسلح قائلا صمتاً والا قضيت عليك . هل تنتظر مني ان احسب لك حقاً بشيء ؟

— كان افضل جداً ان تقضي عليّ قبل ان تسلبني أعز ما عندي . ان كنت لصاً نهاباً تريد ذهباً فعندي ما يملأ فمك . فدع هذه الحلية مكانها في صدري فهي آخر تعزية لي في شؤمي

— وماذا تفيدك يا تعس وانت ستموت بعد قليل من الزمان

— اود ان تدفن معي فهي تعويذة لروحي ترد عني أرواح الشر

— انك ذاهب الى سقر على كل حال ايها الخائن الدولة والوطن

— وهل انت واثق انك امين للدولة والوطن ؟ اني ارى الدولة بين ايدي الخونة الآن .

— صمتاً وسحقاً وتباً ياشقي . والتفت الى رفيقه وقال دعني من مماحكة هذا الكلب انا ذاهب الآن ولا ادري متى أعود أوارسل لك مساعداً . فاخفر هذا الخائن ربما يأتيك مني خبر او أمر من ال . . . ها انا ذاهب الآن . دعنا نوثقه قبل ان افارقك

واوثقاه ثانية وارتدى الفتى ثوب الراعي وانطلق في سبيله الى بالوعة الجان كما سماها وبقي الآخر يخفر الراعي

الفصل الثالث

صدمة الأبالسة

في بضعة عشرة دقيقة وصل الفتى المسلح الى بالوعة الجان كما سماها ومعه نقاب الراعي وقرآنه وحليته . وغلغل بين شجيرات الآس حيث رأى الراعي قبلاً يغلغل وهو يقول في نفسه : اذا لم يحمني سلاحي من هؤلاء العفاريت فقرآني يحميني . ومع ذلك فنحن قد اصبحنا في وقت بات الموت فيه بغية كل حي

وبقي يغلغل حتى صار في مثل كهف تحت الصخرة . ثم ما لبث ان وجد نفسه يدخل في كوة تسع الرجل . فاندفع فيها فاذا به قد بلغ

الى فراغ مظلم . فتوقف مبسوطاً على بطنه وحدق ببصره فلم ير شيئاً ولكنه احس بنسيم خفيف بارد فاندفع ايضاً . فاذا الفراغ متسع فنهض جاثياً ثم اصغى ونظر فما سمع شيئاً ولا رأى لان الظلام ما زال حالكاً . فتناول من جيبه علبة ثقاب وضرب عوداً فضاء المكان فاذا هناك مغارة واسعة والتفت الى هنا وهناك فرأى اعقاب شموع مرمية . فتناول اطولها واناره واجال نظره في المغارة ومشى فاذا به يرى دهليزاً منحدراً

فتقدم الى الدهليز فرأى وتداً حديدياً مضروباً في اول الدهليز في الارض وقد ادخلت فيه حلقة تتصل بسلسلة حديدية طولها نصف متر وفي طرفها الآخر حبلان منحنيان معقدان مدليان الى اسفل الدهليز . ففهم ان الابالسة ينزلون في الدهليز مستعينين بهذين الحبلين

فوضع النقاب على وجهه ونزل فاذا الدهليز طويل متعرج . فما زال ينزل حتى صار يسمع لغطاً : فتوقف خافق الفؤاد فاذا اللغط بعيد ، فنزل حتى بلغ الى مغارة اخرى ، فتوقف فاذا الصوت من بعيد ولمح نوراً ضئيلاً فرأى سرداباً آخر يؤدي الى مغارة اخرى فسار فيه فاذا هو منحدر : وما لبث ان رأى السرداب ينحدر وفيه ايضاً حبل مدلى معقد فتربص هناك . فاذا الصوت اصبح مسموعاً فعلم ان هناك مغارة فيها احياء . فنزل مستعنياً بالحبل

وما نزل نحو قامة حتى انكشفت له مغارة واسعة جداً وانوار الشموع تشع فيها . ثم عثر على دهليز فدخل فيه مختبئاً ريثما يتحقق ما هناك . وما لبث ان رأى شعاع نور في الدهليز فتقدم اليه فاذا هناك كوّة تشرف على المغارة التي فيها الشموع . فقال في نفسه ليس افضل من هذا المكان للاشراف على مجمع الابالسة

واتكأ في الدهليز ورأسه في الكوة واجال نظره فاذا هناك بضعة عشر شخصاً وكلهم منقبون كنقابه ومعظمهم بالزي العربي وقليل منهم بالزي الافرنجي وعلى رؤوسهم الطربوش وفوقه الكوفية والعقال . فدهش لهذا المنظر . واوجس شراً

وكان بعضهم يحادث بعضاً كانهم في سهرة عادية . ثم تقدم في الدهليز فاذا به ينحدر رويداً حتى كاد يبلغ الى منفذ لهذه المغارة الكبرى وانما لاحظ أنه يمتد الى ما دونها كانه طريق الى ابعد منها واوطأ . فقال في نفسه : لابد ان تكون باقوعة الجان هذه طبقات . والله اعلم اين تنتهي الطبقة الدنيا منها . لعلها تنتهي في بطن الوادي ومنها يخرج الابالسة البشريون

ثم عاد في ذلك الدهليز الى الكوة المشرفة على ارض المغارة لانه لا يجد مكاناً افضل لمشاهدة مجمع الجان من غير أن يشاهدوه ، واتكأ على راحته وراسه في الكوة ونظره مسيطر على كل ما في المغارة الكبرى والذين فيها كلهم وقوف يتخاطبون من غير نظام

وماهي الا دقائق معدودة حتى رأى شخصاً ينزل متعلقاً بالحبل المعقد فانتبه له الجميع واستقبلوه بحفاوة واكرام وصافح كل واحد

منهم . ثم قال : يا اخوان العهد . الآن الساعة الثامنة فلنبدأ عملنا . هل تخلف احد عن الحضور ؟

فنظر بعضهم الى بعض ثم قال احدهم اظن ان الاورشليمي لم يحضر بعد

فقال آخر : جاء ثم عاد لاستحضار القرآن الكريم . بعد قليل يعود . فليضع كل منا شعاره

وفي الحال دس كل منهم يده في جيبه واستخرج منها عصابة سوداء عليها كتابة ، وعصب بها رأسه فوق نقابه فضرب الفتى الكامن في السرداب يده في جيب عباءة الراعي التي ارتداها فعثر على العصابة فتأملها فاذا مكتوب عليها « الاورشليمي » ففهم ان الراعي يعرف عندهم بهذا الاسم . ثم جعل يتبين الكتابات التي على عصابات الاشخاص المنقبين المتنكرين فقرأ هذه الاسماء :

الدمشقي . البيروتي . اللبناني . اليافي . المعاني . الحجازي . اليمني . النجدي . العسيري . الحضرموتي : الحموي . الحمصي . الحلبي . البغدادي . الموصلي . البصروي . الحلي . المصري . التهامي . العدني . الكويتي الوهابي .

وهناك بعض اسماء اخرى لم يستطع قراءتها عن بعد لقلة وضوحها . فقال في نفسه : يالله كل جن العرب هنا . وما عساهم ان يفعلوا . ان هذا الكمين لاعظم مما كنا نتصور واغرب مما انتظرنا

ولما استتم الاعضاء عصب رؤوسهم بعصابات شعارهم قال الزعيم وعصابته حجازية : فلنصل الآن معاً صلاة العهد بلسان واحد

واصطفوا كدائرة النقى طرفاها عند ذلك الزعيم . وقالوا

« ايها الاله العادل اعقد لسان كل خائن فينا وجمد دمه في عروقه وشل يده ورجليه وجننه حتى تنفضح سرائره .

« ايها الاله نحن مجتمعون الآن هنا لغرض مقدس وهو الحرص على الحرية التي منحتنا اياها وعلى الاتحاد الذي به نكون شعبك اللائق بان يمجد اسمك . نعاهد قدسك الآن بان نكون امناء لهذا الغرض المقدس حتى الموت . نموت شنقاً او حرقاً ونحتمل كل عذاب ولا نخون هذا الغرض المقدس . فالاهم ساعدنا حتى ننال امنيتنا المقدسة . امين »

ثم قعدوا على افريز منحوت في الصخر يحيط بارض المغارة كدائرة ولكنها غير تامة ولا هي تامة النظام . وبقي الزعيم واقفاً . وبعد هنيهة قال : اطلب من امين المجلس ان يلقي على مسامعكم خلاصة الاعمال حتى الآن

فوقف الحموي بثوب افرنجي ايضاً ولكن على رأسه الكوفية والعقال وقال :

« ياخوان العهد . في الجلسة الماضية علمتم ان الرسل الذين عادوا من عند امراء العرب ابلغونا ان اولئك الامراء مستعدون للاتحاد معنا اللهم اذا كنا نثبت على عهودنا . وقد اعربوا لنا كلهم انهم لا يعارضون قط في تجديد الدولة العربية العظمى التي تكون لنا حمى الدنيا والدين

على شرط ان تبقى لهم اماراتهم وسلطانهم في مناطقهم مصونة محترمة . وفي مقابل احترام هذه الامارات وحريتها وسلطتها يقدمون هم قوات للدفاع عن كيان الدولة العربية العظمى وبعضهم يتعهدون ان يتقدموا اتاوات اذا اقتضى الأمر . وقد ارسلوا مندوبين من قبلهم تأكيداً لوعودهم هذه

« هذا من جهة الامراء . واما من جهة البلاد الاخرى التي لا تزال تحت وطأة الحكم التركي فجميع الزعماء فيها يكادون يكونون في رأي واحد من حيث استقلال العرب . وانما يختلفون في مقدار هذا الاستقلال ومقدار انفصال البلاد العربية عن الترك . فبعضهم يريدون استقلالاً تاماً وانفصالاً باتاً . وبعضهم يريدون بقاء السيادة العثمانية الاسمية . وبعضهم يفضلون الانفصال عن الترك ثم محالفتهم اذا رغبوا

« وأما من جهة الترك فلم نتنسم نسيماً يوافق دفتنا الا نسيماً واحداً ضعيفاً جداً لا يكاد ينفخ قلوعنا او يحرك سفينتنا وهو ان احد القواد قد يتولى زعامة هذه العناصر العربية والخروج بها على الدولة والعصيان والاستقلال بالقوة .

« وهناك حركة أخرى وهي من قبل الحلفاء فان دولتين عظيمتين تساومان بعض امراء العرب على الاستقلال فتعترفان للعرب بالدولة العربية الجديدة وتساعدانها بالمال والرجال والسلاح على شرط ان الأمراء يساعدون الحلفاء في مقاومة الترك وطردهم من جميع البلاد العربية

« هذه زبدة ما بلغنا اليه رويته لكم ايها الاخوان . فلكم الآن ان تتناقشوا وتقرروا! ما ترومون »

الفصل الرابع

مناقشة الابالسة

عند ذلك وقف الزعيم وقال : — وانما اود ان استلفت نظركم ايها الاخوان الى امر ذي شأن . وهو ان الوقت ثمين جداً والحالة حرجة . وقد أصبحنا عند مفارق الطرق وصرنا مضطرين ان نقرر مصيرنا في هذا الفصل بل في هذا الشهر بل اليوم بل الليلة . فارجو منكم الا تضيعوا الفرصة بالمناقشات التي لا طائل تحتها . لقد بسط لكم امين المجلس مفارق الطرق فاختاروا مفرقاً منها

فوقف اليمني وهو في ثوب عربي بحت وقال : اذا لم يكن بدٌّ من الاستقلال فليكن استقلالاً — استقلالاً مطلقاً لا استثناء فيه ولا استدراك . والا فلنبق كما نحن . اني امثل قوماً كبيراً قائماً بذاته . وهذا القوم يريد ان

يكون العرب كلهم امة واحدة في مملكة واحدة وتحت راية واحدة ولهم دولة واحدة لاشريك لها في الحكم . نعم نريد دولة عربية قائمة بذاتها لاارتباط لها بسواها يقيد حريتها . نريد استقلالا تاماً خلواً من كل الاعتبارات الاخرى التي قد تثلم وحدة هذا الاستقلال

« ان العرب كانوا مستقلين عهوداً طويلة منذ ٥ او ٦ آلاف سنة فما هم جديدون في التاريخ . فلماذا يكونون الآن مقيدين بالترك تارة ومعتمدين على الافرنج اخرى وممزقين حيناً في امارات متعددة .

« نريد دولة عربية عظمى تجمع كل العناصر العربية وتقف مع الدول العظمى وقفة الند مع الند

فتحمس البغدادي حينئذ وهو في ثوب عربي حضري لا بدوي يلبس الجبة ويعتم بالعمامة وقال : لا أظن احداً قط يأبى ان تكون العناصر العربية كلها مملكة واحدة تحت سلطة دولة واحدة قوية مستقلة عن أي دولة ولكن الطفرة محال . وهذا الانتقال الفجائي صعب بل متعذر

فنهض السابق وقال : — لماذا يستحيل ؟ هل تنتظر ان يطلق لنا الترك الحبل على الغارب ويقولون خذوا حريتكم واستقلوا

— لا . وانما . . .

— وانما تعني لا بد من ثورة وتمرد وعصيان . فلتكن الثورة . فاذا نجحت استقللنا مرة واحدة . وان لم تنجح نكن غير مستحقين استقلالاً

— حلمك يا اخ . التمرد لا بد منه اذ لا ننال شيئاً بالراحة . وانما يجب ان يكون التمرد او الثورة مقرونة ببلاغ تبدو فيها الطلبات

— طلباتنا الاستقلال التام

— حلمك ياسيدي ! لاتنس اننا مرتبطون بالخلافة أعظم ارتباط وكرسي الخلافة عند الترك

— لا بأس ، الهنود المسلمون مرتبطون بالخلافة أيضاً وكرسي الخلافة عند الترك . فوجود الخلافة عند الترك لا يمنع استقلال المسلمين الذين ليسوا تركاً ، وفي الوقت نفسه يحافظون على رباطهم الديني بالخلافة . ثم ماذا يمنع ان تعود الخلافة الى مقرها العربي الطبيعي التاريخي التقليدي

— لاشيء يمنع ذلك يا سيدي الا اننا بالجهاد لاسترداد الخلافة الى العرب نكثر مخاصمينا . ان اقتصارنا على طلب الاستقلال يجعل الترك وحدهم خصومنا . واما استردادنا الخلافة منهم فيقسم العالم الاسلامي الى حزبين حزب معنا وحزب مع الترك . وفي هذه الحالة نعرض انفسنا والترك ايضاً للخيبة والفشل .

— وماذا تريد ان نفعل ايها الاخ

— ارى ان الخطة المثلى ان نساوم الترك على استقلالنا . نقترح عليهم ان نجاهد معهم . حتى الامراء المستقلون منا يجاهدون معهم ايضاً . وفي مقابل ذلك يعترف الترك باستقلالنا تحت سيادة الخلافة

فوقف الدمشقي وهو في ثوب عربي وصاح :— كفى كفى. من جرب المجرب كان عقله مخرب . اما تعلمنا بعد كيف تكون معاملة الترك للعرب ؟ اما اختبرنا بعد وعود الترك للعرب وعهودهم ؟ أي برهان لم يبرهن به الترك بعد على انهم بلا ذمام ولا عهود ولا شرف كلام ولا قيود ؟ اما فهمنا بعد ان الذين شنقهم جمال في الشام وعاليه هم انفسهم الذين عاهدهم الاتحاديون على الاصلاح واقسموا لهم الايمان المغلظة انهم اخوانهم المخلصون الذين يستعينون بهم على رفع شأن الدولة ؟ اليسوا هم الذين يحبب الترك اليهم وطلبوا منهم ان يطمئنوا العرب ويقنعوهم بحسن نيات الاتراك . اما قام العرب على السيد عبد الحميد الزهراوي لانه انصاع لوعود الترك . وكم مثل الزهراوي فعلوا به ما فعلوا بهذا ؟ اخبروني الآن ماذا كان ذنب الذين شنقهم الاتحاديون في اول الحرب ؟ كان ذنبهم انهم لما شبت الحرب ودخلت فيها الدولة جعلوا يكاتبون بعضهم بعضاً ويقولون : الآن اصبحنا جميعاً من ترك وعرب امام اعدائنا الاوربيين الاشداء ، فيجب ان نسكت الآن عن طلب الاصلاح وان نشد ازر الدولة حتى تخرج منصورة . هذا كان ذنب اولئك العرب عند الترك الذين راموا بقتل رؤوس العرب ان يقتلوا النهضة العربية لكي يجعلوا العرب خدمة وعبيداً وعمالاً يعملون مسخرين في بناء الدولة الطورانية التي يحاول الترك انشاءها بحيث تستغني عن كل ما هو عربي حتى القرآن الشريف ولغة القرآن واهل القرآن .

فحتى متى ياقوم تطرحون انفسكم على اقدام الترك وهم يحسبون اخلاصكم لهم ذنباً يستحق الشنق . والى متى تثقون بمواعيد الترك الكاذبة وعهودهم الخداعة . الى متى تخضعون لغطرسة الترك وهم لا يحسبون لكم حقاً بالوجود الا كحق وجود الرقيق لسيده

اننا عرب . عرب منذ القديم . عرب من قبل ان يظهر هؤلاء للوجود . عرب ذوو دولة مجيدة منذ عشرات الالوف من السنين . عرب اهل مدنية وحضارة ووحي . عرب اكثر عدداً من الترك واعرق تاريخاً واسمى مدنية . فنريد ان تكون لنا دولة قائمة بذاتها .

فوقف البيروتي حينئذ وقال : — اني اوافق على كل ما قاله هذا الأخ . وازيد عليه اننا نريد ان نكون دولة مستقلة تمام الاستقلال ولكن لا يمنع ان تكون دولتنا محالفة لدولة الترك على الشروط والقيود التي نضعها نحن . مهما استقللنا عن الترك تبقى لنا معهم روابط محتومة لا بد منها . فاذا شئتم فنتفق على اعلان الثورة مشفوعاً بطلب الاستقلال المطلق مع وعد محالفة الترك

فعاد الدمشقي يقول : — لست على ثقة بشيء من محامد الترك وحسناتهم وعواطفهم . لا اقدر ان اتصورهم الا غيلاناً بلا ضمائر . ولذلك لا استحسن ان نعدهم بشيء . نترك ذلك للمستقبل حتى اذا وجدنا انهم استفاقوا

من غرورهم وشعروا بفسادهم وجعلوا يصلحون من امر انفسهم فلا بأس ان نحالفهم ونكرمهم . لسنا متعصبين ضدهم بل هم يحتقروننا

فوقف الموصلي وقال : — اود أن يستثنى من هـذا الحكم اتراك الاناضول فهم بعكس اتراك الاستانة ومكدونيا على خط مستقيم . فهم يحترمون العرب ويحبون العرب . ويقدسون اسم العرب . واذا كان الترك يصلحون في المستقبل شؤونهم فعن يد اتراك الاناضول وبقوة هؤلاء فقط

فنهض البصري وقال : — اني أصادق على هذا القول كل المصادقة واقول لكم انكم سترون نهضة تركية جديدة ناشئة في الاناضول تكون اساساً لعهد جديد في تاريخ الترك . ولذلك أود الا نقطع حبـل العلائق مع الترك بتاتاً . بل يجب أن نبقى على وداد وصفاء معهم

فنهض اليـافي وقال : — ليس للأمر وسطاء فلا نقدر ان ننفصـل عن الترك ونبقى موادين لهم . ان الانفصال عنهم بالمساومة مستحيل وكل المستحيل . فلا بد من المناهضة ، والمناهضة تفصم حبل العلائق . ولذلك اقول أننا نتشىء دولة عربية عظيمة مستقلة من غير ان نشاور الترك أو نساومهـم أو ان نتفق معهم أو ان نستأذنهم أو ان نسترضيهم . رضوا او لم يرضوا سيان . نحن عرب قبل الترك ، فيجب ان نكون دولة عربية من غير نظر اي نظريات اخرى . لقد صدق من قال اننا اختبرنا الترك . نعم اختبرنا الترك ٦٠٠ سنة وهو وقت كاف للاختبار فبرهنوا لنا انهم ليس اكفاء لأن يقوموا بدولة اسلاميـة عظمى . وما قاموا في عصرهم ونهضوا واستفحلوا ببراعتهم وأهليتهم ومقدرتهم وذكائهم ، بل قاموا ونهضوا لأن اوروبا كانت نائمـة . كان العالم كله نائما نومة الجهل حتى الترك كانوا نائمين هذه النومة . وانما كانوا ناهضين للغزو والفتح فوجدوا الدنيـا كمدينة الموتى . عمران في ليل مدلهم ، وهم وحدهم مستيقظون يقظة اللصوص . فكان الجو خالياً لهم فطغوا وسطوا وفتحوا وملكوا . لقد دخل الترك الى بلاد التاريخ القديم المملوء آثاراً تدل على مجد الآخرين — امم مصر وفينيقيا وبابل واليونان ومكدونيا — تلك الامم القديمة تركت بلادها ملأى آثاراً عجيبة . فماذا ترك الترك من الآثار . فالله لم يتركوا الا آثار الهمجية . اما آثار المدنية القديمـة التي خلعها عيرهم فقد دمروها وبددوها . فحتى متى نتقيد بالترك . نحن عرب ونريد دولة عربية وكفى

وقعد الرجل وهو يلهث تعباً من خطبته التي ألقاها بحدة شديدة

فنهض النجدي وقال : — الحق انه ليس للترك تاريخ مجيد واذا بادوا لا يبقى بعدهم آثار يفخر بها تاريخهم . ولذلك كانت مدة حكمهم عقبة في سبيـل ارتقاء الشرق عموماً والعرب خصوصاً . ولذلك ينبغي ان ننفصل عنهم ونستقل ونقيم دولة عربية تعيد مجد العرب القديم ونحفظ كياننا كأمة قوية بين سائر الامم . فلننفصـل عن الترك . وفي المستقبل اذا وجدنا لنا مصلحة في محالفتهم نحالفهم

فنهض الزعيم الحجازي وقال :— نطرح عليكم هذا السؤال فمن يوافق على احد وجهيه يقف : امامنا اقتراحان الأول ان نستقل عن الترك استقلالاً مطلقاً تاماً بأي الوسائل ولا نقيد انفسنا بعلاقة معهم . والثاني ان نساومهم على الاستقلال عنهم بالاتفاق معهم وبحيث يكون للدولة العلية سيادة اسمية . فمن فضل الاقتراح الاول فليقف

فوقف اكثر من ثلثهم . ثم قال ومن يفضل الاقتراح الثاني فليقف

فوقف بضعة قليلة جداً . ولكن الحلبي لم يقف قط فاشار اليه الزعيم وسأله . ما رأيه فقال : — لست اقف لاي الاقتراحين لأن عندي اقتراحاً ثالثاً وهو ان تستقل البلاد العربية كل واحدة وحدها استقلالاً ادارياً واسعاً جداً بحيث لا يبقى للدولة العلية الا السيادة الاسمية

فقال الزعيم : ان هذا يشابه الاقتراح الثاني

— نعم وانما على مبدأ اللامركزية وعلى نسق الممالك الالمانية

فصاح بعضهم : لا نريد علاقة بالترك بتاتاً

فقال هذا : — لا بأس ان نكون دولاً صغيرة متحالفة كالولايات المتحدة الاميركية

فقال آخر : نريد الاستقلال أولاً وبعدئذ نتفق فيما بيننا

فقال الزعيم :— على كل حال لقد حبطت كل الاقتراحات الا الاقتراح الأول وهو الاستقلال المطلق وتأسيس دولة عربية كبيرة

فدوت أصوات الجميع : نعم . نعم . نعم

الفصل الخامس

مشاجرة الابالسة

فقال الرئيس : — ننتقل الآن الى نقطة اخرى وهي . ماهي الوسيلة للاستقلال ! فبعض يرتأون اننا نأخذه عنوة بتمرد وثورة . وبعض يرى أن نساوم عليه . فابحثوا في هذه النقطة . واذكروا اننا اجتمعنا الليلة هنا لكي نقرر امراً نهائياً اذ لم يبق عندنا متسع من الوقت

فوقف احدهم وقال : لست أرى الثورة ممكنة بوجه من الوجوه ونصفنا تحت تهديد السيف والمدفع . ان اخواننا امراء العرب بعضهم مستقلون فعلاً وبعضهم شبه مستقلين . فهل يستطيعون وحدهم ان يحاربوا الدولة ويطردوا الترك من سوريا والعراق ويردوهم الى الاناضول ؟ وهبهم استطاعوا فكيف نتمتع نحن السوريين والعراقيين باستقلال لا نصيب لنا في تحصيله .

فنهض اليمني وقال : نحن نحارب الدولة

وردها عن سوريا والعراق ولا نمنعكم بتحرير بلادكم

— شكراً لغيرتكم ايها الاخ الكريم . وانما اود ان استلفت نظركم الى امر وهو : متى كنتم تحاربون الدولة ساقتنا الى محاربتكم قهراً فنضطر نحن وانتم على كره منا ومنكم ان نقاتل بعضنا بعضاً ويلذ للدولة حينئذٍ ان ترانا نفني بعضنا بعضاً

فقال الآخر : لا تسوق الدولة عرباً لمحاربة عرب لانها لا تثق بجنودها العرب حينئذ ولا تعتمد على اخلاصهم

فقال الحلبي : — في هذه الحالة تنتقم الدولة من جنودها العرب وترسلهم الى اشق الميادين واخطرها كما هي فاعلة الآن . فلذلك اقول انه يفضل جداً ان يتألف وفد من امراء العرب يفاوض الدولة ويساومها على هذا الاقتراح وهو ان جميع العرب على اختلاف عناصرهم ينضمون اليها لمساعدتها وانقاذها من اعدائها ورد مطامع اوروبا عنها والحرص على سلامتها . وهي في مقابل ذلك تعترف باستقلال البلاد العربية التام وتعقد مع الدولة العربية الجديدة محالفة متينة

فنهض الحضرموتي وقال : — انه لاقتراح حسن جداً لو كان الترك ينفذونه

فقال السابق : — عندي وعود وثيقة على ان الترك يقبلونه وينفذونه

— عندك ياصاح وعود منهم على انهم يقبلونه وانا اثق انهم يقبلونه . واما تنفيذهم له فهو موضع الشك . فهل يمكنك ان تحصل على ضمانة لتنفيذه

— لا ادري كيف تمكن ضمانة امر كهذا ايها الاخ

فقال الدمشقي : — ولا انا ادري كيف تمكن الثقة باقوال الترك ووعودهم وعهودهم وهم ما صدقوا في وعد ولا عهد . لعلّ كبيراً ذا نفوذ تثق بشرف كلمته ياصاح . وعدك وتعهد لك ويصعب عليك ان تشك بوعده . وربما كان صادقاً حقيقة . ولكن الترك اعتادوا امرين الاول انهم متى انتصروا وظفروا وفازوا نسوا وعودهم وعهودهم بتاتاً . والثاني ان الذين يتولون الامر منهم لا ينفذون عهود اسلافهم . ومتى رام الترك نقض عهد صريح خلعوا المتعهد ونصبوا ناقض العهد . فلا فائدة من مساومة الترك ياسيدي . ان الوقت الحاضر انما هو وقت نسخ العهود ونقض الوعود . فاذا كانت المانيا حليفتنا العظيمة تقول ان العهود قصاصات ورق ، فهل تنتظر من الترك احترام قصاصات الورق . فالافضل ان تضربوا صفحاً عن هذا الاقتراح ايها الاخوان

فقال الحلبي : — اني اعتقد ان هذا الحكم على الترك جائر جداً . ان الترك الآن في موقف حرج ولا ريب انهم يصدقون . . . .

فقاطعه آخر قائلاً : ترى هل في الامكان اطلاع هذا المجلس على الشخص او الاشخاص الذين وعدوا بمعاهدة العرب

فقال ذاك : نعم . وزير الحربية انور باشا

وعد وقال انه اذا كان يثق من نجدة العرب للدولة ففي امكانه ان يقنع مجلس الوكلاء بقبول المعاهدة

فقال البيروتي السابق : — لا اظن ان فرداً مهما كان عظيماً في الدولة يستطيع ان يقيد الدولة في معاهدة ويضطرها الى احترام عهدها ولاسيما في هذا الوقت الذي تتطور فيه الدولة كل يوم تطوراً جديداً . ومع ذلك فقد سبرنا غور الدولة من جهات اخرى فوجدنا ان الاتفاق معها من هذا القبيل مستحيل . لا نجد اكثرية في الترك تسلم باستقلال العرب . وهب ان الدولة امضت على صك معاهدة معنا فلا تستطيع ان تنفذ هذه المعاهدة بل نضطر نحن ان ننفذها بالقوة . وما دامت القوة امراً لا غنى عنه فلا فائدة من العهود . دعونا من العهود يا اخوان فما هذا وقت نحترم فيه عهود . اذا كنا نحن في خطر من خيانة بعضنا عهود بعض فلا بدع ان يخون الترك عهودهم لنا

ثم وقف العماني وقال : نعم . ان مساومة الترك لا تجدي ولا تفضي الى نتيجة صالحة . ولكن لا بد من مساومة مع آخرين لاننا لا نستطيع ان ندخل في هذا المعمعان ونسلم منه سالم نكن متقين الخطر من ورائنا على الاقل حتى نستطيع الدفاع امامنا

فقال آخر : ماذا يعني حضرة الاخ

— اعني ان الحالة حالة حرب الآن والدولة في ميدانها ولا تستطيع الخروج منها قبل ان تنتهي . فاذا قمنا ضد الدولة فلا نضمن النجاح . وهب اننا نجحنا في خلع نيرها فكيف نضمن النجاة من غيرها والدول الآن تحارب بعضها بعضاً وتعتمد في الآخر على حقوق الفتح . فاذا نحن دفعنا الترك واجليناهم عن جميع البلاد العربية فهل في وسعنا ان نصد اعداءهم عنا اذا انتصروا ؟ فلذلك اقول انه يجب علينا ان نساوم اعداء الدولة حتى اذا نجحنا بطرح نيرها عنا لا يتسنى لاولئك الاعداء ان يلقوا نيراً بدل نيرها علينا

فنهض البيروتي وقال : — اذاً لا بد من معاهدة قوم . ان لم نعاهد الترك فنعاهد الانكليز والافرنسيس والطليان . واني أستغرب كيف نثق بهؤلاء ونستخون الترك . ولا ادري متى كان هؤلاء اصدق من الترك . فاسمعوا يا اخوان اذا كنتم قد جئتم الى هنا لكي تطبخوا طبخة فليس هنا مطبخ ولا حلة ولا نار . ان ما تسوغونه للاجانب يسوغ للترك . فاذا كنتم تريدون ان تساوموا فساوموا الترك اولاً لا الافرنج . نحن نعلم ان الافرنج اطمع من الترك .

فقاطعه الدمشقي متحمساً وصاح : ايها السادة . نحن نريد استقلالاً . نريد تأسيس دولة عربية . فما معنى ان نساوم احداً . اذا كنا لا نثق باننا اهل للاستقلال فلماذا نساوم عليه ؟ ان المساومة معناها الانتقال من عبودية الى عبودية اخرى ومن استبداد قوم الى استبداد آخرين . انتم تعلمون ان الانكليز يريدون ان يضموا مصر وان يلتهموا العراق ، وان الافرنسيس يتوقون الى اهتضام سوريا والطليان

يزدردون الآن طرابلس . فمن نساوم ؟ وكيف نساوم ؟ نحن نريد ان نستقل بدولة عربية عظمى حتى نخلص مصر من انكلترا فهل نشترط على انكلترا ان ترد لنا مصر وان لا تطمع بالعراق لقاء . . . لقاء . . . ماذا ؟ لقاء مساعدتها لنا على استقلالنا ؟ او هل نشترط على فرنسا الا تمد يدها الى سوريا جزاء لمعاونتها لنا على نيل الاستقلال . . .

فقاطعه العماني وقال : لماذا لا تقول جزاء لمعاونتنا دول الحلفاء انكلترا وفرنسا وايطاليا على كسب النصر ؟

— لا بأس . ان كان في امكانك ان تتفق مع انكلترا على خروجها من مصر جزاء محاربتنا معها ضد المانيا وحلفائها فنحارب مع انكلترا وحلفائها كمساومة الخروف والذئب على عظام الخروف . اذ مساومتنا لهذه الدول تفضي الى تمكين ايديها في رقابنا . فنحن نبتغي تجديد دولة عربية حرة والمساومة تفقدنا الحرية . فاذروا ايها الاخوان المساومة . لا مساومة ترك ولا مساومة اجانب . والاّ فابقوا خاضعين لنير العبودية

عند ذلك نهض الحلبي نهضة تدل على انه فتى في شرخ الشباب وقال : نعم نحن عرب وكل عمرنا كنا أحراراً وسنبقى احراراً فلا نقبل دخيلاً بيننا لا تركياً ولا أجنبياً . فليحي العرب . فليحي الاستقلال

فصاحوا كلهم : فليحي الاستقلال

وكاد النظام يختل فقال الزعيم : ارجو منكم المناقشة بلا حدة ولا اهتياج فما جئنا لنختصم بل لكي نتفاهم . كلنا عرب ونغار على مجد العرب ونريد تجديد دولة العرب . وقد اتفقنا بأكثرية الأصوات على تأسيس دولة عربية . ونحن هنا نمثل ولايات سوريا وفلسطين والعراق وامارات العرب جمعاء . وفينا مندوبون من البلاد العربية المسلوخة عن الدولة فلا يمكن ان نرتاب بوطنية أحد وانما قد نختلف في الرأي . ولهذا اجتمعنا هنا لكي نتفق . وقد اتفقنا مبدئياً على تأسيس الدولة العربية ، وانما وصلنا الى معضلة وهي كيفية الانفصال بسلامة عن تركيا وكيفية التأمين على انفسنا من اعتداء الاجانب . فجميع ما قاله الاخوان على تضاربه وتباينه معقول ، وجميع ما ارتأوه على اختلافه مقبول ويدل على حسن نيتهم . وانما نود ان نرى أصوب الآراء وأسلمها عقبى

نحن الآن في وسط معمعان لا حياد لنا عنه وليس في استطاعتنا ان نخرج منه باستقلال تام لاننا لسنا نملك قوة كافية للحرص على هذا الاستقلال . وقد فهمنا ان الاتفاق مع الاتراك يكاد يكون ضرباً من المحال . وان اسلم الوسائل هو الاتفاق مع بعض الأجانب على شروط معقولة مقبولة . وقد عرضت علينا شروط . فاذا شئتم نوردها لكم وثم نرى ماذا يكون رأيكم فيها

فوقف بعضهم وصاح :— لا لا . لا نساوم أجنبياً قط . لا نريد ان نعقد اتفاقنا مع احد . أن اتفاقنا مع الاجانب قيود لنا . لا نريد الاّ

ان نكون احراراً . أن بعضنا يريد ان يبيع البلاد ويساوم على الامة . . .

فصاح الرئيس : — مهلاً أيها الأخ . ان هذا الكلام لا يعد مناقشة بل هو سهم وسباب . انت الى الآن لم تدعني استوفي كلامي

— اني عالم بهذه المساومات

فقال آخرون : نريد نحن ان نعلم أيضاً

فقال الزعيم : تعرض علينا انكلترا ان نستقل بدولة عربية حدودها من الشرق الاوقيانوس الهندي وبلاد العجم ومن الجنوب البحر الأحمر ومن الغرب البحر المتوسط ومن الشمال جبال اراراط والاناضول . وليس علينا ان نحارب مع الحلفاء

— ومصر ؟

— وطرابلوس ؟

— وتونس والجزائر ومراكش ؟

— الامور مرهونة بأوقاتها أيها السادة . نحن نضع الاساس أولاً . وبعدئذ نشيد

— وماذا يكون اذا كان لانكلترا وفرنسا مناطق نفوذ اقتصادية فقط محدودة

فصاح احدهم . كفى بهذا النفوذ قيداً لنا

— ولكنكم تعلمون اننا في حاجة الى مال الاجانب ورجالهم الفنيين

— كفى كفى . ان مصيبة مصر جاءت عن يد اموال الأجانب فلننعلم من حالة مصر

— فصاح آخر : نريد ان نستقل فقراء وهو خير من ان نكون اغنياء مستعبدين

فصاح آخر . لن نكون اغنياء ونحن مستعبدون

— لا نريد تداخل الاجانب

— لا نقبل قيوداً من أجانب

— الاستقلال التام

— الحرية . الحرية

— فليحي العرب

وساد الهرج والمرج على هذا النحو حتى عجز الزعيم ان يرد النظام وما انتهى لغط اولئك الناس حتى سمعوا صياحاً من الدهليز : — جاسوس جاسوس . اليَّ اليَّ

فاسرع بعضهم الى الدهليز من فوق وبعضهم من تحت فاذا بهم يرون اثنين متصارعين يتدحرجان في الدهليز حتى بلغا الى ارض المغارة

الفصل السادس

تعويذة الحلية

وهجم الجميع على ذينك الشخصين المنحدرين وهم يقولون : « خيانة . خيانة » ودهشوا اذ رأوا احدهما مرتدياً عباءة الراعي والآخر الديدبان الذي يحرس مدخل الكهف يسيل الدم من جنبه وهو يقول : قتلني . قتلني

وقبض بعضهم على الفتى الدخيل ونزعوا سلاحه . وما لبثوا ان علموا انه كان قد طعن الديدبان بخنجره طعنة في جنبه كادت تكون مميتة .

وروى لهم الديدبان انه رآه ينسل صاعداً يريد الخروج فرابه امره فسأله كلمة السر فلم يستطع ان يجيبه فعلم انه جاسوس . فانقض عليه . وصارعه حتى تدحرجا معاً في السرداب المشرف على ممر ردهة الاجتماع

فصاح بعضهم : « يجب قتله » . وقال الدمشقي : « بل يجب تعذيبه » . وهمّ ان يطعنه بنفس خنجره قائلاً : « انه من دم خبيث » . فمنعه بعضهم قائلين : « يجب ان نفهم امره أولا »

وقال الزعيم : « نعم يجب ان نحقق معه . دعوني استجوبه » فارتدوا قليلاً عنه . واما الدمشقي فقال : « يجب ان نفتشه جيداً مخافة غدره بسلاح خفي »

وجعل يفتش جيوبه ومائحت ثوبه فعثر على السلسلة الذهبية والحلية التي فيها . فانعم النظر فيها وهي في كفه وما تبينها جيداً حتى انتفض وقال همساً : « ويلاه . من هذا ؟ وما هذا ! » ثم قال على مسمع الجمهور : « لا أرى معه سلاحاً آخر غير ما نزعناه منه »

وارتد قليلا وهو لا يكاد يستطيع اخفاء اضطرابه وعند ذلك سأل الزعيم الفتى : كيف دخلت الى هنا يا هذا

فلم يجب فقال له : من انت

فبقي صامتاً . فقال له : ان الصمت لا ينجيك من الهلاك وانما كلمة واحدة قد تنجيك . فقل من انت وكيف جئت الى هنا ؟ ومن أرشدك الى هنا ؟

فلم يجب . فقال احدهم : انه يلبس عباءة الاورشليمي فاخاف ان يكون الاورشليمي خائناً

فقال آخر : لا أقدر ان اصدق ان الاورشليمي يخون لأني انا الذي ادخلته الى الجمعية وانا المسأول عنه واعرفه جيداً . ولذلك اخاف ان يكون هذا الخبيث قد غدر به

فقال الزعيم : ولكن لماذا لم يأت الاورشليمي ولماذا لم تفتقدوه

فقال ذاك . لقد ذهب لكي يأت بالقرآن الشريف لكي نقسم عليه قبل خروجنا كالعادة — عجباً لماذا لم يكن القرآن هنا دائماً ؟

— كان دائماً هنا مع الانجيل ولكن الاورشليمي استعاره ونسي ان يأتي به فعاد لهذا الغرض . اني اعتقد كل الاعتقاد ان هذا الدخيل الخبيث غدر بالاورشليمي . يجب ان نبحث عن الاورشليمي

فصاح بعضهم : يجب ان يقتل . يجب ان يقتل في الحال

فقال الزعيم : اخاف من مكيدة هائلة ياقوم . فدعونا نتحقق

وعاد يسأل الفتى فلم يجبه . فقال الدمشقي : اسمحوا لي ان انفرد به واستجوبه وحدي فلعله يأنس لي . انه خائف . دعوه لي

وقاده الدمشقي بيده وأخذ معه شمعة مضاءة ودخل به الى رواق من مدخل في زاوية البهو . وهناك رأى الفتى اسلحة واوراقاً وملابس ونحو ذلك من أدوات الجمعية

ثم رفع الدمشقي نقاب تنكره عن وجهه وقال للفتى : هل تعرفني

— لا

— الا تعرف اسمي ؟

— لا

— من اين لك هذه الحلية ؟

— تذكار من عزيز

— ممن ؟

— لا تسل اكثر مما سألت فلن أجيب ؟

— سمعاً يابني . انت تعلم ان هؤلاء القوم قاضون عليك بالهلاك لامحالة . ولكن في امكاني ان انقذك اذا كنت تخبرني من انت ؟ ومن اين لك هذه الحلية ؟

فقال الفتى في نفسه : يظهر ان لهذه الحلية تاريخاً عند هذا الرجل الشيخ ، وان للشخص الذي يحرزها قيمة عنده ، فالأفضل ان انتفع من علاقته بهذه الحلية وبمن يملكها . ويجب ان اكتشف سره الخاص بها . فسأله متنهداً الصعداء ومتصنعاً التأثر من تذكاراته بسبب الحلية وقال : — هل تعرف هذه الحلية ؟ هل رأيتها من قبل ؟

— نعم . كانت عندي . فاود ان اعلم كيف وصلت اليك

— بالطبع وصلت اليّ ممن اعطيتها له

فتململ الدمشقي وقال : ماهذا كلام يصح ان يقال جواباً لسؤالي .

— ماذا تريد ان اجاوب يا سيدي ؟

— اود ان اعلم من أعطاك هذه الحلية ؟

فاحتار الفتى ماذا يختلق من الأجوبة التي تغش ذلك الشيخ حتى يستطيع استخراج سره والانتفاع به . فعمد الى المراوغة والمجاوبة المبهمة وقال : — هب ان أمي او أبي اعطاني الحلية فماذا يفيدك العلم بذلك ؟

— من هو ابوك ؟

— لا أعرفه

— عجباً . هل انت يتيم ؟

— لا أدري .

— تعني انك تجهل مصير ابيك

— نعم لا أدري

— ولكنك تعرف اسمه

فتردد الفتى في الجواب حتى اخترعه وقال : صالح الزرحوني . ولكن الحقيقة غير مؤكدة

— عجباً . عجباً . تريد ان تقول ان نسبك غامض ؟

— نعم

— وامك ؟ ما اسمها ؟

— اسمها عدلا . ولكني لا أدري نسبها ايضاً . ولا أدري ان كان اسمها هذا حقيقياً او منتحلاً

— من أي بلد انت ؟

— من حلب ولا أدري أين ربيت اولاً

وكان الشيخ الدمشقي يتحير من اجوبته الى ان قال :

— اذاً .... هل انت .... جاسوس . بالطبع انت جاسوس مأجور مغرور بمكافأة عظمى والا فما كنت تخاطر بنفسك

— اي نعم

— هل لك اعوان ؟

فصمت الفتى . فقال له الدمشقي : — الافضل ان تجاوب على اسئلتي حتى اعرف كيف استطيع انقاذك . ان هؤلاء حاكمون عليك بالموت لا محالة . فقل لي : ماذا فعلت بالراعي

— لا شيء . حجزته في مكان موثقاً

— أين ؟

— لا يهمك

— اود ان انقذك ولكني لا اقدر ان انجح بانقاذك الا اذا اقنعت الجمعية انك انقلبت ضد الدولة وأخلصت للجمعية . فكيف استطيع اقناعها ؟ ساعدني

فابرقت عينا الفتى وقال : — اود ان اعلم لماذا تريد ان تخلصني

فتنهد الدمشقي من اعماق صدره واغرورقت عيناه حتى تأثر الفتى بعض التأثر اذ رأى شيخاً تجاوز الستين يكاد يجهش بالبكاء . ثم قال : — اني اشعر ان تعزيتي في ابان احزاني وغمومي متوقفة على انقاذك

فابرقت اسرة الفتى بشراً وقال : — يا ترى مم انت حزين ومغموم ؟

— ستعلم ذلك بعد حين . ومتى علمته علمت علاقتك بي

فتهلل الفتى فرحاً وقال : — اذاً عندك حل لغامض نسبي ؟

— كذا أظن

— هل يمكنك ان تخبرني من انت ؟

— كلا ليس هنا . هنا لا أحد يعرف الا اثنين ، الشخص الذي كان واسطة دخوله الى الجمعية والشخص الذي أدخله هو الى الجمعية . ونحن مقسمون الا نبيح بشيء عن انفسنا مادام الامر يأول الى فضح شيء من اسرار الجمعية . وليس هنا وقت التحقيق . فقل لي من انتدبك للتجسس على الجمعية ؟

— السلطة العسكرية طبعاً

— وهل تعلم السلطة العسكرية شيئاً عن الجمعية ؟

— مشتبهة بوجود جمعيـة . ولهذا بثت العيون والارصاد للبحث عنها

— وهل علمت اننا هنا نجتمع ؟

— لا . انا اكتشفت الأمر الليلة

— وكيف يمكن اقناع الجمعية بانك تكتم الأمر

— اقسم على القرآن الشريف

— لا تثق الجمعية بقسم جاسوس البتة

— لا أدري اذاً كيف ابرهن للجمعية صدقي واخلاصي

— يجب ان تكون حياتك رهينة للجمعية . فما قولك ان تبقى اسيراً هنا حتى تنتهي مهمة الجمعية وتثق انها سلمت من كل أذى

فاكفهرّ الفتى لأنه شعر ان هذا الامر سينتهي بالهلاك اذ لا يستطيع ضمانة سلامة اعضاء الجمعية ، فاحتار ماذا يقول . وبقي يفكر نحو دقيقة . ثم قال :— ان اختفائي منذ الليلة يجعل جمعيتكم نحن خطر

— كيف ذلك ؟

— يوجد اناس يعلمون اني اختفيت في المنحدر فيتربصون فيه الي الابد حتى يعثروا عليكم

— دعهم يتربصون فلا يعثرون

— تعني انكم تخرجون من أسفل الوادي

— اذاً أنت تعلم . . . .

— نعم اعلم ان بطن الوادي يلد اناساً كما ان اعلى المنحدر يبتلع اناساً

— نخرج الآن كلنا بعد ان نتركك هنا موثقاً حتى مساء الغد اذ يأتي من ينقذك ولو من أعوانك

ففكر الفتى مضطرباً وقال : لا بأس فليكن ما تقول . اقنعهم بذلك

ففكر الشيخ الدمشقي هنيهة ثم قال : ولكن حاذر ان تخدعنا . ان تعرض احد منا للهلاك عادوا وقتلوك لا محالة

فجزع الشاب واصفرّ وجهه وقال : كيف استطيع ان اضمن سلامة كل واحد منكم . ولا سيما ان اعواني متربصون الآن في اعلى المنحدر وفي الوادي الى ان اعود

فانتفض الشيخ الدمشقي وقال : ويلاه . اذاً نحن محصورون

— لايحق لكم ان تعدوا انفسكم محصورين الا اذا علم اعواني بوجودكم هنا . والى الآن لم يعلم احد شيئاً ولا يعلمون الا اذا قلت لهم ليس أحد غيري اكتشف وجودكم هنا

فاضطرب الشيخ أي اضطراب وقال :— يا لله . وماذا تريد ان تقول

فقال الفتى ومقلتاه تضطربان : ليس لكم الا وسيلة واحدة وهي ان اخرج واقنع اعواني اني لم اجد احداً وليس هنا جمعية وما هنا الا كهف مخيف . فأصرفهم عن هذا المكان ولو الليلة فقط ربما تخرجون

— لا أظن ان الجمعية تقبل بهذا الاقتراح لأنها لا تثق بك

— لا أدري اذاً كيف استطيع طمأنة الجمعية . فتدبروا واعلموا ان اهلاكي يأول الى

اهلا بكم لا محالة . ان رفاقي متربصون في اعلى المنحدر وفي بطن الوادي ولا يتزحزحون من مكانهم مالم اعد اليهم . فتدبروا . ان كانت لكم ثقة بي فدعوني اخرج وافنعهم ان ليس هنا احد . والا فلهلك جميعاً

فتحير الدمشقي في ذلك وفكر والرفاق في البهو يلغطون وقد اشتدّ اضطرابهم وهم يقولون : لقد تأخر الدمشقي معه . لا بد ان يكون ثمت دسيسة هائلة أو مكيدة شريرة

عند ذلك استدعى الدمشقي شخصاً وأوعز اليه ان يحفر الفتى ثم خرج اليهم واخبرهم زبدة الحديث الذي جرى وابلغهم اقتراح الفتى . فصاحوا كلهم : كاذب كاذب لا نثق به يجب ان نوثقه ونتركه هنا حتى يخرج آخر واحد منا سالماً . ومتى وثقنا انه لم يعد يستطيع ان يشي بنا ولا عرف احداً منا نوعز الى من يطلق سراحه

وحاول الدمشقي ان يقنعهم بانه حسن النية وانه يقسم بالقرآن الشريف الا يخون بل يخلص لهم جزاء حقهم لدمه . فلم يذعنوا لقوله . بل صاحوا كلهم : « يجب ان يموت . يجب ان يموت . كفى تبريراً لقتله انه تعرض لاجتماعنا المقدس . فليمت . فليهلك سواء سلمنا او وقعنا في الفخ »

واستحال على الدمشقي ان يقنعهم . وجل ما استطاع ان يقنعهم به ان يتركوه موثقاً حتى يخلصوا جميعاً ، وان تعرض واحد منهم للهلاك عادوا وقتلوه

ثم اتفقوا على ان يختاروا واحداً منهم بالقرعة فيخرج ليجوس الطريق ويعود . فان لم يعد علموا انه وقع في الفخ . وثم يقتلون هذا الفتى الدخيل ويستعدون للمعركة

فجزع الدمشقي على الغلام اي جزع واحتار ماذا يفعل حتى ينقذه . فاستسلم للقضاء والقدر مكرهاً

وعاد الى الفتى ثانية بحجة أنه يريد ان يحتال عليه عسى ان يعلم منه مقدار القوة المتربصة خارج الكهف في الوادي وفي أعلى المنحدر

ولكنه اغتنم هذه الفرصة وهمس في اذن الفتى قائلاً :— استحال عليّ ان اقنع الجمعية بشيء سوى ان تبقى هنا رهينة . حتى اذا أصيب احد بسوء عادوا فاهلكوك .

فكاد يغمى على الغلام جزعاً فقال له : لاتخف . هذه مدية تقطع بها وثاقك . دعها في جيبك على مقربة من يديك وتشجع وانشط . واذا نجحت في تقطيع الوثاق فاختبىء في احدى مغاور الكهف المظلمة . لا أدري ماذا اقول لك . كيف تنجو . الله يكون معك . هنا عصابة للطرابلسي فقد تفيدك . ويلاه عسى ان اهلك قبل ان أراك هالكاً . تعال ليوثقوك

فقال الفتى مهلاً : انصح لك يا سيدي ان تخرج من فوق لا من تحت لأن القوة فوق أضعف . اخرج انت أولاً فقد تسلم

— لا يا بني لا أخرج وانت هنا . لا أخرج الا بعدك اما حياً او ميتاً هلم . هلم

والاتكال على الله . اذا الله الذي سمح بمعاصي يرحم شيبتي

وخرج وهو يقود الفتى وقال : اوثقوه اوثقوه فاوثقوه . ثم قال ردوه الى هناك لكي تتكلم بحرية

فردوه الى تلك المغارة المظلمة ثم اقترعوا فيما بينهم على شخصين يخرجان اولاً الواحد يخرج من المنفذ العلوي والآخر يخرج من المنفذ السفلي عند بطن الوادي

ولكنهم تقلدوا كلهم اسلحتهم واندفعوا بعضهم الى فوق وبعضهم الى تحت كأنهم لم يعودوا يطيقون صبراً . وما وجد الدمشقي اخيراً الا نفسه مع ذلك الفتى فاسرع وحل وثاقه وقال له تنكر بنقاب الطرابلسي الغائب وعصابته فليس من يفطن انه لم يأت وهلمّ نندفع مع المندفعين فقد ننجو

فقال الفتى شكراً لك ياسيدي هلم نخرج من فوق وعليّ خلاصك

الفصل السابع

غدد الأرض تشفي امراضها الجلدية

كان حينئذ في بطن الوادي شرذمة من الجنود كامنة بين الشجيرات كمون الثعالب في في الاوجار . وكان في رأس المنحدر بعض من الجنود ايضاً متفرقين حول تلك الصخرة التي كانت كغطاء لمدخل الكهف او سرداب وشجيرات الآس مغطية الكوّة او المنفذ الذي يبتدىء تحت الصخرة ويفضي الى السرداب

اما هذا الكهف الغريب العجيب فقد اصطنعته الطبيعة صنعاً متقناً وكأنها اعدته لهذا الغرض الذي اجتمع لاجله افراد « جمعية اخوان العهد »

والذي يجوس هذا الكهف يجد أنه سلسلة كهوف تتصل بعضها ببعض بواسطة سراديب منحدرة . واذا درسه درساً جيولوجياً رأى أن جانباً من تلك الاكمة انخسف وهبط قليلاً في الوادي . وسبب الخسافة انه حدث هناك زلزال عنيف تنفس فيه جوف الارض من عند الاكمة ففلعها . ثم تعاقبت عوامل الطبيعة الاخرى من سيول ونحوها فاذابت بعض المواقع الجيرية (الكلسية) في ذلك المكان المشقق . فتكونت تلك الكهوف والمغاور والسراديب والدهاليز وكانت كسلسلة من رأس المنحدر الى بطن الوادي حيث كان المنفذ من تحت اوسع . ولكن اذا دخلت فيه وجدت دهليزاً منحدراً شديد الانحدار وترى له نهاية . ولكن في تلك النهاية . ينعطف الدهليز عطفة لا يراها الناظر من تحت ولا بد من الصعود فيها حتى يراها ويعلم ان الدهليز لا يزال يمتد الى قلب الاكمة . ولكن الصعود بلا سلم مستحيل

واما كيف اكتشف الناس ذلك الكهف

المتسلسل فهو ان راعي معزى باغتته الذئاب مرّة فاختبأ في شجيرات الآس عند رأس المنحدر اذ رأى معزاتين تغلغلان في ذلك الوجار تحت الصخرة واختفتا فيه . ولما ذهبت الذئاب بفرائسها قام الراعي وجمع معزه وعرف ما فقد منها . واما تلك العنزتان فلم تعودا من ذلك الوكر فاستغرب امرهما . فغاص في الوكر وراءهما فرأى ان هناك سرداباً طويلاً فعاد منه وجلاً . وفيما هو في اليوم التالي في بطن ذلك الوادي يسوق عنزه سمع ثغاء معزى في جوف تلك المغارة السفلى التي كان يظنها كهفاً صغيراً فدخل الى المغارة . فسمع الثغاء قادماً من اعلى الدهليز المنحدر في آخر المغارة . فاستغرب الأمر وجزع ظاناً ان هناك موطن الأبالسة . ولكنه لم يقدر ان يكذب اذنه . اذما يسمعه ثغاء المعزى فنادي وتكلم . فرأى رأس معزاة يبدو من جانب اعلى الدهليز المنحدر . فادرك ان المعزاة تريد النزول ولكنها تخاف الوقوع

فاسرع وقطع غصناً ضخماً من شجرة وادخله في ذلك الدهليز المنحدر فنزلت عليه المعزاة . ثم نزلت معزاة اخرى . ولم يبق عنده ريب في ان تينك العنزتين اللتين غلغلتا في الوجار الذي في اعلى الأكمة خوفاً من الذئاب نزلت في سلسلة من الكهوف والسراديب تفتهي في ذلك الوكر الذي في بطن الوادي .

وكان احد اخوان العهد من تلك الناحية قد سمع حكاية الراعي فرام ان يختبر الأمر ليكتشف كيف يتصل الوجار الاعلى بالوجار الاسفل لغرض في نفسه . فاستعان باحد اخوانه ودخلا في ذلك الوجار الأعلى ومعهما الحبال المعقدة وصارا كلما نزلا في دهليز تركا وراءهما حبلاً مربوطاً بوتد أو باي شيء نافر حتى يتسنى لهما ان يستعينا به في عودتهما . وما زالا يفعلان كذلك حتى بلغا الى الوجار الاسفل . وهكذا جاسا كل تلك السلسلة من الكهوف ووجدا انها خير مكان يجتمع فيه الاخوان بعيدين عن كل رقيب وجاسوس . وهيآ اكبر مغارة للاجتماع وجهزا السراديب بالحبال المعقدة المتينة للصعود والنزول . واما السرداب الأخير فكان الحبل يدلى فيه ادلاء حتى متى نزل الاعضاء كلهم رفعه الديدبان الى فوق حتى لا يظهر للرائي الغريب وعاد الديدبان صعداً

هكذا كانت زلازل الارض الجيولوجية قد اعدت بكمناً لزلازل سطح الأرض الاجتماعية . وكأن الارض تعلم ان فيها امراضاً جلدية كما فيها امراضاً باطنية فتعالج بثورها من الظاهر بما تنفثه غددها من الباطن

بقي هذا الكهف الغريب سراً مكتوماً لا يتجاوز مظنة الاهالي هناك بان في رأس الاكمة بالوعة بلعت عنزتي الراعي صالح وابرزتهما من وجار بطن الوادي . كان هذا القول حديث خرافة عند الجمهور لانه نذر من صدق كلام الراعي صالح . ولكن احد اخوان العهد ظن في نفسه ان حكاية هذا الراعي قد تكون صحيحة فتحققها كما تقدم البيان

اكتشف هذا الكهف السري ذانك

الاثنان من اخوان العهد منذ حدث الانقلاب العثماني

وكان الاتحاديون حينذاك يثبتون باعمالهم ويتصرفاتهم انهم اشد استبداداً من الحكم الحميدي وانهم يكرهون العرب ولا يريدون ان يكون للعنصر العربي نفوذ في الدولة . وعمدوا الى «تتريك» عناصر الدولة كلها حتى يتخلصوا من نفوذ العرب .

ولما اتضحت هذه النوايا من الترك جيداً قام جماعة من ذوي النفوس الشماء من العرب وانشأوا جمعية سرية باسم «جمعية اخوان العهد» وغرضها وقاية العرب من اضطهاد الاتحاديين ووقاية الدولة من رعونة العرب

وفي اثناء حرب طرابلس حين ظهرت جيداً عداوة الاتحاديين للعرب ولا سيما في محاكمة الضابط عزيز علي المصري تكون الحزب العربي بصراحة وزعماؤه من كبار «جمعية اخوان العهد» الذين من الدرجة الاولى . وكانوا عند تحرج الأمور اذا اضطروا لعقد مؤتمر سرّي عقدوه في ذلك الكهف .

وكانوا قد عقدوا هذا المؤتمر مرة في اول حرب البلقان وقرروا معاونة الدولة بكل قوة العرب وان كان الاتحاديون قد أساؤوا للعرب .

ولما شبت الحرب العظمى اجتمعوا مرّة اخرى وتشاوروا في هل من مصلحة الدولة ان تدخل الحرب . وقرروا ان الحياد افضل لسلامة الدولة ولفائدة الامة . ولكنهم لما سعوا الى تقرير حياد الامة ساء الاتحاديون ظناً في العرب

ولما اعلنت الدولة الحرب اجتمعوا ثالثة وقرروا بذل قوى العرب كلها لأجل انقاذ الدولة لأن اشتباك الدولة في الحرب اصبح امراً واقعاً لا يستطيعون تجنبه ورأوا ان المصلحة الوطنية تقضي بمعاضدة الدولة

ولكن الاتحاديين قابلوا هذه النخوة العربية بتشنيق كرام العرب واعزتهم

ولما تحرجت الحرب وخيف على الدولة من السقوط بين ايدي الاتحاديين الذين استقلوا بادارتها واستبدوا بالعناصر الأخرى اضطر «اخوان العهد» ان يعقدوا مؤتمراً للنظر في الحالة وتقرير امر . فعقدوا هذا المؤتمر الذي نحن بصدده . وقد عرف القارىء تفاصيل جلسته الاخيرة قبيل انفضاح امره

اما هذا المؤتمر فكاد يشتمل على زعماء اعضاء الجمعية الذين لا يعرفون بعضهم بعضاً لانهم متنكرون وترتبطهم الأيامين المعظمة . وكان الواحد منهم لا يعرف الا من ادخله في الجمعية ومن هو أدخله فيها أيضاً .

وفي ذلك الاجتماع كان بعض الاعضاء مجهولين تماماً لان الاعضاء الذين كانوا وسيلة دخولهم في الجمعية والذين دخلوا بواسطتهم للجمعية غير موجودين ، لأن ذلك المؤتمر جمع رؤساء فروع الجمعية في النواحي المختلفة . ولهذا كانوا يعرفون بعضهم بعضاً باسم الدمشقي والحجازي والبغدادي الخ . ولكن من هو الدمشقي ومن هو الحجازي ومن هو البغدادي فقلما كان احد يعرف . اللهم الا من فهم او عرف

بالقرينة فقط . ولا سيما اذ كانوا يأتون الى ذلك المجلس السري في بطن الارض منفردين ويخرجون ويتفرقون كلٌّ الى جهة متواعدين ان يعودوا في يوم كذا

وكان سرهم مضموناً بأمرين الأول ان ذلك المخبأ الذي كانوا يجتمعون فيه كان مجهولاً لا يعرفه احد غيرهم . وكان ذلك المتنكر بثوب الراعي ووظيفة الراعي حارساً لذلك الكهف. والديدبان الذي فيه عند انعقاد الجلسة لا يدع عضواً يخرج من غير ان يتلقى منه كلمة السر فاذا لم يلبيه ذاك بالكلمة (التي كانت تتغير في نهاية كل جلسة لاجل الجلسة القادمة) كان يقبض عليه ويسلمه للجمعية فتقضي عليه

وما دخل الى الجمعية في المؤتمرات الماضية اجنبي الا هذا الفتى الذي أنذر أعضاء الجمعية بالخطر العظيم

ومن ذلك يفهم القارىء جيداً ان امر هذه الجمعية قد اصبح موضع الشبهة عند السلطة العسكرية التركية . وقد شعر جمال باشا واعوانه من الاتحاديين ان هناك جمعية سرية خفية يمكن ان يخشى من دسائسها ، فبثوا العيون والارصاد عليها . وكان لهذا الفتى الذي دخل متنكراً الى الكهف اليد الاولى في اكتشاف اسرارها .

لانه راقب بعض الأشخاص الذي اشتبه بهم وكان يتتبعهم فكان يراهم يختفون في رأس تلك الاكمة . فجعل يراقب تلك الاكمة متنكراً كل مرة بزي مختلف عن زيه السابق ثم اكتشف ان بعضهم يظهرون بغتة من بطن الوادي . وجاس المكان الذي كانوا يظهرون منه بغتةً فاذا هناك مغارة صغيرة او وجار في نهايته دهليز مرتفع يصعب جداً ويستحيل الصعود او النزول فيه فحار في امره واحكم المراقبة حتى رجح جداً ان هناك مجتمع أشخاص مشتبه بهم بعضهم يدخلون ولا يخرجون وبعضهم يدخلون ثم يخرجون من تحت

ولما قويت شبهته استدعى في تلك الليلة جنوداً للقبض على اولئك الاشخاص اذ كانوا في حالة تثبت الشبهة عليهم .

وثم كان ما كان مما عرفه القارىء

الفصل الثامن

الموت ستار الخزي

نعود الآن الى اعضاء اخوان العهد فانهم لما رأوا ذلك الفتى الغريب مدججاً بالسلاح ادركوا ان امرهم انفضح واصبحوا تحت خطر الوقوع في يد السلطة العسكرية ومصيرهم الى الديوان العرفي اي المحكمة العسكرية وهناك لا رحمة ولا شفقة . فاضطربوا . ولكن ماذا ينفع الاضطراب .

وكأن روح الاستقتال سرت فيهم

فتسلحوا باسلحتهم التي اختزنوها في الكهف واستعدوا للكفاح

اقترعوا على اثنين كشافين يجوسان الطريق من فوق ومن تحت . فذهب الاثنان كل في جهة . وما تمالك البقية ان تبعوهما بعضهم من فوق وبعضهم من تحت كما علم القارىء . ولكنهم ما لبثوا ان ادركوا ان كل من يخرج لا يعود فسرى بينهم غضب شديد على ذلك الفتى وارتد بعضهم يريدون ان يمزقوه ارباً ارباً . فالتقوا بالدمشقي والطرابلسي (المزيف) الى جنبه فقالوا لهما : يجب ان يموت الفتى

فقال الدمشقي : « اليه . اليه نمزقه ارباً ارباً »

واندفعوا والدمشقي والطرابلسي يتظاهران انهما يشتركان معهم في قصد الانتقام من الفتى . ولكنهما ما لبثا ان اتجها الى فوق فاذا الطريق خال لهما . ومازالا يصعدان حتى خرجا من الوكر والطرابلسي المزور اي الفتى كان مع من خرج بعد ذلك الكشاف الذي ما خرج حتى وقع بين يدي شخصين فصفدا يديه بالحديد وسلماه لآخرين

فلما ظهر الفتى من الوجار الأعلى قال : لقد فتحت لكم وكر الزنابير فاقبضوا على هذا اولاً . ولكن اود ان تعاملوه بكل حسن وجميل لأن له الفضل ببقائي حياً . وأما البقية فعليكم بهم احياء اذا استطعتم والا فاموتاً . هنا عش الزنابير اللساعة . هنا وكر زبانية الجحيم . هنا تتجسم الروح التي ستنفث سمومها على الامة . هنا تصنع القنبلة التي ستنسف الوطنية التركية . اللهم سامحني لأني ادفع هؤلاء الابالسة الى النار — نار غضب القانون العسكري لأنهم كانوا يدكون اركان الدولة وينقبون عن اساسها .

* * *

لا نطيل على القارىء الحديث فان اولئك الزعماء الذين مثلوا الالوف ومئات الالوف وبعضهم الملايين من العرب قد وقعوا في كمين الترك . واولئك الذين كانوا يجاهدون في سبيل سلامة الدولة ولما رأوا الاتحاديين يهورونها الى الهلاك صاروا يجاهدون بانقاذ العرب — قد اصبحوا تحت تهمة الخيانة العظمى .

من يقرر العدل اذا كان كل خصم في نظر خصمه خائناً ؟

ذلك ما كان يجول في ضمائر اولئك الزعماء في منتصف الليل وهم مندفعون للقتال او للنزال حسبما يؤثر كل منهم . فالذين صعدوا من فوق وخرجوا من الوجار الاعلى هم الذين استسلموا وسلموا للقضاء والقدر

وأما الذين نزلوا الى تحت فوقفوا يتشاورون فيماذا يفعلون . فاذا بعض الجنود في الوجار الاسفل ينتظرونهم فما كان من بعضهم الا ان اطلق عليهم الرصاص من أعلى الدهليز المنحدر فخرج الجنود من الوجار . وبالطبع كمنوا خارجه ينتظرون في مأمن من الخطر

عند ذلك جعلوا ينزلون على الحبال فما نزل بعضهم حتى امتلأ الوجار الاسفل وحاولوا

الخروج فاشتبكوا مع الجنود بشبه معركة حتى وقع منهم اثنان قتيل وجريح

واخيراً لم يروا بداً من التسليم فسلموا واحداً واحداً متكلين على الله اولاً واحكام المستقبل اخيراً

في نحو ساعة كانوا كلهم مصفدين مقيدين بالحديد مسوقين بين الجنود الشاكي السلاح الى اقرب معسكر .

في اثناء الطريق كان ذلك الفتى ماشياً الى جنب الدمشقي فقال هذا له : هل تعتقد اني انقذتك من ايدي اخواني

— فهمس له الفتى : لن انسى ذلك يا سيدي . لا تخف . اني سابذل جهدي في انقاذك . ولا ريب ان الديوان العرفي سيعفو عنك لانك سهلت سلامتي التي عرضتها انا للخطر العظيم

— مهلاً يابني لا تعجل في وعدي . اني اطلب منك خدمة صغيرة جداً وبعدها لا اطلب عفواً ولا رأفة

— ماذا ؟

— اريد ان تحل الصفاد عن يدي . وتدع القيد في رجلي

— ليس هذا في وسعي . قد يستخونني

— يالله . ابعد كل هذه الخدمة الجلى يستخونونك .

— نعم . فهل تريد غير ذلك ؟

— اريد ان تكون يداي حرتين واعاهدك بالله وبقرآنه الكريم اني لن اوذي احداً ولن اهرب . دع الجنود من حولي يحفرونني بحرابهم وبنادقهم

— لماذا هذا اذاً ؟

— اريد ان اقتل نفسي

— يالله . لماذا ؟

لاني خنت عهد رفاقي بانقاذ حياتك . ولم يكن لي من مطمع في تلك الساعة الرهيبة الا انقاذك فقط . اما الآن وقد امنت كل شر واذى لك فصار يلذ لي ان انقضي من هذه الحياة الدنيا وابرح الى الاخرى حيث الراحة الدائمة . لقد انتهى عملي يابني بانقاذك . فاصنع لي هذا الجميل الواحد فقط . اما ان تقتلني الآن او ان تدعني اقتل نفسي . بربك يابني لا تحرمني هذه الامنية جزاء انقاذي حياتك

فتأثر الفتى عظيم التأثر من كلام هذا الشيخ الدمشقي . وقال بالله الا تقول لي من حضرتك ؟

— لقد اصبح مستحيلاً علي ان اخبرك من انا وانا حي . تعرفني بعد موتي . لا أريد ان يعرف احد من هو هذا الخائن .

— صبراً يا سيدي فقد تتطور الامور

— رحماك يابني . اريد الشفقة منك بقتلي لا بانقاذي

— الديوان العرفي كفيل بذلك

— رحماك ان حكم الدايون العرفي بالموت على جميع هؤلاء الذين تسوقونهم الآن لهو شرف وفخر لهم الا عليَّ فانه خزي ولعنة لاني خنتهم . آه خنتهم لكي أنقذك . فبربك

لا تدعني انال اللعن والخزي من قومي حين اكون معلقاً في المشنقة . اقتلني الآن واستر خزيي

فتأثر الفتى عظيم التأثر وقال : اني ألبي طلبك يا سيدي الشيخ . احل الصفاد عن يديك على شرط ان تقتلني قبل ان تقتل نفسك

— عجباً . لماذا ؟

— لأن بقائي حياً هو سبب عارك . واتقاذك حياتي سبب لك الخزي واللعنة . فاقتلني حتى تسلم من العار

فغمغم الشيخ الدمشقي وقال : — لا ريب انك من تلك السلالة الجيدة . انه ليلذ لي يا فتى أن اموت بيدك . فاذا قتلتني الآن بحجة اني حاولت الافلات تخلصت انت من المسأولية . فبربك اقتلني

وكان الفتى متحيراً شديد الحيرة من تصرف هذا الشيخ فقال له : بالله تقول لي لماذا انقذتني حتى عرضت نفسك للهوان بسببي

— دع هذا الى حينه يابني . ان الأمور مرهونة بأوقاتها . لسوف تعرف اذا قيض الله لك ان تعرف

وبقي الفتى يزداد استغراباً وتوقاً الى معرفة ماوراء كلام هذا الشيخ من الاستغراب

في تلك الدقيقة التقى هذا الرهط من المعتقلين والجنود بشرذمة من الجنود الجوّابة في تلك الجهات . ولما علم ضابطها بالغنيمة الثمينة التي التقى بها تولى قيادتها وعاد الى المعسكر فخوراً — فخوراً بعمل غيره . وهكذا يجني عمال النحل العسل واطفال النحل يتمتعون به

عند ذلك أمر قائد الفرقة ذلك الفتى ان يتنحى لكي يرتاح بعد ذلك الفوز في جهاده — كأنّ الراحة كل جزائه لاجل فوزه — وتولى هو قيادة الموكب

الفصل التاسع

اشرح هواك فكلنا عشاق

نعود الآن الى الراعي الذي ترك ذلك الفتى عثمان بك موثقاً وترك معه ذلك الجندي حليماً حارساً له ريثما يعود الفتى اليه او يرسل رسولاً بأمر له

علم ذلك الرجل الذي تزيا بزي الراعي أن كل الطرق اقفلت في وجهه الا طريق المشنقة لان جمال باشا جعل المشنقة في واد تنحدر اليه معظم الطرق . فما قبض على عربي مشتبه فيه الا سيق الى الديوان العرفي . وهذا الديوان ليس له من انواع العقوبات الا المشنقة او البراءة ونذر ان عاقب على التهم العربية بالحبس

وكان ذلك الجندي الذي أقامه الفتى حارساً

عليه قد بلغ الى دور الكهولة . وظهر في سيمائه انه سمح الخلق وانما تبدو في أسارير وجهه امائر الغموم كأن حياته كانت سلسلة احزان . ولا تكثر الرقة ويظهر العطف الا في الذين جار عليهم الدهر

بعد هنيهة جعل الجندي يدخن ثم ما لبث أن قال للراعي الموثق : هل تريد ان تدخن ؟

فابتسم الراعي تحت ثقل كآبته وقال : هنيئاً لك يا سيدي . دخن وسرّ وتلذذ

— لا تظنني مازحاً . اذا شئت فاقدم لك سيكارة تدخن منها وهي بين اصابعي

— شكراً جزيلاً لكرم اخلاقك وحسن عواطفك . وهل يزيل التدخين غماً كغمي ؟

— هون عليك الامر ياأخي لعل الله مقدر لك البراءة

— فضحك الراعي ضحكة الساخر وقال : سيان عندي براءة او حكم بموت

— عجباً . اذاً لماذا انت شديد الأسى

— لان صاحبك أخذ مني شيئاً أعز من روحي

— ماذا تعني ؟ . . . السلسلة ؟ . . .

— نعم

— يا لله . هل من يزدري الردى يبعباً بسلسلة او حلية . ماذا أثمن من النفس ؟

— أثمن منها هدية حبيب ؟

فدهش الرجل الجندي الخفير وقال :— اظنها حبيبة . فما أسعد هذه الحبيبة بعاشق مثلك

— وما أتعسها اذا كانت الاقدار تفرق بينها وبين عاشقها تفريقاً أبدياً . وما اتعسه هو اذا كانت الاقدار لا تكتفي بهذا التفريق بل تفرق بينه وبين هدية تذكارية منها . كنت أريد ان اتعزى بأن تكون تلك الحلية على صدري حين يطوق حبل المشنقة عنقي . فما كاد أظلم فتاك باخذه تلك الحلية . وما كان أرأفه لو تركها . كان في امكاني ان امنحه شيئاً أثمن منها .

فتنهد ذلك الجندي من اعماق صدره ثم قال : اني مدرك عظم مافي نفسك يا اخي ولكن حباً كحبك فيه لذة وتعزية . فاغبطك به ولا سيما اذا كان عند حبيبتك مثل ماعندك من الحب

— لا يكون عندي هذا الحب اذا لم اثق ان عندها مثله

ورأى الراعي ذاك الجندي يمسح عينيه بمنديله كأن الدمع تزفرق منهما وهو يقول : ان عاشقاً مثلك لا ينبغي ان يشتغل بالسياسة

— اني يا سيدي لأخلص حباً لوطني العثماني من جمال وانور وطلعت

— ولكن هذه المؤامرات التي تتآمرونها لاجل حركة عربية تعد خيانة للدولة

فوجم الراعي وبقي صامتاً . ثم عاد يقول : ان الله فاحص القلوب يعلم ان كل عربي مهما فعل ومهما سعى كان يرمي بسعيه وعمله الى انقاذ الدولة من الخطر والى الحرص على سلامتها

— ولكن التآمر سراً يدعو الى الريبة يا أخي

فبقي الراعي صامتاً برهة الى ان قال الجندي : أسأل الله ان ينقذك من الردى ياأخي رأفة بحبيبتك . ترى هل هي زوجتك ؟

— نعم زوجتي المنتظرة وخطيبتي الحاضرة. وليس لها من ملاذ سواي

— مسكينة ! لطف الله بها

— وكان صوت الجندي يتهدّج فقال الراعي : يلوح لي انك ملوع لوعة حب

فاجهش الجندي . فقال الراعي : يا أخي « اشرح هواك فكلنا عشاق »

« لا تخف ما فعلت بك الاشواق »

فتنهد الجندي تنهداً عميقاً وقال لا أستطيع ان أبعث حباً دفيناً من قبره من غير ان تتفتق جروح هذه الفؤاد . فدع ياأخي حديث القديم . على اني اعاهدك ان اقوم باي خدمة تكلفني بها لاجل حبيبتك . واقسم لك بالقرآن الشريف والنبي العظيم (صلعم) اني انفذ وصيتك اذا كانت في وسعي

— شكراً لك ايها الجندي الشريف القلب. لا أطلب منك الا خدمة واحدة فقط وهي ان تبذل جهدك في استرداد تلك الحلية من ذلك الفتى الضابط وتعلقها في عنقي قبل شنقي . وبعد الشنق تردها الى خطيبتي وتبلغها ما علمت من اخلاصي في حبها

— اني ابذل جهدي في ذلك يا أخي . ولكني لا أدري ان كنت انجح في اقناع ذلك الفتى ولا سيما لأني لم ار مثله ضابطاً مغروراً تزقاً شكساً . فلا اظنني استطيع استردادها منه الا بان اسرقها . ولا سيما لأني حديث العهد في معرفته ولا اراني ناجحاً في استرضائه واستعطافه ومصادقته لشدة كبريائه . ونفسي تأنف التزلف حتى للملوك فكيف اتزلف لغلام مغرور كهذا

— اني ارى فيك شمماً يسد الطرق في سبيل نجاحك ياأخي . ولطالما كان الشمم سبب شقاء اعزة النفوس

— اقسم بالله العلي العظيم لولا اني انفت الخضوع لأبي لما كنت تراني الآن في اصغر رتب الجندية ولا كنت ارضى باقل من ميرالاي او لواء اذا لم اكن قائداً

— ولكن الخضوع للأب ليس معرّة يا أخي

فتململ الجندي وقال : نعم ان الخضوع للأب شرف يا اخي الا اذا كان يستلزم عصيان القلب . ان القلب مقدم على الاب

فبهت الراعي وقال : اذاً ... قضيتك ...

— نعم ان قضيتي قضية حب تشبه قضيتك. وقد شنق ابي قلبي شنقاً أسوأ من شنق جمال . . .

— واجهش الجندي بالبكاء وقال : دعني يا أخي من حديث قديم يثير أشجاني . ولم تعد تنفع فيه التعزية ولا فيه ما يجي الآمال

— ان مصيبتك يا صاح لا تقل وقراً عن مصيبتي وان كانت تختلف عنها شكلاً

— بل ان مصيبتي اعظم وقراً يا أخي .

اني احببت فتاة حتى الموت فحال ابي بيننا كحيلولة الليل بين نهارين

— عجباً . وماذا جرى لكما ؟

— الفتاة عادت الى اهلها . واهلها اشد انفة من أبي فحجبوها ولم اعد ادري ماذا حل بها . وقيل لي بعدئذ انها ماتت غماً وحسرة ثم قيل لي ان اهلها اغتالوها . واما انا فلشدة استيائي من ابي هجرته وما زلت هاجره

— يا ويحه . او ما استرضاك ؟

— ولا سأل عني لانه غضب عليّ غضباً شديداً

— الله . الله . أيقتل فؤادك ثم يغضب عليك ؟ ولماذا ؟

— لانه مغرم بالسياسة أيّ غرام . وكان يريد ان يستخدم قلبي لسياسته . فأمرني ان احب ابنة سياسي كبير وانزوجها لكي يتسنى له التقرب الى ذلك الكبير والتذرع بصداقته الى منصب يأمر فيه وينهى

فاستغرب الراعي الموثق الأمر وقال : عجباً لهذه السياسة التي لم افهمها . كيف يتذرع ابوك بحميك

— لااخفي عليك ان ابي غني كبير . فيظن انه اذا صاهر ذلك السياسي اصبحت له عليه دالة وبالمال ينال أي وظيفة يتمناها

— اوف . . . لا أدري ماذا اقول لك يا أخي .

— قل تباً لهذا الزمان الذي اصبح الزواج فيه تجارة

ومع ذلك تلومني لشغلي في السياسة . الا ترى ان الدولة في اسقام وعلل تحتاج الى مثلي ومثلك ان يمرضها ويعالجها . نحن لا نتآمر على الدولة لكي نهدمها بل نتآمر على هادميها لكي نردهم عن هدمها

— ولكن الذي فهمناه انكم تريدون الخروج على الدولة لكي تنشئوا دولة عربية

— اما انت عربي يا اخي ؟ ان كلامك يدل على عربيتك

— بلى اصلي عربي . ولكني منذ بضعة عشر عاماً هجرت البلاد وعشت بين الترك فأصبحت تركياً . ان الترك قوم لطفاء كرام مهذبون

— لا أنكر هذا ياسيدي ولكنهم اساؤوا السياسة ونفروا عنصر المملكة منهم حتى اغضبوها عليهم وقد تهوروا في اندفاعهم مع الالمان حتى كادوا يضيعون المملكة . فاذا انفصلنا عنهم وأنشأنا دولة عربية حفظنا جانباً من المملكة . وصناه من السقوط وكنا لهم ملجأ وملاذاً اذا وقعوا تحت ضغط الاجنبي . وكذلك اذا نجحوا وكنا خاسرين استغنينا بهم . فنحن لا نريد ان ننفصل عن الترك ونعاديهم بل نريد ان نستقل عنهم ونحالفهم . اما هم فلا يريدون ان يميزوا الحق من الباطل

— لو كان الآن بعضهم يسمع كلامك هذا . . .

— انا عالم ان كلاماً كهذا وحده كاف لأن يؤدي بي الى المشنقة عند هؤلاء القوم

المغرورين . ولكن عاقلاً مثلك يفهم اننا نحن نقصد ان تبقى لنا دولة اسلامية قوية عزيزة الجانب . فاذا انكسر الترك فماذا يكون مصير الخلافة

فهز الجندي رأسه وقال : صدقت يحتمل ان ننكسر كما يحتمل ان ننتصر . فماذا يكون شأننا ان انكسرنا

— نسحق تحت اقدام الغرب اذ ليس لنا من دولة قوية منيعة تشد ازرنا . فانشاء دولة عربية يكون سنداً آخر للخلافة . يكاد الاسلام يتداعى بين ايدي الترك . فلتعد دولة العرب الى كيانها لحماية الاسلام . اما انت مسلم يا اخي ؟

— ربما كنت من سلالة هي ركن من أركان الاسلام ،

— هل تشرفني باسم الجناب

فتململ الجندي وقال : اسمي حليم العدني

— من بيت العدني . من أي بلد ؟

— دعني من حديث قديم يا أخي . ان في ذكرى القديم مرارة لنفسي . ما ورثت من عيلتي الا انقة قاتلة

— هل فارقت أهلك من عهد طويل ؟

— منذ نحو ١٩ سنة ولم أعد أعلم عنهم شيئاً الا بالصدفة . وأما هم فلا يعرفون عني شيئاً ولا اريد ان يعرفوا

— عجباً أما بحث ابوك عنك

— ربما كان قد بحث بعدئذ فلا ادري . على اني لا اريد ان يعلم عني شيئاً . لقد كرهته وكرهت عيلتي لاجله . لم اعد اريد ان تكون لي صلة بهم لاجل ما تمرمرت بسببهم . تباً لهم

وكاد الجندي يندفع في السباب والشتم ولكن لوعة في فؤاده ردته عن هذا الاندفاع . فقال الراعي : يلوح لي ان اهلك ساؤوك جداً لانك شديد النقمة عليهم . وأين قضيت هذه المدة ؟

— بعضها في الاستانة وبعضها في أنقره اذ تزوجت اخيراً مرأة اناضولية وعشت معها عيشة البساطة وتوفقت بعض التوفيق

— وهل لك بنون ؟

— بنت فقط .

— هل لك اخوة ؟

— أخ واحد وقد قتله الاتحاديون بدعوى انه خائن الوطن . ولا ندري كيف يكون المخلصون . ولي اخت واحدة فقط تزوجت واضطر زوجها ان يهجرها بسبب فعائل ابي .... أوه بربك دعني من احاديث قديمة مؤلمة

الفصل العاشر

والد من الحديث لسحراً

فسكتنا برهة الى ان قال الراعي الموثق : ليتني كنت في غير هذه الحال لعلي كنت استطيع خدمتك

فتململ الجندي ثم قال : اظنك تعذرني اذا كنت لا استطيع ان اخالف الأوامر العسكرية .

— بماذا تخالفها ؟

— اعني اني لا اقدر ان احل وثاقك

— لا اطمع بهذا يا أخي ولا ارجو منك الا رجاءً واحداً وهو ان تبذل جهدك باسترداد تلك الحلية والسلسلة من صاحبك الضابط . ما اسمه يا ترى ؟

— لا ادري . يسمونه عثمان بك ولا اعلم نسبه . . . سأبذل جهدي في استرداد السلسلة منه ولو سرقة

— اظنك تتذكرها . امرأيتها

— لم انتبه لها جيداً

— هي سلسلة معلق فيها حلية بشكل فراشة مصنوعة من الذهب ومرصعة بالعقيق والياقوت

— اذاً ثمينة

— قد لا تكون ثمينة بحد ذاتها ولكنها ثمينة عندي جداً كما تعلم

— ان هذا الوصف الذي تصفها به غريب

— نعم . ان صياغة الحلية غريبة قد تمثل اشكال حلى مصرية قديمة

— عجباً . من اين لحبيبتك حلية كهذه ؟ وتقول انها مسكينة بلا ملاذ

— نعم وفقيرة . ولكن هذه الحلية عندها ارث من امها ولعلها ارث قديم من جدتها والله أعلم . وما اودعتها معي الا كعربون حب طاهر ولهذا اود ان تعود اليها

— اني اراني يا اخي مديوناً لك برد هذه الحلية اذ ادركت عظم قيمتها . وانما يمكنك ان تخبرني عنوان حبيبتك حتى اردها لها . وان كان لي الرجاء الكبير ان يتسنى لك ان تردها لها بنفسك

— شكراً للطفك يا اخي . على كل حال ارجو منك ان تتصل بها وتخبرها بما حلّ بي من مصاب . وقل لها الا تحزن عليّ لاني والحمد لله لم اذهب من هذه الدنيا الا في سبيل خدمة الوطن التي هي تقدسها . فاذا تسنى لك ان تذهب الى حماه فاذهب الى حي الديباجة وسل عن أم محمد العامري تجد نعيمة الزينبية عندها

— الى الآن لم تقل لي يا أخي ما اسمك ومن انت

— اسمي هنا حسن حمدون الراعي . ولكن اسمي الحقيقي خليل الرحماني . وقد

تزيت هنا بزي الراعي وارعى ماشية صديق من اخواننا . . .

— وكيف جئت الى هنا من حماه

— اني في الأصل من القدس

— استغرب كيف علقت فتاة في حماه فقيرة وأنت . . .

— هذه ياأخي قلوب تتعارف في عالم الحب . ولا تحول المسافات والابعاد بينها . ان الأثير الذي تنتقل به الموجات الكهربائية ينقل ايضاً النبضات القلبية — النبضات الروحية بين الحبيبين

— عفواً وعذراً . لست اريد أن اخوض في موضع احوالك الشخصية . اني اهنئك بحب حيّ لم تعترض في سبيله الا حوادث الحدثان الدنيوية . ولي الأمل ان تزول هذه الحوادث من طريق الحب . لا افهم يا اخي كيف فتى عاشق مثلك يعرض نفسه للخطر ولا يحسب حساب لوعة حبيبته

— الا تعلم يا اخي ان الوطن الذي ليس فيه من يعرض نفسه للاخطار لاجله لا تقوم له قائمة بل يذهب الى هاوية الهوان باهله

فتململ الجندي وقال : ولكن ما فائدتك انت من هذا التعرض للخطر ولاسيما اذا قضي عليك وهلكت

حسبي ان اكون ضحية لاجل الوطن

— وماذا تستفيد من هذه التضحية

— يستفيد بنو قومي

— وهل انت مسأول عن بني قومك ؟

— كل واحد مسأول عن قومه كله

— ولكن ليس أحد يضحي بنفسه وبحياته لاجل قومه وهو لا يستفيد شخصياً من هذه التضحية

— بل يوجد اشخاص ولو قليلون يضحون بحياتهم لاجل اوطانهم

— لا تؤاخذني اذا قلت لك انهم مجانين . ما الفائدة لك بعد ان تهلك في سبيل وطنك . ان خدمة الفرد الوطني ضرورية لانها تعود عليه بنفع . ولكنه متى مات في سبيل الوطن ضاعت عليه الفائدة . ولذلك اعتقد ان الذين يعرضون انفسهم لخطر الهلاك لاجل الوطن مجانين

— اي نعم . خلقهم الله مجانين لكي يقدموا حياتهم ضحايا لاجل اوطانهم . والامة التي لا يخلق الله فيها مجانين كهؤلاء يكون غاضباً عليها ويريد ان يمحقها . والامة التي يحبها الله يخلق فيها كثيراً من هؤلاء المجانين .

فاستغرب الجندي هذا الكلام وتلون وتبرم وهو يقول : ولكني لا اقدر ان افهم كيف يجد الواحد منكم هذه الجسارة على المخاطرة من غير طمع بفائدة شخصية

— ليست المسألة مسألة جسارة بل هي لذة . ان هؤلاء الذين تسميهم مجانين قد اختصهم الله بأدمغة وقلوب واعصاب تستلذ هذه المخاطرة والتضحية كما تستلذ الام ان تقاسي شقاء وعناء لاجل طفلها الذي تربيه وهي لا ترجو منه خيراً لها

— اذاً الامة الحية فيها قوم مسخرون لكي يخدموا مصلحة قوم آخرين

— حسناً جداً لقد احسنت التعبير . ان الله قد سخر افراداً لخدمة الجمهور كما سخر قدميك لحملك . مع كل ذلك انبهك الى حقيقية فلسفية وهي انك انت وانا وكل واحد ـ نحن اجزاء من كل . ولكل جزء وظيفة لخدمة هذا الكل. فقد تكون وظيفتي في خدمة الكل ان اموت لاجل الكل . وهناك امر آخر وهو اني لا استفيد شخصياً من تضحية نفسي لاجل الجماعة ولكن ابني وحفيدي يستفيدان . فالامة انما هي سلسلة اجيال متعاقبة يلد بعضها بعضاً ويمهد الحياة فيها الوالدون للاولاد . فاذا لم يتبرر كل فرد لاجل العمل لوطنه وامته فحياة الامة موت او ايلولة الى الموت

فتبرم الجندي ثم تنهد وقال : يا اخي انك تلعب بعقلي وبقلبي معاً . ولكن خطر لي مراراً ان اسألك هذا السؤال ثم يبعدني الموضوع عنه وهو . انت تتكلم معي بحرية . افلا تخاف ان كلامك هذا قد يضرك في دفاعك عن نفسك لو طلب الي ان اشهد بما سمعت منك

فضحك الراعي وقال : ان من يحسب حساباً كهذا لا يكون مجنوناً مخلوقاً لكي يضحي بحياته لاجل نفسه . ان ايثاقي سيؤدي حتماً الى تقديمي الى الديوان العرفي . والديوان العرفي سيحكم علي بالموت حتماً سواء شهدت انت او لم تشهد . فلماذا اكون جباناً واكذب عليك وقد أصبحنا الآن صديقان ولي بك ثقة الصديق بالصديق الوفي

— وكيف حصلت على هذه الثقة بي ؟

— لاني تأكدت انك احببت في حياتك واخلصت . والحب الخالص هو خير برهان على شرف النفس وكرم الخلق . لا أقول هذا القول يا اخي لكي أردك عن الشهادة ضدي . اذا طلبت للشهادة فاذا لم تقل الصدق ولو كان ضدي احتقرك

فجزع الجندي حليم العدني لكلام الراعي وانتفض متأثراً وقال : ـ ويحك يا هذا لقد ايقظت في نفسي القديمة . انك تدفعني لارتكاب جريمة

— أي جريمة

— انا خون عهد الجندية واطلق سراحك. لا اطيق ان اقود هذه المبادىء المقدسة الى ديوان عرفي . يجب ان احل وثاقك

وانقض عليه ليحل الوثاق . فصاح به الراعي : ويحك . لا تفعل والا كنت خائناً .

— يستحيل ان اقدم هذه النفس الطاهرة ضحية الى محكمة الظلم والاستبداد

وفي لحظة كان الراعي محلول الوثاق والجندي يقول له :ـ هلم نهرب معاً . هلم نهرب . اني عربي يجب ان اعمل لاجل القضية العربية

فقال الراعي : انك خائن والوطن لا يقبل خونة .

فصاح به الجندي : ويحك

— نعم . تخون عهد الجندية التي ... يجب ان توثقني كما كنت

— بل يجب ان تهرب وتتركني اعاقب لاجل خيانتي

— هذا يستحيل . اذ لا فائدة للوطن من معاقبتك

— يكفي اني فديتك لكي تخدم الوطن عني وعنك

— قد لا استطيع ان اخدم شيئاً لانهم سيبثون علي العيون والارصاد ويقبضون علي ثانية ويقتلونني .

— رح واذهب الى حيث لا تصل اليك يد الظلم

— اذاً نذهب معاً

— لا بل يجب ان اعاقب لاجل خيانتي . لقد شبعت من حياة الشقاء والعناء والبؤس

— اذاً نعاقب معاً

وفي ابان تعارك الاثنين وهذا يدفع ذاك الى الهرب وهذاك يصر على البقاء باغتهما رجل في ثوب عربي بدوي وقد استطالت لحيته . وظهر بينهما ظهور الجان للمصاب بداء السرسام وقال : — كلا كما غبيان لا تعرفان كيف تصرفان الامور

فقال الراعي : ويلك من اين اتيت يا يوسف وما الذي جاء بك الى هنا ؟

فقال المتزيي بزي البدوي : صه . ما هذا وقت البحث . ان الوقت قد ازف والخطر مداهم . هذا يريد ان يخدم وطنه باطلاق سراحك وانت لا تريد ان يخون جنديته

— نعم

— المسألة بسيطة . نوثقه ونتركه هنا ونمضي حتى متى عادوا اليه ادعى ان انساناً كالغول باغته وانقض عليه واوثقه وحل وثاق المعتقل ومضى به . وان استعظم ذلك على شجاعته ادعى ان جماعة من الغيلان سطت عليه واوثقته وخلص من يده اسيره الراعي . وبذلك يسلم من العقاب

فصاح الجندي : انها فكرة حسنة . بالله توثقاني

فاوثقه ذاك البدوي يوسف . ثم تركه الاثنان وانصرفا

القسم الثاني

استبر العرب في حضرة مردخاي الترك

الفصل الحادي عشر

الشاعر ملك العرب

نتنقل بالقارىء الآن الى مجلس القائد الكبير قائد جيش الجنوب جال باشا احد الثالوث المسيطر في المملكة العثمانية رفيق طلعت وانور الضلعين الآخرين من ذلك الثالوث

في ذلك الربيع اذ كانت ملائكة الجحيم أو آلهة الحرب حائمة في الشرق في جو جبال القوقاس وجبال ارارط وفي الغرب في الدردنيل كان القائد العظيم جال مطمئن البال من جهة الجنوب لان قوات الحلفاء اعدائه كانت متجمعة في الميادين الاوروبية وفي مكدونيا

لذلك كان جال لاهياً بملذاته واطايبه وافراحه وانما كانت عين الشر منه مستيقظة تخترق حجب الخفاء وترسل اشعة الاستكشاف من المكايد والدسائس . فكان اعوانه من الجواسيس منبثين هنا وهناك وهو كل يوم بعد يوم يتلقى اخباراً وتقارير عن الحركات العربية فيغربلها حتى يعلم صحيحها من فاسدها فتسقط كلها تحت الغربال ويبقى بعدها في حيرة وبلبال

ففي ذات ليلة كان جال يشرب ويطرب ويلعب مع بعض اصدقائه او من يعتقدون انهم اصدقاؤه — لان جال لم يكن له صاحب او صديق يستأمن له او يأمن شره . فقد كان الشهيد يوسف الهاني يبالغ في اكرامه وجال يبالغ في التودد اليه حين كان يعد له المشنقة

في تلك الليلة فيما كان جال منغمساً في ملء شهواته في منتصف الليل سمع تحت شباك مقصورته عزفاً على الربابا والعازف يغني . فانصت واسترعى اسماع صحبه قائلا : ما هذا ؟

فاصغوا كلهم وقالوا : — غريب عجيب! من هذا الذي يجسر ان يقلق راحة النيام في هذا الليل ؟

فقال جال ضاحكا : من النيام ؟ . ومن ينام هنا في مثل هذا الوقت . كم الساعة الآن

فقال آخر : الساعة الحادية عشرة والنصف يا فخامة القائد .

— من هذا الذي ينشد على قيثارته ؟

فقال احدهم : هذه ربابة يا سيدي . لعل شخصاً مجنوناً جاءته النوبة الآن

— ماذا ينشد ؟ سمعاً !

فاصغوا كلهم وذو الربابة يعزف وينشد ملء حنجرته والنشيد مسموع واضحاً في هدوء ذلك الليل الى ان قال جال : — يا لله ماذا يقول ؟

فجعلوا يراسلون بعضهم بعضاً اشعة ابصارهم كأن كلا منهم يقول : من يجسر ان يخبره ماذا يقول هذا المعتوه وماذا ينشد . ولما لم يقل احد كلمة نزق جال قائلاً : يا لله . ماذا يقول هذا المنشد ؟ اني اسمع كلمة عرب

فانبرى احدهم وهو اقربهم صلة بجمال واطل من الشباك وعاد يقول :—

هل تذكر يا خمامة الباشا ذلك الدرويش الذي زارك في العام الماضي

— اي درويش ؟

— ذلك الدرويش الولي الذي قال لك : « وان كان جيشك انكسر في الجنوب فلا تيأس فلابد ان ينتصر متى تم نصر جيش الغرب »

— ولكن ماذا يقول . ماذا ينشد

فجعل يترجم لجمال فحوى النشيد :

أنا مليك العرب انا سليل الادب
اخوض بحر المنايا ولست اتقى العطب

لسوف ارفع عرشاً قد اخفضته الحقب
وسوف انشيء ملكا قد هدمته الكرب

انا وحيد زماني نجمي باعلى الرتب

سيعلم الناس اني فيهم هدى وعجب

وكان ذلك المنشد ينشد البيت مرتين او ثلاثا وذلك المترجم يعيده من بعده ويترجمه الى التركية لجمال باشا . فما تمالك جال ان قهقه وقال : استدعه الى هنا استدعه

فنادى ذلك الصاحب الدرويش قائلاً :—

يا هذا . يا درويش . يا درويش ... تعال الى هنا . تعال انشد الباشا نشائدك فانه يطرب لها . تعال

فما تردد ذلك الدرويش ان دخل الى السراي اذ بلغ الحراس امر الباشا ان يؤذنوا له بالدخول . وفي بضع دقائق كان في ذلك البهوشبح في شكل انسان كأنه من سكان مجاهل افريقيا قد كسا الشعر كل وجهه تقريباً وشعر رأسه استطال واسترسل الى كتفيه وليس عليه غطا حتى ولا عقال البدو . وقد ارتدى عباءة لا يبدو من تحتها الا رث الثياب وفي قدميه نعلان مقيدان فيهما يسير وفي يسراه ربابة

دخل وحيا تحية عربية : السلام عليكم ايها الناس

فقال له جال : اعهدك تعرف التركية

فاجابه الدرويش : اعرفها بعض المعرفة

— كلمني بها اذاً وما تعرفه منها يكفي .—

ما اسمك :

— انا ملك العرب

فقهقه جال قائلا : حسناً . ولكن ما اسمك

— اسمي الملك العادل

نعما ايها الملك العادل . اين كنت كل هذه المدة بعد ان فارقتنا في العام الماضي

— كنت ابني المملكة

وكان ضيوف جمال يتغامزون ويتضاحكون واما جمال فبالرغم من سكره وتظاهره بالمزاح كان يصبغ اسئلته صبغة الجد فقال : وهل اتممت بناءها

— ما زلت اعد مواد البناء

— واين تبنيها

— اين تبنى مملكة العرب في غير بلاد العرب ؟

— تعني صحراء العرب

— بل اعني كل بلاد تتكلم العربية

— اذاً هذه البلاد من مملكتك

— طبعاً وانت تحت سلطاني!

ففهقه جميع الحاضرين وجمال معهم ثم قال جمال : واين مقر دولتك

— هنا في دمشق ولهذا جئت الآن لكي اقيم دولتي واولف حكومتي واستوزر وزاري

— من وزيرك !

— انت وزيري الاول

— انا ؟

نعم انت ان لم تشأ فبالقوة

فضحكوا جميعاً وقال جمال : ولكني انا تركي فهل تستوزر تركيا

— لطالما استوزر الترك عرباً . وبيننا وبين الترك رابطة متينة لا تنفصم مهما عملوا على فصمها

فتململوا جميعاً وقال احدهم : — تكاد يا هذا تتكلم كمن يعقل

فسدد الدرويش نظره اليه وقال : حاذر من الشك في عقلي . ان جمالا القائد يكاد يفهمني اكثر منكم ايها المراؤون

فسرت فيهم جميعاً خلجة كانها هزة كهربائية ونظروا بعضهم في بعض واخيراً في جمال كانهم يريدون ان يعلموا ماذا يقول فقال : من عمل على فصم هذه الروابط المتينة ؟

— الترك اولاً يا قائد الترك . والاول المسأول

— تقول انك مؤلف دولة عربية

— نعم

وماذا تفعل بالدولة التركية

— اعضدها بدولتي . افلا تكون نصيري بعضها

— انا ؟

— نعم يا وزيري وسمير المعالي

فضحك جمال وضحك الآخرون مكفهرين وقال جمال ؟ ولكن كيف تضمن ان تكون الدولة العلية راضية بدولتك ؟

— انت تقنعها ان نشوء دولة عربية الى جنب دولة تركية يكون اضمن لسلامة الدولتين معاً . وذلك خير من ان تكون كل امة سوساً ينخر في عظام الامة الاخرى

فنظر فيه جمال نظرة عميقة اخترقت فؤاده . ولكن الدرويش تعود مثل هذه النظرات .

ثم قال : اذاً تعرف ان العرب سوس ينخر في الدولة .

فقاطعه أحد الحاضرين قائلاً : انه لمجنون جسور وقح

فقال الدرويش : نعم ولكني غير كاذب . فلا تقطع علي قولي يا حضرة الذات النبيل للقائد « والترك سوس ينخر في الدولة أيضاً »

فقال أحدهم منتهراً : صمتاً ياهذا وخرساً

فقال جمال : دعه يتكلم . فكثيراً ما تكون الحكمة في أفواه المجانين

فتغامز الحاضرون بعضهم لبعض وجمال يسأل : وما وراءك من الاخبار يا هذا .

— حاذر ان تجهل مقام ملكك

فقهقه جمال وقال : عفواً يامالك العرب ومعذرة . في العام الماضي انبأتني نبأ ساراً . فماذا تنبئني اليوم

— لقد انبأتك يا جمال . ستكون حاكم العرب باسمي . اما يسرك هذا ؟

فاضطربت مقلتا جمال باشافي وقبيهماوهو يقول باسماً : ثم ماذا ؟

— وسيدين لك شعبي وستكون قائده الذي يسير به الى المجد

— ثم ....

سيمثل لديك زعماء العرب كما مثل اخوة يوسف لديه في مصر . فحاذر ان تغدر بهم لئلا تفقد زمام القيادة

— اي زعماء العرب هؤلاء ؟

— قلت لكن زعماء العرب سيكونون بين يديك رهن امرك فحاذر ان تضيع الفرصة . اياك ان تخسر ثقتهم والا فلا تليق ان تكون وزيري الاول . حاذر والا فاخلعك من دست الوزارة بهوان

فابتسم جمال ابتسامة لطيفة : واخذ من علبته سيكارة وقدمها اليه قائلا . — تفضل دخن هذه ايها الملك

— لا ادخن

— هل تريد كاساً ؟

— محرمة علي

— اسمعنا اذاً ربابتك ونشيدك . اشربوا ايها الاخوان سرّ مليك العرب

وجعلوا يتساقون والدرويش ينشد

انا مليك وزيري سمير العلاء جمال
له اعتداد بقومي له اللوا في النزال

فدولة العرب تبقى على الاساس المكين
واي ملك يرجى بغير فتح مبين

وكان الدرويش كلما انشد بيتاً ترجمه لجمال وجمال يشرب حتى دب دبيب الراح الى موطن المرح من لبه فطار لبه شعاعاً ونادى الخادم قائلاً استدع الى هنا « نجمة الصباح » بعودها

وما هي الا هنيهة حتى اقبلت مرأة جميلة بجلباب حريري اسود وعلى وجهها نقاب . ثم ارتدت محفلة فناداها جمال منتهراً . فعادت تقول بصوت خافت : مولاي اين الحجاب ؟ اين الخدر الذي اجلس فيه كالعادة ؟

فقال : لا بأس . الجميع هنا اصحابي ونحن مسرورون الآن . فاشتركي معنا بسرورنا

فاختلجت المرأة وقالت مستغربة : — مولاي !

— قلت لك كذا ارادتي . اريد ان تنشدي ملك العرب نشيداً رداً على نشيده . انشد ايها الملك . ادخلي واجلسي هنا فما انت بافضل من زبيدة في حضرة هارون الرشيد

فجلست المرأة منصاعة على كرسي وعودها على ركبتيها ثم قال جمال : انشد ايها الملك نشيداً لنجمة الصباح

فانشد الدرويش :

يا نجمة الصبح لوحي
في الشرق فوق البطاح
وبشري العرب عني
بقرب صبح النجاح

وطلب جمال ترجمة البيتين فترجمها احد الحاضرين فتهلل جمال وقال لنجمة الصباح : اطربينا الآن يا نجمة

فاحتضنت المرأة العود وجعلت تعزف «بشرف تاتيوس» المشهور . فكاد الحاضرون يرقصون طرباً والدرويش سابح في فضاء الخيال وجمال يستغرب ذهوله الى ان قال له : اما انت مطرب ؟

— نفسي مطربة يا وزيري

— انشديه . يا نجمة انشديه لحناً عربياً . انشديه لحنا اندلسياً

فأنشدت نجمة الصباح :

سرق الغصن قد محبوبي
واختبا في الورق
قطع الغصن صاحت الاطيار
ذا جزا من سرق

فطرب الدرويش حتى قام يرقص من شدة الطرب

ثم طلب جمال الى نجمة الصباح ان تقف وترقص . فصاحت : رحماك يامولاي ماعودتني مثل هذا

— لا بأس يا نجمة . اود ان تسري ملك العرب

— عفواً ومعذرة

— لا تستعفي ولا تعتذري

— ولكن ياسيدي . . .

— لا بأس يانجمة . اود ان أسر اصحابي اني مسرور الآن . فاكرمي أصحابي والك عليّ الجزاء الذي تريدين

فقامت نجمة الصبح . فقال جمال : ازيلي النقاب

— فاضطربت المرأة وقالت : ويلاه . رباه . عفوك يا مولاي لا أود أن أنهتك

— ازيليه ولك علي ما تشائين من اماني يا نجمة . ازيلي النقاب

فتوقفت وترددت . فوقف جمال ونزع النقاب عن وجهها . فظهر من تحت ليله بدر لم تشهد الطبيعة مثله جمالاً ولا جلالاً ولا بهاء حتى كاد ينزل شعاع ناظريها كالسحر على الحاضرين . واما الدرويش فكاد ينتفض . بيد انه ملك عنان نفسه . وجعلت المرأة ترقص وأحد الحاضرين يعزف على عودها نغماً مرقصاً .

ولكن ما هي الا دقائق حتى دخل أحد الحجاب وقدم لجمال رسالة برقية فقرأها جمال وهو يتهلل وينظر الى الدرويش . ثم وقف وهو يترنح وخرج وهو يقول : لقد اتفقنا يامك . سأكون وزيرك . الى الملتقى يااصحاب غداً . اني مشغول الآن

وخرج الاصحاب الواحد بعد الآخر . ولما رامت نجمة الصبح ان تخرج امسك الدرويش بهدب جلبابها هامساً : مهلاً . كلمة واحدة بعد ان يخرجوا

فوقفت نجمة وقد شعرت ان قوة سطت عليها وقالت : ماذا تريد ؟

فلما توارى الخارجون في اروقة الدار صاح الدرويش نصف صيحة : زينب . زينب . ويحك

ووقع عند قدميها صريعاً ممسكاً بحاشية جلبابها

الفصل الثاني عشر

استير عند مردخاي

اما نجمة الصباح فارتعدت كأن صاعقة انقضت على رأسها وجزعت ولا سيما اذ قبض الدرويش بكفيه على اسفل ساقها كأن كفيه فكا تمساح ضغطا ولا ينفكان . وذهلت وحارت ماذا تفعل وماذا تقول

ثم تتلت قدميها من بين كفيه وركلته ركلة خفيفة وقالت قم اجلس

فهض الدرويش جاثياً على ركبتيه لديها وقال بزجر : زينب ! ماذا تفعلين بين انياب الذئب ؟

وكانت نجمة الصباح لا تزال مضطربة من هذه المباغتة فقالت : اي زينب تعني يا هذا ؟ وماذا تريد ؟

فضرع لديها قائلاً : — اعني زينب التي اختصها الله بقوة الآلهة الارضيين . زينب التي كوّن الله نفسها من اشعة الشمس المحرقة ، وصنع ضميرها من البحر الذي لا قرار له ، واشتق قلبها من جبهة الاسد ، وجعل سر حياتها دهر المستقبل ، وصير خطرات افكارها افلاكاً دائرة في اللانهاية ، وجعل ذوقها العقلي سنة الفنون الجميلة . . . . .

فقاطعته قائلة . — كفى كفى تخريفاً . لا جلد لي على سماع هذيان المجانين . فماذا تريد ؟

فتململ الدرويش وقال : ماذا اريد يا زينب ؟

— من قال لك ان اسمي زينب .

— ان الله اختصني بالانفعال كما اختصك بالفاعلية . فانطبعت كل خواصك في كما تنطبع اقدام الطيور في وحول المستنقعات

فتململت نجمة الصباح وقالت : لعلك تعني مرأة غيري

— لا لا . لا اعني الا المرأة التي كانت ارادتها الفلك الذي يدور فيه فؤادي ، وكبرياؤها السلطان الذي خضعت له نفسي ، وغضبها الجحيم الذي عوقب فيه فؤادي المتمرد . ورضاها النعيم الذي تثاب به نفسي لسجودها امام اله الحب

فصاحت به : ويحك من انت وحتى متى اسمع منك هذا الهذيان ؟

— انا محيط الدائرة الذي تدور فيه الحوادث حول مركز حياتك . انا شقاؤك الذي تلعنينه . انا بؤسك الذي تفرين منه . انا حظك الذي تجهلينه . انا نجمك الذي تترقبينه . انا خاتمة اسرارك . انا سجل اعمالك انا خفير مصيرك ، انا نور طريقك ، انا القدر الذي يخط سبيلك . . . .

فصاحت به : صه . مه ! الى م هذا الهذيان ! دعني امض فان الباشا يستبطئني والحاجب يوجس مني وقد يشي بي . دعني

فوقف الدرويش واعترض في سبيلها وقال : — مهلاً زينب . لقد القيت سباتاً على كل من في هذا القصر حتى لا يستطيع احد ان يعي هذا الموقف بيني وبينك . وسيمر الزمان وهو لا يدري ماذا يكون وماذا كان . فسمعاً ان لي منك كلاماً

فانتفضت وجلة وازبأرّ شعر رأسها وقالت : : دعني ولا تضطرني ان اصرخ مستغيثة

فحملق فيها حملقة كانت كحملقة نجمة الصبح شعاعاً وتالقاً وقال : مهلاً يازينب ! انت تستطيعين الصراخ ولا أحد يستطيع السمع . فصبراً حتى نتكلم .

— ولكن الى الآن لم أعلم من انت

— ويلاه . الم تعلمي ؟ الم تفهمي بعد كل هذا البيان من انا ؟ اما نقلت اليك نجوم السماء خفقات فؤادي ؟ اما نقلت اليك امواج الاثير خطرات افكاري ؟ اما حملت اليك النسائم عبقات انفاسي ؟ اما ايقظتك من نومك الهادىء نبضات تخيلاتي ؟ اما تمثلت لك في اوهامك تصوراتي . اما انزعجت نفسك حين كنت اتقشف في دير هجرك ؟ اما ارتاحت نفسك حين كنت اتغنى ببهاء طيفك

وكانت نجمة الصبح تزداد اضطراباً فقالت :

— متى متى هذا الهذر والهذيان يا هذا . لست افهم ما تقول . افصح

فقهقه الدرويش ملء شدقيه وقال : انا من كان يغنيك

عرف الحبيب مكانه فتدللا

وقنعت منه بموعد فتعللا

انا من سدل عليك ستار الكتمان حتى لاتراك اعين الزمان حين كنت تتوارين عن شبهة كل ظنان

فانتفضت نجمة الصباح انتفاضة من لمس

سلكاً كهربائياً وكادت تقع مترنحة لو لم يقبض الدرويش على معصمها وصاحت : ويلاه . يوسف الروضي ؟ يوسف . اما انت طيفه ؟ رباه . لا تذعرني ياهذا . كفاني ذعراً . هل يمكن ان تكون يوسف :

فقال الدرويش : لقد فهمت الآن لقد فهمت يا زينب .

— ويلاه . كيف ذلك . هل تتجسم الطيوف او انا الآن سكرانة او انا في حلم ؟ رباه انر ذهني

— لاتجزعي يا زينب . يجب ان تطمئني . لقد اتيت لطمأنتك .

وكانت المرأة ترتجف فرقاً وهي تقول : اطيف هذا ام حقيقة يارباه ؟

— بل الحقيقة بعينها

— ولكن ...

— قيل لك اني مت . نعم مت وجداً وتعذبت في جهنم صدك ولكن الامل احياني .

— ويلاه . هل تريد ان تعيد تمثيل الرواية يا هذا ؟ لقد كرت الاعوام ؟...

— اي نعم . كرت وكرة الحب كلما تدحرجت تجسمت ككرة الثلج التي تكبر كلما تدحرجت على بساط الثلج . ولكن ما هذا وقت العتاب ولا هو وقت الحساب . فاذا تفعلين بين براثن النمر .

فارتجفت ولم تحر جواباً فقال : لاتجزعي . لست احاسبك ولا اعاتبك ولا اؤنبك اذ ليس لي عليك حق وانما العجب ان تنتقلي من حصن العفاف والتصون الى حصن الخلاعة والهتك . الاجل ان تفتحي باب حريتك للفساد والابتذال اقفلت باب قلبك دوني يا زينب . اما وجدت ملجئاً اقل رجساً ودعارة من دار جال ؟ . اما وجدت كنفاً تلوذين به افضل من مجلس هذا السفاح . آه يا زينب ليتني رأيتك خليلة لنذل من انذال العرب خيراً من ان أراك مومسا في دار الطاغية التركي

— ويحك يا هذا . هل تفهم معنى ما تقول ؟

— افهم ان قائل هذا الكلام يقطع عنقه في الحال . ولكن لي سطوة ينصهر امام لهيبها ذلك السيف . ولي هيبة يخضع لها « جالك » اما وجدت حمأة تتمرغين بها اقل نجاسة من هذه الحمأة . اما اعجبك ان تسري الا قاتل الاخوان ، وسافك دماء الخلان ، وشانق الوطنيين المخلصين ، وصالب المتفانين بحب بلادهم ، فما هي وظيفتك هنا ؟

ويحك ! حسبك تقريعاً ما انا هنا الا استير عند مردخاي ملك اشور

فبهت الدرويش او حسن الروضي كما سمته نجمة الصباح او زينب كما سماها هو . ثم قال : وهل لك عليه سلطة استير على مردخاي ؟

— ان هذه السلطة تتسع وتمتد رويداً

— ولكن . ما بال قومنا يموتون جوعاً وكرامتنا يسامون ذلاً وخسفاً وزعماؤنا يعانون

اضطهاداً ونفياً ولا تزال المشانق معلقة والاحكام بالاعدام متتالية

— كان يمكن ان تنقرض البلاد اهلا ومرعى وضرعاً في بحر هذا العام . اما الآن فقد ضمنت ان يبقى نصف عمرانها ونصف اهلها

فصاح بها : ويحك ياعقوقة . وهل تمنين شعبك بفناء نصفهم عن يد جمالك . وهل تبذلين يا شقية عفافك لاجل انقاذ نصف امتك فقط . ومتى كان عرض المرأة العربية بقدر بقيمة ؟ اني استنزل غضب الله عليك ايتها الفاجرة فلتهلك امتك وليفن شعبك قبل ان يرى اميرة من اميراته مبذولة بهوان كهذا

فانتفضت جزعاً وقالت : ويحك ماذا تقول .

— اقول ان الاميرة صارت ساقطة فيا للعار ويا للشنار : فدعي الدار تبكي من بناها .

فصاحت به : ويحك . من قال لك اني ساقطة

— ترقصين وتغنين وتتهتكين امام سكارى ادنيا لؤماء ثم تنكرين انك ساقطة

— لا حرج عليّ اذا كان زوجي يأمرني ان افعل وانا اطيع

— زوجك ؟

— نعم ان جمال كتب كتابه عليّ . فانا حليلته لا خليلته كما تظن

فلطم الدرويش خديه وقال : — يا للطامة الكبرى ! ياللداهية الدهياء ! ياللنكبة النكباء ! قضيت ثمانية عشر عاماً اسائل نجوم السماء عنك واتنسم من نسمات الصبا اخبارك واتوسم في شفافية الفضاء رسم طيفك فما لاح لي خيالك الا هيكلاً مقدساً فيا لضياع الرجاء وخيبة الامل

— رفقاً بنفسك ونفسي يا يوسف ان الوطن يطلب ضحايا فانا من بعض ضحاياه

نعم نعم ان الوطن يطلب فادين وانا من جملة المفادين . اني اضحي بقلبي لاجل الوطن يا ناقصة . لقد بذلت اثمن ما عند العرب فلا تبذليه رخيصاً . لسوف تجدين ثمناً غالياً فلا تتنازلي عن الثمن . في الغد تجدين هذا الثمن فاطلبيه والا فامنعي ثمينك .

فاختلجت زينب وقالت : رباه ماذا تعني .

— اعني انك سترين غداً الدم الذي تكونت منه مسوقاً الى المجزرة التي تبذلين لديها طهرك . لسوف ترين الجوهر الذي صاغك الله منه يسحق وانت تحت الرحى التي تسكبين في كونها سرك المقدس . لسوف ترين النفس العظيمة التي اشتقك الله منها تحترق في الاتون الذي توقدين فيه بخور جمالك

فارتعدت زينب وترنحت جزعاً وهي تقول : رحماك يا يوسف رحماك ! ما معنى كل هذا ؟

فصاح بها : ويحك . ألم تفهمي ألم تشعري ان دم الامارة الشريف الذي يجري في عروقك يغلي الآن لان ينبوعه سيدنس ؟ ألم تحسي ان اللحم الذي تكونت منه سيحرق . ماذا اقول لك . الا تفهمين ان . . .

فاضطربت زينب كأن رجة زلزلت عظامها وقالت بصوت متهدج .. ويلاه ... ماذا ...

— ماذا ؟ قومك بل اهلك بل ...

— ماذا ؟

— كفى كفى . لقد بذلت اقداس قومك فافتدي بها مصدر حياتك ، ينبوع دمك ، ذرات جوهرك . اني رقيب عليك يا زينب وسأرى هل اتمادى في تمجيدك او اتقل عليك . وداعاً الآن

وقبل ان يوليها ظهره امسكت به قائلة. بربك لحظة . رحماك هنيهة

— لقد كنت عاجلة في مفارقتي فما بالك الآن ...

— اود ان اتفهم الى أي امارة تشير

— ويحك . اما زلت تغالطيني ؟ كفى مكراً . كفى تعمية . ان العالم الذي يجهلك دانك لانك رميت فؤادي في جحيمك . واما انا الذي عرفك كما انت فقد غفرت لك . فحتى متى تمكرين علي ؟

— ويلاه ... يوسف ... هل حقيقة عرفت ...

— نعم عرفت كل ما تعرفين وكل ما تجهلين ايضاً

— ويلاه ماذا . اجهل

— لسوف تعلمين المجهول الذي سينسيك المعلوم . فاعكفي الآن على الواجب الذي عليك

— رباه ... هل تعرف شيئاً عن ...

— نعم اعرف مستقبلك كما عرفت ماضيك

— لست ابتغي نبوءة بل اريد ان اعلم هل لي ...

— نعم لك في عالم الغيب سعادة اذا كنت تلينين قلباً وترأفين نفساً بي . اني باحث عن سعادتك وكدت اظفر بها

— هل هي حية ...

— انها لحية ترزق . كفى كفى الآن . لم يحن وقت الحساب

— بربك يايوسف ان قلبي بين يديك ... آه ... اود ...

— بعد ماذا ياظالمة . بعد ان بعت قلبك رخيصاً تقدمينه لي . اشتري وطنك بقلبك ياشقية ودعي قلبي الذي اشقيته يفني لاجل وطني وشعبي . لم تبق بيني وبينك من صلة يازينب الا ان هدفاً واحداً نرمي فؤادينا اليه وهو الوطن . وداعاً الآن

وافلت الدرويش من يد نجمة الصبح وتركها في ذهول ثم في بحران حتى كادت تشك ان ما حدث كان حقيقة في يقظة بل جعلت تتوهم انها كانت في حلم او في سرسام سكر

الفصل الثالث عشر

عينانه تراميانه سهام الخنوه

عاد الفتى الضابط عثمان العدناني من تلك الحملة الجاسوسية منصوراً كأنه فاتح قلعة او مملكة . عاد يسوق امامه زعماء البلاد مكبلين بالحديد . زعماء الحركة العربية . خونة الدولة . واي فخر اعظم من هذا الفخر . واي جزاء سيناله هذا الفتى من القائد الكبير الذي لطالما تحسر على ان يقبض على هؤلاء الزعماء متلبسين بالخيانة

الحق ان انتصار الضابط الفتى عثمان لتوفيق غريب . نعم ان هذا نبيه لبق ذكي رشيق سريع الخاطر خفيف الحركة نشيطها . ولكن القبض على اكثر من عشرين كبيراً من كبار البلاد وهم يتآمرون على الدولة لأعظم من مقدرة فتى كهذا الفتى . ولذلك يعزى الامر لتوفيقه .

وقد حاول بعض الضباط الذين فوقه ان ينازعوه هذا الفخر فاسرع اللواء قائد الفرقة التي منها عثمان وتلفت الى جمال باشا يبشره بهذا النصر المبين غير ذاكر عثمان بفضل

ولكن الكثيرين الذين يعرفون الحادثة لا يسكتون عن الثناء على عثمان .

عاد عثمان بغنائمه الى دمشق بعد استئذان جمال باشا . وذهب الى دار جده حسن باشا عدنان الذي رباه . لانه ابن بنته فلقبه بالعدناني مفضلا ذكر ابيه

ذهب عثمان الى جده الشيخ الذي كادت حوادث الدهر تنيخ عليه . فاستقبله هذا متهللا وقال له : اني احمد الله على سلامتك يا بني واهنئك بفوزك . لقد جددت افتخاري وصرت حرياً بان تكون تذكاري بعد مماتي

فاجاب الفتى فرحاً : من ابلغك يا جدي المحترم خبر انتصاري

— كنت قلقاً عليك جداً مذ اخبرتني مهمتك التي ذهبت فيها . ولذلك كنت دائماً اتنسم اخبارك . فعلمت ان فخامة القائد العظيم تلقى منك تلغرافاً يبشره بانتصارك . فالحمد لله على سلامتك يا بني . عسى ألا تكون قد عانيت كثيراً او تعرضت للخطر

— كان بيني وبين الموت قيد شعرة يا جدي ولكن احد المتآمرين خلصني من بين ايديهم بحيلة ولولاه لدفنوا اشلائي في ذلك الكهف العجيب الذي باغتهم فيه

وجعل عثمان يروي الحكاية لجده بحذافيرها الى ان قال له : ان الفضل الأول في انقاذي كان لهذه الحلية المعلقة بهذه السلسلة . لأنه لما رآها ذلك الشيخ احد المتآمرين معلقة في عنقي تحركت عواطفه وصار يبذل جهده حتى التضحية بنفسه لاجل انقاذي من اخوانه . ولا ادري ماذا كانت علاقته بهذه الحلية ، وماذا كان سرُّ فعلها فيه ، وماذا فهم منها .

ولما رأيت ان لهذه الحلية تأثيراً عليه رأيت ان انتفع من تأثره هذا وانا في أحرج اوقاتي وحياتي تحت الخطر الهائل . فانكرت انني اخذتها من ذلك الراعي وادعيت كذباً انها هدية من اهلي ولم اعين احداً منهم . فلا ادري ماذا اعتقد بي . لعله حسبني ابنه او ابن احد ابنائه . لا يهمني ماذ اعتقد حينئذ وانما همني ان انتفع من اعتقاده ولو كان وهماً وخطاء . لان الحلية كانت في الاصل مع الراعي . وان كانت للشيخ علاقة بصاحب هذه الحلية فيجب ان تكون بالراعي . والظاهر انه لم يرها معه من قبل . ولعله لا يعرفه

فقال عدنان باشا جد عثمان : عجباً ان لا يعرفه وانت تقول ان الراعي من اعضاء الجمعية السرية الشيطانية ، وانما هو متنكر بزي الراعي تمويهاً ، وربما كانت وظيفته حراسة ذلك الكهف

— لا بدع ان يكون الراعي وذلك الشيخ لا يعرفان احدهما الآخر لأن اعضاء الجمعية السرية يجتمعون متنكرين كل واحد بنقاب اسود يخفي به وجهه كما ذكرت لك . وفهمت ان الواحد منهم لا يعرف الا الشخص الذي ادخله للجمعية والشخص الذي دخل عن يده

وجعل عدنان باشا يتأمل الحلية والسلسلة ثم قال : لا بد ان تكون بين الراعي وذلك الشيخ علاقة يجهلانها وانما هذه الحلية تكشف لهما سرها لو اجتمعا .

— اذا كانت هذه السلسلة تكشف السر فسيبقى السر دفيناً لان السلسلة فارقتهما . على ان ما ظهر من عواطف ذلك الشيخ نحوي حرك عواطفي وجعلني اكاد اتوهم اني ذو علاقة به مجهولة

فاضطربت مقلتا الباشا وقال : — لا بدع الوهم يتسلط عليك يا بني . اي علاقة لك به وانت تعلم ان هذه السلسلة كانت مع سواك ولو لم تأخذها انت ولو لم يرها معك لما كان يكترث بك . فمن التوفيقات الربانية انك اخذت هذه الحلية من ذلك الراعي لكي تسخر بها قلب ذلك الشيخ فينقذك من نقمة رفاقه

— أي نعم . أي نعم ياسيدي الباشا . لولا ذلك الشيخ لمزقوا لحمي عن عظمي . اني مدين بحياتي لذلك الشيخ لقد عرض حياته للخطر لاجلي . ولما انقذني واصبحت في مأمن ارتاحت نفسه ورام ان اقتله لانه يعتقد انه بانقاذه حياتي خان رفاقه . فالحري ان اقتله او ان ادعه يقتل نفسه لكي يتخلص من عار الخيانة

— عجباً

— نعم . ان في ذلك الشيخ من العواطف ونبالة الاخلاق ما لم آره في احد ولا كنت اظن احداً في الدنيا له مثل تلك الاخلاق

فضحك الباشا وقال : ان جميع المجرمين متى صاروا في القيد اصبحوا نبلاء الاخلاق

فتجهم الفتى عثمان وتمرمر قائلاً : — لا لا يا سيدي الباشا ان ذلك الشيخ الجليل لكتلة عواطف ونبل . ومهما يكن امره فاني مدين له بحياتي . ولذلك اريد ان انقذه

— تنقذه ؟

— نعم

— لا تقل كذلك والا ارتابوا بأمانتك

— يا لله . اذا رويت حكايتي لجمال باشا فلا بد ان . . .

— حاذر ان تدخل في هذا المأزق يا بني والا عرضت حياتك ثانية للخطر . جمال باشا لا يفهم لغة العواطف

— عجباً

— كذا اقول لك انت لا تعرف اصول السياسة التركية وفنونها واساليبها

— يالله . لا اطيق ان اتصور هذا الشيخ يشنق ياجدي يجب اذا ابذل نفسي لاجله ، اعرض نفسي لكل خطر لاجله ، والا فلا اكون انساناً بل اكون نذلاً

— انك مبالغ في تصوراتك الوهمية يابني . ان هذا الشيخ خائن يجب ان يموت

— بل يجب ان انقذه او ان اموت معه .

— ويحك يا بني . هل جننت . الا ترى انك مدين لجدك ايضاً بحياتك . اني ربيتك وادخرتك لراحتي في آخر حياتي ولتحيي ذكري بعد موتي اذ لم يبق لي من آمل الدنيا سواك . فبالله لا تجن

فازداد الفتى حماسة وقال : انت ياجدي لا تعتقد الا بالماديات وما رأيتك قط تحس بالروحيات . ان في الدنيا نبالة وشرفاً ومروءة . ان ذلك الشيخ قد علمني درساً لم تستطع انت ان تعلمنيه في مدة عشرتي لك . لقد بعث فيّ ذلك الشيخ عاطفة المروءة التي دفنتها انت في اعماق مجهولاتي .

فارتبك الباشا الشيخ وحار في أمر الفتى وقال : ماذا تريد ان تفعل لانقاذه يا بني . افعل ما تشاء الا ان تعرض نفسك للشبهة .

— اذاً ارجو ان تكون على استعداد لان تمدّني بالمال اذا اقتضى الامر ان ابذل المال لاجل انقاذه

فانتفض الباشا وقال : انت تعلم يا ابني ان مالي كله أو معظمه ضاع في الرشاوي لرجال هذه الدولة الذين لا يشبعون . وما بقي الا القليل لآخرتي وان حرصت عليه بقي لك ارثاً حلالاً لا ينازعك أحد به . فمن الحماقة ان نفرّط به

فتمرمر الفتى وقال : اني كفيل براحتك مهما طالت ايامك يا سيدي ولا اريد ان أرث مالك . فاسمح لي ان افتدي به هذا الشيخ الذي انقذني وصارت حياتي ملكه

فتململ الباشا وقال : — صبراً يابني لنرى ماذا يكون من امر محاكمة هذه العصابة الخائنة فلعلنا نجد شفاعة نافعة بصاحبك الشيخ . وبعد ذلك لا نضن بشيء في سبيل انقاذه

— بارك الله بك يا سيدي الباشا . كذا عدني وبهذا تهدّىء روعي . لاني لا أطيق ان اتصور ذلك الشيخ الجليل الطيب القلب معلقاً في المشنقة

فغمغم الباشا وتمرمر وتململ وعثمان يقول

له : يجب ان نزوره غداً في السجن ونقدم له هدية ونعزيه ونشجعه ونطمئنه

— لا بأس في ذلك . اما علمت يا بني ما اسم هذا الشيخ ومن هو ؟

— لم يشأ ان يقول . وهبه قال فهل يعترف باسمه الحقيقي وهو متهم بتهمة فظيعة

— اما عرفت من اي بلد هو ؟

— لا

— هل هو عربي بدوي ؟

— لا . ربما كان كذلك . . . . ولكن لا . . ان لهجته في الكلام مضللة . ربما كان دمشقياً او حلبياً . . . . لا لا ادري . بلى . بلى . انه الزعيم الدمشقي الذي يمثل عرب الشام لان عصابة رأسه مكتوبة « الدمشقي »

في اليوم التالي ذهب عثمان مع جده الى المكان الذي اعتقل فيه اولئك المتهمون . واستصدر اذناً بمقابلة المتهمين

فاستقبله الضابط المسأول عن طريقة هؤلاء المعتقلين . فقال له : لا تهمني مقابلة احد من هؤلاء سوى الشيخ الدمشقي او الذي كانت كتابة عصابته « العضو الدمشقي »

فدخل الضابط . ثم عاد يقول : ان هذا الشيخ انوف شموخ . لا يريد ان يأتي بل يقول : ان من يريد مقابلته فيلدخل اليه . فقلت له ان الدخول الى هنا ممنوع . فاصر على عدم الخروج

فالتفت عثمان الى جده عدنان باشا وقال له : هل رأيت شمماً كهذا ؟ . انه نبيل جداً

ثم التفت الى الضابط وقال له : قل له ان الضابط الذي جاء بك من مكان الجمعية يريد ان يراك

فبغت ذلك الضابط وقال : — سعادتك عثمان بك . لي الشرف ان اهنئك بنصرك

ثم دخل الضابط وفي دقيقة عاد يصطحب ذلك الشيخ . فلما رأى الشيخ الدمشقي عثمان اغرورقت عيناه بالدموع وكاد ينقض عليه لكي يقبله . ولكن نظرة منه الى الباشا الذي كان واقفاً الى جنب عثمان ردته الى الوراء مبغوتاً مبهوتاً

عند ذلك وقعت عين الشيخ الدمشقي المعتقل على عين الباشا وجرى بين العينين تفاعل اثيري هائل لم يدر سره الا الله . فاضطرب الاثنان وانتفضا . ثم قال الشيخ لعثمان : من هذا ؟

فجزع عثمان وارتبك لغرابة ماحدث وقال متلعثماً : جدي !

— جدك .

والقى كفه على عينيه وترنح قائلا : واخيبتاه !

وعاد مسرعاً الى سجنه . واما الباشا فامسك بيد عثمان وجذبه قائلا : — تعال يافتى . تعال . لقد انتقمت لي . لقد قبضت على مسبب شقائي . هلم . دع هذا الشيخ النجس يموت

وعاد وعثمان مبهوتاً مما رأى وسمع وهو حائر فيما حدث الى ان استقر به المقام في حضرة جده فقال : جداه اود ان اعلم ما هي علاقتك السابقة بهذا الشيخ حتى تنافرتما

فارتعد الباشا . وقال : بني . لاتسلني في حديث قديم لايهمك بل يؤلمك وانت في غنى عنه .

— يجب ان اعلمه مهما كان

— اذا كنت توجب عليّ اي امر فاعلم اني انكرك ولا اريد ان تبقى لك علاقة بي . ان بيني وبين هذا الرجل حوادث مؤلمة لا اريد ان يعرفها احد مني . لا تهمك فلا تسأل عنها . فليمت ذلك الخبيث فليمت ذلك الرجس فليمت ذلك المتكبر فليمت ذلك العنيد . دعني الآن فان آلامي لاتحتمل

وخرج الباشا وانزوى في مخدعه وبقي عثمان حيراناً لايفهم هذا السر الذي يبالغ جده في كتمانه

الفصل الرابع عشر

مؤامرة قضائية

في تلك الاثناء في احد الامساء كان القائد جمال باشا في مكتبه الخاص وقد امتثل لديه ضابط في رتبة ميرالاي يدعى احمد بك السيفي . فقال له جمال باسماً بسمة الثعلب : لاريب انك علمت بوقوع عصابة الخونة السرية من العرب في الفخ

— نعم واني اهنىء دولتكم بهذا النصر فانه يضاهي النصر على الاعداء الخارجيين . وعندي ان الاعداء الداخليين لأشد خطراً من الخارجيين

— لاشك بذلك انت عربي

— بل انا عثماني يا مولاي

— ولكنك عربي السلالة

— لقد تلاشت عربيتي في عثمانيتي يامولاي بل ان تركيتي استغرقت عربيتي فقد درست الحقوق والحربية في الاستانة العلية . وقضيت معظم حياتي بل زهرتها في فروق ام المجد والعز والنصر

— اني مسرور جداً باهليتك ومغتبط بوطنيتك . ولا شك عندي باخلاصك في عثمانيتك ولهذا اود ان تكون المدّعي العمومي في قضية هؤلاء الخونة لاني علمت انك متضلع في القوانين ولا سيما القوانين الحربية وان لك قلماً بليغاً . وقد قرأت مقالات لك في بعض الجرائد تشهد بتعلقك في العرش العثماني

— لقد اولانني شرفاً عظيماً يامولاي بهذا التعيين

— ولا اخفي عليك ان غرضي من ذلك ان يكون محاكمو اولئك الخونة عرباً من جنسهم حتى لا يقال ان الترك تحاملوا على العرب

— انكم يا مولاي مثال العدل . هل تم التحقيق في أمر هؤلاء الخونة

— التحقيق جار بكل تدقيق وتفصيل وما هو الا اجراء رسمي لايكاد لازماً أو مهماً لان هؤلاء الخونة قبض عليهم وهم متلبسون بجريمتهم العظمى — مجتمعون في كهفهم يتفاوضون بصراحة في ايقاد نار الثورة وقلب الحكومة وانشاء دولة عربية في هذا الوقت العصيب الذي اصبحت الدولة فيه في احرج اوقاتها .

فصاح احمد بك السيفي مستشيطاً : ويحهم . انهم ليدفعون بانفسهم وبالدولة جميعاً الى الدمار . يا للشر

— خذ اذاً يا احمد بك هذا التقرير وادرسه جيداً واستعد لمرافعة بليغة مؤثرة تبين فيها خطر هذه الجمعية السرية على الدولة والوطن والدين وعلى العرب والاتراك ، وسائر عناصر الدولة وعلى العالم الاسلامي عموماً . واعلم ان مرافعتك هذه ستنشر في جميع صحف تركيا بل في صحف اوروبا والعالم كله حتى يبرر العالم كل عمل نعمله الآن من الشدة والضغط ويعذرنا في ما نأتيه من الاضطهاد ولا يخفى عليك ايضاً ان مرافعتك هذه ستسجل في تاريخ الدولة وتكون تحفة قانونية

— اني يا مولاي سأضع فيها كل بلاغتي وعلمي القضائي ومعارفي القانونية وفلسفتي الاجتماعية

وكان احمد بك قد قرأ فيها بعض اسطر فقال : ولكني لا أرى فيها اسماء صريحة بل كتابات : الدمشقي الحلبي الاورشليمي الحجازي البغدادي الخ . فلا اظن انه تجوز محاكمة اشخاص لا تعرف ما هيتهم او هويتهم .

— الى الآن لم يشأ احد منهم ان يقول عن اسمه الحقيقي بل ان كلاً منهم يسمي نفسه بالاسم الذي عرف فيه في الجمعية كما ترى . وهم لا يريدون ان يعترفوا بعلاقتهم بعضهم بعض او بعلاقتهم مع سواهم . بل هم قليلو الكلام لا يجاوبون الا مكرهين اجوبة بسيطة . وجل اقوالهم انهم اجتمعوا لكي يبحثوا في مستقبل البلاد العربية ولم يقصدوا خيانة الدولة العثمانية . على اننا عرفنا اسماء معظمهم . ولسوف نعلم اسماء الآخرين . وحينئذ ندمجها في لائحة الاتهام . فهذه مسألة لا تهمك انت فابن مرافعتك على فحوى هذا التقرير

— من هم الشهود ؟

— أهمهم عثمان العدناني ، وستجتمع به اذا لزم الامر . وكذلك يشهد سائر الجنود الذين تلقوهم وهم يخرجون من الكهف الذي كان مجهولا في منتصف الليل . ان التهمة ثابتة عليهم ثبوت الشمس في رائعة النهار . واهمية مرافعتك ليست في اثبات التهمة عليهم لانها ثابتة بل هي في بيان فظاعتها

— لي الامل ان اقوم بهذا الواجب خير قيام ياسيدي

— تتناول العشاء على مائدتي الليلة ياأحمد بك

— هذا فخر لي ياسيدي الباشا

خرج احمد بك السيفي من هنا ودخل

حسن بك العظيمي رئيس الديوان العرفي فقال له جمال : لقد دبرت لك امر المدعي العمومي وسيجيد كل الاجادة في تعظيم الجريمة . بقي اني اود ان تبذل جهدك في ان يبقى ميل المحكمة سراً مكنونا اي الا يلاحظ احد ماذا سيكون الحكم

— ولكن من المدافعون عن المتهمين ؟

— اذا لم يشأ هؤلاء الخونة ان يبوحوا باسمائهم فبالطبع لا يقدرون ان يعينوا محامين وحينئذ نسخر محامياً يدافع عنهم جميعاً

— وهب انهم اعلنوا اسماءهم فنضطر ان نقبل محامين عنهم

— بالطبع ولكن اود الاّ يذكروا اسماءهم فقل لنظمي بك ان لا يسألهم اسماءهم في جلسة التحقيق التالية

— ولكن يا سيدي الباشا ...

— دع هذه المسألة لي . افضل ان تبقى اسماءهم مكتومة

— عجباً

— لا تعجب . مادامت اسماؤهم مجهولة لا احد يتشفع بهم . وقد عرفت اسماءهم جميعاً. تتناول العشاء معي الليلة يا حسن بك . قل لنظمي ان يقابلني

وخرج حسن بك ودخل نظمي فاوصاه جمال باشا الا يسأل المتهمين عن اسمائهم ودعاه للعشاء عنده

الفصل الخامس عشر

حفلة تتويج ملك

في ذلك المساء كان البهو في سراي جمال باشا حافلاً بجمهور من اصدقاء الباشا وأحبائه واعوانه وانصاره وصنائعه حتى ان عثمان العدناني كان من جملة المدعوين للعشاء والسهرة

وقد دارت كؤوس الراح وعزفت آلات الموسيقى المختلفة وكانت ليلة طرب لم يكد يشهد ذلك المحفل مثلها وأما الوليمة فقد حسدتها ولائم عبد الحميد اصنائعه وجواسيسه

وفي ابان اللهو والطرب والفرح والمرح دخل الحاجب وتقدم الى جمال باشا وقال : —

مولاي . الدرويش الثقيل هنا وهو يزداد ادلالاً على دولتكم ويريد ان يدخل ولو عنوة وانا أصده . فماذا تأمر بأمره

فقال جمال على مسمع من الحضور : ملك العرب ؟ ورابته ؟ دعه يدخل فقد حان حينه . دعه يدخل

ولكن الدرويش ما انتظر اذناً . فما فاه جمال بذلك الكلام حتى كان قد دخل الى وسط المجلس وجعل يعزف على رابته ويغني وافاكم ملك العرب في خير اوقات الطرب

ما بين برديه الكرامة والامامة والحسب

للعرب كوكبه هدىً للترك دولته لسب
الامتان بظله كالتوأمين لخير أب

قم يا جمال وزيرنا قد حاذان نأتي العجب
نبني الممالك من علو م من فنون من ادب

هيا نغذّ الجائعين وانت اكرم من وهب
القمح سوّس والانام م تموت جوعا ما السبب

أنقيم مملكة الزمان على رجال من خشب
ونقيم دولتنا يفر سان وخيل من قصب

وما انتهى الدرويش من هذا النشيد وقال : اجلس ايها الملك . هاتوا لملك العرب حتى قهقه جمال باشا وقهقه بعده الحاضرون « اوكيلة » (شيشة) اعلم انه يدخن التنباك . انك يا ملك العرب ضيفي الليلة . وغداً ضيف الديوان العرفي

— هل هيأتم تاج الملك

— نعم وسنتوجك على منصة المشنقة ان شاء الله

— على شرط ان يكون مكان التتويج حافلاً بجمهور عظيم من الشعب

— سأدعو لك سوريا كلها لتشهد تتويج هذا

— وتقدم الخضوع ؟

— وانت تقسم يمين الامانة

— وانت تقسم يمين الطاعة بصفة كونك وزيري

فقهقهوا جميعاً فقال الدرويش : لسوف يبكي الضاحكون ويضحك الباكون . أن دولتنا ستؤلف من ارواح المشانيق . تلك الارواح اللطيفة ستسود الشرق وتقبض على اعنة الاحكام فيه . تلك الارواح الساميـة ستظهر كواكب في سماء الشرق تنير شعوبه بنور الهدي والمعرفة . تلك الارراح ستكون الحرارة الجديدة التي ستبث في أرض الشرق قوات هائلة تهدم المتداعي وتزلزل المتشامخ وتدك المتباذخ . تلك الارواح ستتجسد بمارادة (١) شرقيين يبنون دولة الاجيال المقبلة التي تدين لها دول الارض . هات الاركيلة يا جوهر آغا . ولندع النفس الآن تريح الجسد من اعماله الشاقة . الى غنائكم ايها المغنون . الى عزفكم ايها العازفون

* * *

بعد قليل نادى جمال جوهر آغا وقال له : ادع الى هنا نجمة الصبح ولتأت بعودها .

وما هي الا دقيقة حتى دخل خادمان ونصبا الحجاب كأنه خدر وفتي ودخلت نجمة الصبح من وراء الخدم وجلست على منصتها المحجبة وجعلت تضرب على عودها وتغني . ثم جعل العازفون يعزفون لها الاغاني من تركية وعربية وهي تغني والحضور يطربون ويعجبون وكل برهة يطوف بهم الساقي فيشربون حتى أخذت النشوة من ألبابهم وصار يؤخذ عليهم

(١) جمع نمرود اول ملوك بابل

خطابهم . ولولا ان جالاً نفسه انتشى لطرد بعضهم لما بدا من خفتهم

واخيراً لما دبت الخمرة الى موطن الاسرار وقف جال وأزال ذلك الحجاب عن المنصة التي عليها « نجمة الصبح » فاسرعت « نجمة الصبح » وارخت قناعها على وجهها قائلة : مولاي . كيف هذا ؟

فابتسم لها جال وقال : لا بأس يا نجمة دعي الصحب يشاهدون هذا الصبح البهيج

ورفع النقاب عن وجهها . فاضطربت وقالت : بربك يا سيدي . في غير مجاسك ما ارتفع نقابي

— لا بأس يانجمة الصبح انيرى صباحنا فقد آذن الليل بالرحيل . قومي ارقصي

وأخذ بيدها واوقفها في وسط البهو وهي تضطرب خجلاً . والتفتت الى الدرويش فاذا هو غير موجود في مكانه فقيل له انه خرج الى رحبة الدار لكي يستلذ اركيلته وحده

فقال جال : لعل الرجل لم يتعش بعد فعشوه

وجعل العازفون يعزفون ونجمة الصبح ترقص ولكن نظرها في الارض كأنها هابت ذلك المجمع

وكان الحاضرون بعضهم يترنمون طرباً ونشوة وصبابة ، وبعضهم يذهلون ، وآخرون يقطبون كأنهم غير راضين عن مرأة في هذا الجمال وهذا البهاء وهذا الجلال مع مابدا منها من الحياء والحشمة تكره على التهتك بسلطة قاهرة

ولو كنت أيها القارىء ممن يحسنون الفراسة أو يقرأون الافكار في ملامح الوجه لكنت ترى اثنين في ذلك المحفل يمتعضان مما حدث وهما عثمان بك العدناني واحد السيفي المدعي العمومي في الديوان العرفي

وكانت كلما انتهت نجمة الصبح من رقصة ورامت الخروج انتهرها جال آمراً اياها ان ترقص ايضاً . واخيراً بالغت في الرجاء أن تخرج فاذن لها وخرجت

الفصل السادس عشر

مساومة على مملكة

وما ان بلغت الى جناح الحريم حتى بغتها وجود الدرويش في ايوان ذاك الجناح . فقالت له : ويحك . ماذا تفعل هنا

— انتظرك

— الا تدري انه اذا عرف جال بوجودك هنا قتلك

— جال لا يقتلني يا غبية

— لا يقتلك قتلاً بل يذسفك نسفاً

— بل يفتديني اذا تعرضت لخطر

— عجباً لماذا . الا يجد غيرك معشوقاً ؟

— لا . لا يجد مثلي . وهو في حاجة اليّ

— انت ؟ لماذا ؟

— نعم لاني سأستعين به على انشاء دولة عربية

— قالوا انك مجنون فما صدقت

— كلا يازينب ما انا مجنون بل هم مجانين . ان جال يقبل اقدام من يساعده على انشاء دولة عربية

— يا هذا ! دعني من هذيانك . اخرج الآن قبل ان يأتي جال لئلا يقتلني ويقتلك

— لن يأتي جال الى خدرك الليلة

— كيف ذلك ؟

— عنده غيرك

فارتعدت نجمة الصبح وقالت : كذبت .

— انا ما كذبت بل انت غبيت . هل تعتقدين ان جالاً يحبك ؟

— اني زوجته

— ولا انت زوجته

— زوجته بكتاب شرعي

— الكتاب لا يصنع زوجة حقيقية

— لا افهم ماذا تقول

— استغرب انك لاتفهمين. هل سمعت ان زوجاً ينتدب زوجته لكي تغني وترقص لصدائمه

فتجهمت نجمة الصبح وقالت : انه سكران معذور

— انه يسكر لكي يعذر . ولو كان يحبك لما كان يسكر حتى يأتي بك منكراً .

— تباً لك هل جئت لكي تنغص حياتي و.....

— لا لا . يا زينب جئت لكي انذرك واحذرك وانصحك ان ايام جال معدودة هنا اذا لم يقم بالمهنة التي تدربنه فيها ولهذا يمهد السبيل لابدال كتاب طلاقك بكتاب زواجك ان جالاً يحب غيرك الآن . وبعد حين قد لا يبالي بك فاغتنمي الفرصة قبل ان تفوت

فابرقت عينا نجمة الصبح وقالت : ويحك ماذا تعني ؟

— اعني ان تغري جالاً بمملكة عربية

— تباً لك من مجنون . وهل تظن الجنون في السياسة سليم العاقبة كالجنون في الحب

— لا ريب انك مجنونة والاّ فكنت تعلمين ان الجنون في الحب غير سليم العاقبة . ليتك كنت تعلمين ذلك حين كان جال مجنوناً بك

— لا يزال مجنوناً بي . والاّ فما كتب كتابه عليَّ

— متى كتبه ؟

— منذ بضعة اسابيع

— ومتى عشقك ؟

— منذ عام .

— اما كان يعشق غيرك

— احتظى كثيرات ولكنه عشق واحدة ولم يتزوج سواها

— وهذه الواحدة ؟ انت ؟

— نعم . فهو قد يلتفت الى سواي ولكنه لا يعشق غيري

— اذاً اغتنمي الفرصة ياغبية . ان الجنون في الحب يولد العقل في السياسة .

— هل هذا الرأي عقل منك في الحب او في السياسة ؟

— في الامرين . لقد سنحت الفرصة ان تكوني ملكة بعد ان كنت أميرة

فقهقهت نجمة الصباح قهقهة خافتة وقالت : اخاف ان يأتي جال ويراك هنا فلا ادري ماذا يقول

— اقول لك انه لا يأتي الآن . وغداً سيجتمع بك وهو في صحوه بعد سكره فاغريه بمملكة عربية

— لا ريب انك مجنون . اما سمعت بعصابة الخونة من كبراء العرب ؟ وماذا اعدّ لهم من التنكيل

— تعنين اعضاء « جمعية اخوان العهد » الذين قبض الجند عليهم وهم يتآمرون في الكهف ؟

— هل هم اعضاء جمعية ؟ لم اعلم ذلك

— اي نعم انهم اعضاء جمعية سرية غرضها انشاء دولة عربية

— حسناً . او ما علمت انهم تحت المحاكمة وان المشانق تعدّ لهم وبعد بضعة ايام تسافر ارواحهم الى السماء

— بلى . يمكن ان يحاكموا ويمكن ان يساوموا ايضاً

— يساومون ؟ على ماذا ؟

— نعم يساومون على الدولة العربية وتكونين انت الواسطة او السمسارة

— بالله . لا ريب انك تخرف يا هذا

— كلا ياغبية بل اني اتكلم كاعقل العاقلين ما قبض عليهم الا لكي يساوموا . فاذا كنت ذكية وداهية كنت واسطة بينهم وبين جال ونلت جزاء السمسرة تاج ملكة

وجعل فؤاد « نجمة الصبح » يخفق خفوقاً كأن قوة مخيفة سطت عليها فقالت : ويلي . هل يمكن ان يدفعني تفريرك الى هذه المخاطرة المهلكة . كفى كفى يا يوسف ان تغرر بي .

— انك لمجنونة بلا شك . ان بين يديك

فرصة نادرة المثال . اذا لم تغتنمها ضيعت مجداً وكفارة عظيمين

— ويلاه . كفى ان تخدعني وتغرر بي . هل السياسة دعابة حب

— انها لكذلك ياجاهلة . لطالما دك الحب ممالك وانشأ ممالك . ولطالما تغير وجه الارض بدعابة حب . راجعي التاريخ من عهد كليوبترا وانطونيوس الى عهد نابوليون وجوزفين وأنا بنت ملك النمسا

فارتعدت نجمة الصبح وقالت : ويلي ابعد عني يا ابليس . انت تخدعني . تبتغي ان تهورني . ويلي منك يايوسف ! تكيدلي شر مكيدة لكي تنتقم مني .

— لو شئت الانتقام منك لما صبرت حتى الآن . كان في وسعي ان انتقم منك مراراً . وماذا يمنعني الآن . ان اطعنك واطعن نفسي

— فجزعت نجمة وقالت اذاً سامحتني

— واي ذنب اذنبت لي حتى اسامحك ؟

— احببتني ولم احبك

— ماهذا بذنب . اذاً تعرفين جيداً اني احببتك

— نعم

— وتعرفين اني احببتك حتى الموت

— نعم . ولكني لم استطع ان اتزوجك ولم أرد ان احبك بلا زواج

— لماذا لم تستطيعي ان تتزوجيني

— لاني كنت زوجة آخر

— كنت تقولين انك ارملة

— كنت مضطرة ان اموّه

— والآن ؟ ماذا جرى حتى تزوجت جمالا

— علمت ان زوجي قتل في الحرب

— هل انت واثقة انه قتل ؟

— عندي كتاب من وزارة الحربية يشهد بقتله

— اظن جمالاً استصدر هذا الكتاب .

— نعم . ولولا هذا الكتاب ما تزوجت

— لا ابحث في الجديد وانما أسألك عن القديم . لماذا لم يكن في وسعك ان تقولي الحقيقة وهي انك متزوجة

— هذا أمر لا شأن لك فيه فاعذرني لكتمانه

— لك حق . وانما هل علمت كم عذبني حبك يا زينب

وكانت نجمة الصبح تنظر فيه فيذعرها احمرار عينيه فقالت : عفواً يا يوسف . لم استطع لم استطع

— اين اختفيت من امام غرامي

— لم ار بداً من ان اغوص في بحر المجهول حتى استطيع ان اوجد في معلوم آخر جديد . فقد قضت زينب ونشأت « نجمة الصبح » لان زينب لم تستطع ان تفعل ما تفعله « نجمة الصبح »

اما كان في وسع زينب ان تستخدم يوسف لسلطانها في خدم مشروعة

— لم يكن يا صاح في وسعي لم يكن

— لو كانت لك ثقة بحبه العظيم لابحت له

بكل سرائرك فكان ينقذك من مخاطرك ومن مشاكلك . آه . لو كان عندك ذرة من الحب الذي كان عندي لوثقت اني كنت انتشلك حتى من الحمأة لو كنت فيها

فارتعدت نجمة وقالت : ويلاه . لقد جربت الرجال قبلك وخبرت جبهم فاعذرني يايوسف . المؤمن لايلدغ من حجر مرتين ، بربك عفواً وعذراً . ويلاه . دعني من هذا الحديث القديم المؤلم . اكاد اذوب جزعاً

— نعم . دعينا من حديث اصبح في خبر كان

— اذاً هل انت مسامحي

— ثقي اني لو شئت الانتقام لما منعني عنه سيف جمال ولا غضب الديان العادل

— اذاً لم يبق لك فيَّ مآرب

— مأرب واحد فقط

— ما هو ؟

— هو ان تغري جمالاً على الانفاق مع العرب

— ويلاه . عدت الى جنونك

— اني عاقل يا جاهلة . لا تظني كبار الرجال يختلفون عن صغار الاطفال في ساعات اللهو والهوس او الحب . ففي ساعة الدعابة اشتغلي في السياسة

— رباه انك تسوقني الى حتفي

فحملق فيها الدرويش وقال : ويحك اين قولك انك استير عند مردخاي أي الاحوال احوج الى شفاعتك من حال ٢٤ زعيماً من زعماء العرب يخطر حسام الانتقام فوق اعناقهم وفي امكانك ان تحولي ذلك الحسام الى راية سلام

— ويلاه . اخاف الفشل يا يوسف وما عاقبة الفشل الا الردى

فصاح بها الدرويش : تبالك يا شقية . وماذا تنظرين من حياتك بعد . لقد ضيعت الحسب والنسب والنشب والعرض والشرف . فماذا تبتغين من البقاء يا فاجرة . الا اقل من ان تستخدمي فجورك لخدمة وطنك ؟ لعلك اذا احسنت الخدمة كفرت عن هذا الفجور .

فقالت نجمة مرتعدة وعيناها تحجظان لقد اخفتني يا هذا

— ويحك مماذا تخافين ؟ امن الموت ؟ انك ميتة والمرء لايموت مرتين

فجزعت « نجمة الصبح » اي جزع وقالت كأنها تكلم نفسها : ويلاه . لاريب انه مجنون

فصاح بها . اني اعقل العاقلين يا فاجرة وانما اريد ان ارسلك الى السماء مطهرة من آثامك . لاني لم اعد استطيع ان اطهرك على الارض

فانتفضت ثم تشددت وقالت : يا لله ماذا يهمك مني . بربك دعني لقد ارعبتني . ويلاه

— اريد ان أنالك في السماء بعد ان خسرتك على الارض ، اني احبك يازينب . اني احبك . مازلت اعبد فيك روحاً اظنها

طاهرة وان كنت احتقر فيك جسداً اعتقد انه اصبح نجساً

فقبضت على يده قائلة وهي تنتفض : يوسف . يوسف . الم تزل . .

فنفض يده حتى افلتها يدها وقال : ويحك لا تمسي يدي يا نجسة لا تلمسيني في هذا العالم تطهري هنا قبل ان تبرحي الى السماء. كفري عن ذنوبك . خلصي شعبك يا استير من كيد اعدائه ونقمتهم

— ويلاه . انك تدفعني الى الموت يا هذ

— نعم موتي لتحيا روحك. افتدي شعبك حتى يتقدس ذكرك

— المهمة صعبة يا يوسف . لا قبل على مرأة مثلي ان تنجزها . رحماك

— لا تخافي يا تعسة . اني اقدم لك تعويذة تحرسك اقدم لك تذكاراً يثير حماستك . اقدم لك ذخيرة مقدسة تنقذك. اقدم لك قوة تشدد قلبك وتعيد جرأتك

الفصل السابع عشر

سر التعويذة الحلية

ثم تناول من بين ثوبه وصدره الحلية المصرية القديمة الزي المعلقة في السلسلة التي تقدم ذكرها وعلم القاريء خبرها وقال : خذي في هذه قيد لك باهلك ، ثم قيد لك بشعبك ثم قيد لك بقبرك ، اذا لم تطق نفسك ثقل جسدك

فلما وقع نظرها على الحلية انتفضت وارتعدت كأن صاعقة انقضت عليها ثم تداعت وترنحت ووقعت شبه مغمى عليها . فتلقاها الدرويش يوسف بذراعه وقدم لها كرسياً فقعدت واهية القوى فاقدة العزيمة . ثم جثا عند قدميها وما زال يقدم لها الحلية البهيجة وهي ترتجف تأثراً وتتنهد تعلة الى ان قالت : ويلي من اين لك هذه ؟

— من مدفن الماضي المخبوء

— كيف حصلت عليها ؟ من اعطاكها ؟

— ماذا يهمك ذلك

— يهمني جداً . قل لي كيف حصلت على هذه التعويذة ؟

— لست اقول . بل انت قولي لماذا يهمك امرها . هل تعرفين شيئاً عن تاريخها ؟

— نعم كانت لي تذكار مقدس من امي

— وكيف فقدتها

— تركتها تذكاراً مني لحشاشة قلبي

— من هي حشاشة قلبك

— ابنتي . انت تعلم ان لي حشاشة واحدة . هي ابنتي الوحيدة

— ابن فقدت ابنتك يا مجرمة

فانتفضت نجمة الصبح وقالت : رباه .

هل نصبت ميزان دينونتك في ضميري . رحماك يا يوسف . انت تعلم اني فقدت ابنتي فاخبرني كيف عثرت على هذه الحلية . وهل عثرت عليها مع ابنتي . هل تعرف اين ابنتي ؟ بربك اخبرني عن ابنتي ، رحماك ردّ لي ابنتي . شفقةً ورأفةً . اعطني ابنتي

وجعلت «نجمة الصبح» تصفق خديها كالمجنونة وتقول : بربك يا يوسف اجعني بابنتي ولا تعذب فؤادي . اني اقبل قدميك اذا رددت لي ابنتي

وكادت يغمى عليها من شدة التأثر . فهزّها بين ذراعيه وقال لها : ويحك ياشقية . اين ابنتك ؟ تهملين ابنتك ثم تطالبيني بها ؟ فهل انا حارس لابنتك ؟

فقالت وهي في منتهى التأثر :— ويلاه . ابنتي ابنتي . اين ابنتي . لطالما رأيتها في احلامي صبية جميلة . آه لو اعانقها الآن رحماك يا يوسف اعطني ابنتي وخذ روحي

— لله من جنونك . اين بنتك ياشقية . وما كنت أعهد ان لك بنتاً في قيد الحياة .

— فتنهدت الصعداء وقالت : يا لله أما قالت لك امك اني ولدت بنتاً عندها ، اذ جئت اليها حاملاً وكنت انت متغيباً حينئذ

— نعم قالت لي انك ولدت عندنا بنتاً . وقالت ايضاً انها ماتت

— أما قالت لك اين ماتت ؟

— لا . هل ماتت في فردوس آدم أو في جنة الله ؟ قالت انها ماتت

— والوعتاه . من يدري ان كانت قد ماتت حقيقة . ان خالك علي افندي الرحماني الذي جاء بي الى اختك قال لي انها ماتت

— لا أفهم ما شأن خالي علي الرحماني في هذه الحكاية . جل ما علمته اني لما عدت من الاستانة وجدتك في بيتنا ، فما لبثت ان نزلت في فؤادي كما تنزل الروح في الجسد فلا تخرج منه الا ميتاً . فسألت امي في امرك فقالت انك ارملة صديق لخالي توفي حديثاً فرام خالي ان يعنى بامرك بعده فاودعك عند اخته اي امي وانك ولدت عندنا بنتاً ما لبثت ان ماتت . ثم لما اشتد ولوعي بك هجرتنا من غير ان أدري مصيرك . فهمت على وجهي ابحث عنك في طول الدنيا وعرضها فكنت كمن يفتش بالسراج والفتيلة عن ظله . وكيفما دار والتفت كان ظله وراءه فلا يراه . وما زلت هائماً حتى اليوم . فطويت البلاد طياً وجبت البلاد وطرقت قصور الامراء وابواب الملوك وانا اتذرع الى كل ذي مقام برباية الشاعر المجنون ، فدرست العالم على حسابك ، وخبرت الامم في سبيل الهيام بك ، وبلوت الرجال في عهد حبك ، وضيعت العمر في الجري وراء سرابك ، وفقدت كل رجاء في ثنايا هجرانك . ولكني ظفرت بامنية أخرى املأ بها بقية حياتي وهي ان استخدم قوة حبي لك في تحرير امتي . هذا كل شأني بك ، وهذا كل ما اعرفه عن ابنتك . اعرف انك ولدت بنتاً فما لبثت ان ماتت وانت ارملة فكأنك ما تزوجت ولا حبلت

ولا ولدت . بقيت لي بتولاً . وكأن ماضيك حلم الزمان أو وهم الحدثان . آه يا زينب كم تلوعت بهجرك . وكم قاسيت في يأسي منك . فلا تسليني ابن بنتك. سليني اين ضيعت عمري. هاتي روحي التي ملكتها قبل أن تطالبيني ببنتك . وهل أنا حارس لبنتك . اين بنتك . ماتت بذنبك كما مات رجائي فيك . لقد دفنت سعادتي كما دفنت بنتك . والآن تطالبيني ببنتك وحتى ان اطالبك بسعادتي؟

— ويحك . لم ادفن بنتي بيدي . خالك علي الرحماني أخذها مني اذ كنت مريضة بعد الولادة ولم استطع ارضاعها وقال لي انه اودعها عند مرضع . ثم ما لبث ان عاد يقول لي ان رجلاً غنياً لم يرزق اولاداً يتمنى ان يتبنى بنتي ، ونصحني ان اتنازل له عنها تخفيفاً عني . فكنت اذوب غماً وقهراً لهذا الرأي . فما لبث خالك ان عاد يقول لي ان ابنتي ماتت . وجعل يعزيني ويقول ان السماء خير لها من عذاب الارض ، وان موتها خير لي والا تكون حملاً عليّ وعثرة في سبيل مستقبلي وأنا لم ازل في اول صباي. فاقتنعت بهذا القول وقنعت بتلك التعزية حينئذٍ لأني كنت في حالة يأس لا مثيل لها . ولكن كان انه كلما تقادم العهد احسست بنبضات في قلبي نحو بنتي كأنها حية وكانت في كل مرة تتراءى لي حية وهي في شكل بطابق سنها . فصار يلوح في بالي ان خالك لعب عليّ دوراً وانه باع بنتي لمن تبناها . ومنذ بضع سنين كتبت سراً له كتاباً بامضاء مستعار اسأله عن بنتي ، فاجابني انها ماتت كما اخبرني قبلاً وانه لا يحسن بي ان استسلم للوهم . ولكني بقيت مرتابة . ثم مات خالك وانقطعت كل صلة لي بابنتي . وانما اشتدت هواجسي بشأنها الى ان رأيت الآن هذه الحلية فتراءى لي ان ابنتي لم تزل في قيد الحياة . فبربك يا يوسف ....

وكادت «نجمة الصباح» يغمى عليها من شدة التأثر . فجعل الدرويش يوسف الروحي يؤاسيها الى ان قال لها : قلت لك ان زوجك كان حياً حينئذٍ افما كنت تعلمين اين هو ! ولعل خالي اعطاه البنت ؟

— لا اعتقد ذلك البتة لان زوجي هجرني مكرهاً بحادث غريب فظيع وذهب الى حيث لم يعلم أحد مصيره . ولما رمت ان انطلق منه بحثت عنه فقيل لي انه في الاستانة . ولما شبت الحرب توسلت بجمال باشا ان يبحث عنه فقال لي انه تحقق انه مات جندياً في حرب البلقان

— لعل جمال خدعك بتحقيقه

— ربما كان كذلك فلا يهمني . حسبي اني توصلت الى النتيجة وهي عودة عصمتي لي

— اذاً لم تكوني تحبينه

— احببته جداً في أول الامر حتى سلمته نفسي وكان مخلصاً لي فتزوجني . ولكنه لم يكن قوياً حتى يحتمل عواصف الزمان لاجلي . فلما اضطهدوه بسببي فرّ من امام مضطهديه . وتركني تحت سيف النقمة . فهل تظنني ملاكاً يعبد نذلاً .

فتمرمر يوسف وقال : — ويحه من مذل . من هو هذا الجبان ؟

— لا تقرب الى هذا الموضوع يا يوسف ان هذا الموضوع دفين الماضي . ذلك هو الناووس الذي دفنت فيه زينب : فدع «نجمة الصبح» في استقلالها وحياتها الجديدة

— اذاً لماذا تسأل «نجمة الصبح» عن بنت زينب .

— آه . يا يوسف ان مظاهر الجسد تغيرت أما حقائق الروح فلم تزل اياها . فبالله قل لي اين وجدت هذه الحلية فلعل من اخذتها منه يدري أين ابنتي . رحماك يا يوسف لقد فقدت كل هناء وسعادة ، فلعلي اذا ظفرت بينتي تعود الي سعادتي او بعضها

فصرّ يوسف اسنانه وقال متمرمراً :— تباً لك يا شقية ! ابعد هذا الفجور تبتغين سعادة في غير الموت .

— ويحك لا تكن ظالماً يا يوسف . لم اكن فاجرة .

— سحقاً لك . اما استرزقت من جمالك وحسنك

فسخطت به قائلة : كلا كلا . بل من فني وعلمي . وهبني الله جمال الصوت وتعلمت الموسيقى فعزفت وغنيت في مجالس السيدات الخصوصية حتى استرزق . فهل اموت

— نعم كان يجب ان تموتي

— سحقاً لك . لماذا اموت ؟ وباي ذنب اهلك . الا اني اخلصت الحب

— ان الفتاة المحصنة الشرقية لا ينبغي ان تخرج من خدرها الا الى قبرها

— ويحكم ايها الرجال الظالمون . اذا كان نامي يقذفون بي من خدري الى ساحة دم بلا ثم سوى طاعة الطبيعة والشريعة ، والله يتلقفني من تلك الساحة الدموية لكي اعيش بمواهبي ، فهل أقاوم ارادة الله المحيية لكي اموت في سبيل استعباد الشرق للمرأة . ان الله غفر والبشر ابوا الا الانتقام ، فهل ارفض رحمة الله لكي اخضع لنقمة عبيده . تباً لكم من رجال عتاة ظالمين

فصاح بها يوسف الدرويش : ويحك اما بذلت عرضك جزافاً ؟ اما دنست شرفك مجاناً ؟ اما بحت عفافك خضوعاً لشهوتك ؟ فكفى . كان احرى بك ان تغرقي في ساحة الدم

فسخطت به قائلة : سحقاً لك . هل انت دياني ؟ هل انت القضاء الأزلي حتى تحكم علي ؟ كفى جبروتاً ايها الرجل . وكفى عتواً . «تعفون عن البعوضة وتبلعون الجمل»

— فصاح بها : بلى بلى . ما انا ديانك وانما الاله حي هو القضاء الازلي الذي يحكم عليك . انك ساقطة

— خسئت . لقد خضعت لناموس الحب واذعنت لصوت الطبيعة فما لبث حبيبي ان قادني معه الى تحت وشاح الشريعة . ففقر الله ذنبي .

— اذاً من دانك . وكيف ؟ ولماذا ؟

— دانتني الاخلاق البشرية الفاسدة

وحكمت على المطامع الدنيوية . وقضت على المناظرات العيلية الشريرة . فوقعت بين قوتين ساحقتين من عناد كادتا تسحقانني . فافلت ولجأت الى رحمة الله . اتحدت مع زوجي بوحدة الحب ثم ارتبطت معه برباط الشريعة . فعز على ابي ان استسلم قبل ان يرضى وعز على ابي زوجي ان يتزوج ابنة فتاة غير الفتاة التي يريد ان يجعلها سلماً للعلى . فأبي امر باغتيالي سراً . وابوه طرده . وهكذا فرقنا خصام الوالدين وشتتنا ضعف ذلك الزوج وجبنه ، فانقلب حبي له الى كره . هكذا كان قضاء البشر علي . وهكذا كانت رحمة الله . فماذا يكون حكم حبك ايها الرجل وانت عبد امام الله حقير

فتململ الدرويش وكاد يتمزق غيظاً وقال بصوت اجش : لعنة الله على الروح الشرقية الجديدة التي حلت اربطة القومية المتينة وصارت تضحي بالآداب العربية السامية على مذابح المكايد الشخصية والمفاسد النفسانية . وكيف نجوت من قصاص ابيك العادل

— ان الذي وكل اليه ابي ان يسفك دمي سراً ويخفي اثري كان ارأف من أبي قلباً واقرب الى الرحمن الرحيم رحمةً

فاضطرب يوسف اضطراب المصروع وقال: ويحه من خائن . من هو ؟

— هو خالك علي الرحماني

— خالي ؟ خالي كاتم اسرار الامير محمد نصر الدين الدهري . خالي حقن دمك ؟ واستبقى حياتك ؟

ولطم يوسف جبهته وكاد يقع مغمىً عليه وهي تقول : نعم نعم . خالك

— ويلاه اذاً لم يكذب ظني . فبئساً لك الا تعلمين يازينب ان خطيئة الاميرة اميرة الخطايا؟

— منم ورحمة الله الهة الرحمات . والله يريد ان يرد لي بنتي اثباتاً لرحمته . فقل لي ابن ابنتي ان كنت تعرف اين هي ، او من ابن أخذت هذه الحلية التي كانت عندي الأثر الوحيد من امي وقد تركتها لابنتي اثراً وحيداً مني

— ويحك . وهل تريدين ان تلبسي بنتك ثوب عارك . دعيها في خدر طهارتها مهما كان حقيراً فهو شريف

فامسكت بيده وهزته قائلةً . أين ابنتي يا ظالم . لا ريب انها عندك وانت تمنعها عني

فنفض يدها من يده وصرخ بها قائلاً : لا تمسي يدي ولا تطلبي بنتك قبل ان تطهري نفسك من رجسك

— سحقاً لك من عات

عند ذلك بغتهما ظهور جال باشا بينهما كانه ابليس حضر في ساعة الشر

الفصل الثامن عشر

ماء بارد على نار حامية

اما جمال باشا فكان وهو في ابان ترنحه سكراً ونشوة يحملق فيها غضباً . واما زينب فترنحت جزعاً وكادت تقع هلعاً واكفهرت فرقاً وصارت ترتجف رعدة . واما الدرويش يوسف فكان واقفاً يردّد نظره بينها وبين جمال كأنه لم يحدث حادث ذي بال

بعد هنيهة قال جمال : ماذا تفعلان هنا ايها الشقيان .

اما زينب او نجمة الصبح فازدادت رعدة . واما يوسف الدرويش فقال: جئت لكي أدربها وارشدها .

فرماه جمال بسهم من نظراته لو وقع على أي انسان لحلّ عزيمة حبله الشوكي وقال : تدربها وترشدها ؟

اما يوسف فكأنه الجلمود الذي ترتد عنه السهام مكسرة فاجاب : نعم . لأن لها عملاً خطير الشأن في انشاء المملكة العربية . ونحن في حاجة الى عملها ، وهي تقدر ان تفيدنا فائدة عظمى

فسخط به جمال سخطة تدك جبال الهمم وقال : — اما زلت تهذي . وفي كل مكان وزمان تخرف . وهل لصبر على تخريفك كل حين . ياور . تعال خذه الى السجن

— لست مخرفاً يا سيدي وانما ارى ان وقت العمل قد حان واخاف ان تضيع الفرصة . وهذه المرأة تفيد كثيراً في هذه المهمة

فزجره جمال باشا قائلاً : كفى كفى يا مجنون . الى السجن . الى السجن

— شكراً لك يا سيدي . لقد كنت حائراً لادري اين ابيت الليلة . فلا ارى أهنأ من السجن مبيتاً فشكراً . الى الملتقى غداً . وانما اكرر لك النصح يا سيدي . لا تضع الفرصة السانحة

— الى الملتقى عند المشنقة ايها الشقي

ومضى الياور قائداً يوسف الدرويش وبقي جمال باشا ينظر في نجمة الصبح شزراً الى ان قال : — كيف وصل هذا الى هنا

وكانت زينب او نجمة الصبح لا تزال تضطرب وجلاً فقالت : لا أدري كيف دخل الى هنا الآن . .

— وماذا شأنه

— وقح . مجنون جاء يهذي بالمملكة العربية ويقول انكم دولتكم ملكها

— ولماذا لم تستصرخي احد الياوران

— دخل متوسلاً متضرعاً يريد انا ارجو دولتكم ان تفتشوا الدولة العربية . انه مجنون غير مؤذٍ . فاشفقت عليه ووددت ان اصرفه بسلام

— ولكني سمعت كلاماً آخر وحديثاً غير حديث الهذيان

— فاقشعرّت « نجمة الصبح » خوفاً اذ ادركت ان جلالاً سمع بعض الحديث فقالت : انه يهذي في مواضيع مختلفة

— ولكن يلوح لي ان موضوع المملكة العربية لذّ لك حتى اذنت له ان يتمادى في مواضيع مختلفة

— مولاي يلذّ لي كل حديث تكون نواته انت حتى ولو كان في لسان المجانين. ولا سيما لان الحكم والحقائق كثيراً ما تكون في افواه المجانين

وكانت نجمة الصبح قد ملكت روعها قليلاً اذ جعلت تحس ان جلالاً صار يبرد خلقاً. فقال لها : — دعي هذا الهذيان وادخلي الى خدرك . ما كنت اظن ان دار حريمي تكون ملجأ للمجانين

الفصل التاسع عشر

شفاعة عواطف

كان عثمان بك العدناني في منزله في الصباح الباكر وهو يفكر في الوسائل التي ينبغي ان يتخذها لانقاذ ذلك الزعيم الدمشقي الذي اصبح مديناً له بحياته . وكان كلما مرت الساعات والايام يشعر ان هذا الدين ثقيل على ضميره . وقد عزم على ان يطرق كل باب لاجل هذا الغرض مهما كلفه .

نهض في الصباح الباكر مثقل الرأس بالاحلام والاوهام مع ان طول السهرة في مجلس جمال باشا حبس الكرى تحت طيات اجفانه . ولكن الهواجس لا تدع الأجفان مرقداً مطمئناً للكرى . فنهض باكراً وهو يقول في نفسه . ماذا يمنع ان اتوسل الى شفاعة جمال بنجمة الصبح اذا كان لها هذه المنزلة في فؤاده . ولكن كيف الوصول الى نجمة الصبح

فبما كان يفكر بوسيلة للتوصل الى نجمة الصبح اذ وافاه الخادم يقول له : هنا يا سيدي البيك فتاة مسكينة تلتمس مقابلتك

— من هي . ماذا تريد ؟

— لا اعرفها ولا قالت ماذا تريد سوى التشرف بالمقابلة

— دعها تنتظرني في غرفة المقابلة . في دقائق معدودة اكون هناك

وخرج الخادم وجعل عثمان يرتدي ثوبه العسكري الانيق ويقول في نفسه : ترى ما شأن هذه الفتاة ومن هي . لعلها طالبة احسان أو راجية اذناً باخذ حنطة . تباً لهذه الحرب ما اشنع فظائعها

ثم دخل عثمان الى الغرفة فما وقع نظره

على الفتاة الا احس بخفقة في فؤاده كادت تزلزله من موضعه .

الفتاة في اول ربيع الحياة تناهز الثانية عشرة . قمحية اللون وردية الوجنتين حوراء العينين وقد زاد الخجل خديها احمراراً . ومع ما بدا من وجلها وخجلها بقي بين شفتيها بقية ابتسامة طبيعية . كانت في ازارٍ اسود بسيط وقد رفعت نقابها الاسود عن وجهها كأنها تقابل صديقاً لا غريباً .

فلما دخل عثمان حياها قائلاً : صباح الخير ايتها السيدة المحتشمة

— اسعد الله صباحك يا سعادة البيك

وجلس عثمان وهو يرى شبه دمعات تجول في مآقي الفتاة . بقي ساكتاً والفتاة ساكتة برهة . ثم قال : هل اردت مقابلتي يا اختي

— نعم يا سيدي البيك

— لا ادري ان كنت استطيع ان اخدمك

فقالت الفتاة بصوت خافت وهي تكاد تغص بالكلام : ليس احد سواك يستطيع ان يصنع المعروف الكبير

— اي معروف يا سيدتي تريدين

وتدفقت الدموع من عيني الفتاة وهي تقول : رحمة بشباب ورأفة ب . . . . ولم تعد تستطيع الكلام . فجثت على ركبتيها لديه واسترسلت بالبكاء . فتأثر عثمان شديد التأثر وقال : — اجلسي يا سيدتي واطلبي ما تريدين فاذا كان في وسعي ان البي طلبك فافعل

ونهض واخذ بيدها واجلسها على المقعد وجلس على كرسي لديها وقال تفضلي مري

— مولاي ! لقد قبضت على اناسٍ متهمين ....

— نعم . هل تعرفين احداً منهم

— لا . وانما علمت ان راعياً كان على مقربة من ذلك المكان الذي قبضت فيه عليهم فقبضت عليه خطاء

فاختلج عثمان ثم قال : — هل ذلك الراعي اخوك ؟

— لا وانما هو ملاذي الوحيد اذ ليس لي اخ ولا اب ولا أم

— اذاً ماذا ينتسب اليك ؟

فاطرقت الفتاة ولم تجب وبقيت مسترسلة في البكاء . فقال لها : — لعله زوجك

— لا .

— اذاً ؟

فبقيت الفتاة مطرقة صامتة . فقال لها . لعله سيكون زوجاً

فبقيت مطرقة صامتة . فقال : وهل هو راع حقيقة

— مولاي، غرر به بعض الناس وخدعه. انه بسيط القلب ساذج سليم النية . فالله يرحم شبابك ارحمه . انقذه

— لم اقبض عليه يا سيدتي

— عجباً . كيف . اين هو اذاً

— افلت وهرب من الحارس . له اعوان انقذوه . ثم تركوا الحارس موثقاً مكانه . ولذلك

زج الحارس في السجن بسببه فخطيبك يا سيدتي لم يقع في قبضة الجند

— سيقع اذاً وسيان كان معتقلا او فاراً فهو رهن القضاء فالتمس من رحمتكم ان تستصدروا عفو الباشا عنه

ففكر عثمان برهة ثم قال : — لا ادري ياأختي كيف استطيع ذلك وباي لسان اخاطب الباشا بشأنه وهو فار في حكم الخائن .

— ان دولة الباشا يكرمكم لاجل خدمكم الجليلة فاذا تشفعتم بشخص فلا بد ان يقبل شفاعتكم

— ما اسم خطيبك ياسيدتي ؟

— خليل الرحماني

— من اي بلد هو ؟

— من القدس

— وما اسم حضرتك ؟

— نعيمة الزيفبية

— من القدس طبعاً

— لا بل من حماه

— عجباً ما أبعد الوطنين وما أقرب القلبين . كيف ذلك ؟

— الله يقرب القلوب المتفاهمة يا سيدي

— هنيئاً لقلبيكما يا سيدتي .

وفكر عثمان برهة ثم قال : اني اعدك وعد حرّ اني اهتم بسؤلك ولكني لا اضمن نجاحاً . وانما على كل حال اشور عليك ان تقصدي حرم الباشا « نجمة الصبح » هانم وهي رقيقة الفؤاد فقد تفيدك

— لا أجسر ان اتقدم اليها

— لماذا ؟ انها سيدة عربية لطيفة جداً ورقيقة ولها كرامة عند جال باشا فاذا . قصدت اليها برجائك فلا بد ان تجيب سؤلك

— بل اخاف ان . . .

واكفهرت الفتاة كأنها خافت مصيبة . فقال لها عثمان : ماذا تخافين ؟

— أخاف ان يعلم بي جال باشا فيقبض علي أيضاً

— عجباً لماذا يقبض عليك ؟

— يقبض علي اذ يعلم ان لي صلة بخليل الرحماني . وحينئذٍ لا يدعني حتى اشهد على خليل شهادة تثبت عليه الخيانة . وانا لا أعرف شيئاً . واذا لم اشهد يتهمني بالاشتراك مع خليل . وقد يطلب مني ان ارشده اليه وانا لا أعرف اين مقره

فابتسم عثمان ابتسامة لطيفة وقال : ولماذا لا تخافين مني ما تخافينه من « نجمة الصبح » هانم او من جال باشا

فوجفت الفتاة واكفهر وجهها وقالت : اني مستسلمة لك يا سيدي ، تفعل بي ما تشاء . ان قلبي يحدثني انك لا تفعل شيئاً من هذا

— عجباً . هل تعرفينني من قبل

— لا . وانما الهمني الله ان التجيء اليك فجئت وانا اقول في نفسي : لعل الفرج عند عثمان بك

— ولكن التجاءك مخالف للمعقول .

أما كنت تعلمين اني انا الذي طاردت العصابة وتجسست عليها وقبضت على اعضائها

— نعم كنت اعلم

— اذاً كيف تشقين بي ان اسعى بانقاذ واحد منها ؟

— لا أدري يا سيدي . لما علمت انكم قبضتم على العصابة وعلمت ان خليلاً كان من جملة المقبوض عليهم غلطاً لاح في بالي ان استجير بك . وقد تعاظم هذا الفكر جداً فجئت وانا اقول في نفسي : متى قابلت سعادة عثمان بك ، فاذا أحس قلبي بارتياح اليه توسلت اليه بامري ، والا فاتظاهر بحاجة اخرى

— اني اود ان اثبت لك حسن ظنك بي ولكني لا أدري ان كنت استطيع . فجربي أن تستشفي نجمة الصبح هانم اولاً لنرى ما ذا تقول وماذا تفعل

— عفواً يا سيدي . لا أجسر ان امتثل لديها — عجباً انها مرأة مثلك

— لا ادري ان كانت عطوفة

— جربيها كما جربتني

— أخاف ان اكاشفها بالامر لئلا اسلم نفسي الى القضاء العسكري العنيف .

ففكر عثمان هنيهة ثم وقال : سمعاً

— نعم

— زوريها واطلبي منها امراً آخر . اطلبي مثلا ان تتوسط لك عند جال باشا ان يؤذن لك بمركبة حنطة . فان توسمت منها عطفاً فكاشفيها في الامر

— لا أقدر ان اكاشفها فيه

— لا بأس . اذا صادفت منها عطفاً استأذني منها ان تسمح بمقابلتي مقابلة خاصة . وانا اعرف كيف ادبر الامر معها .

فتنهدت الفتاة وقالت : — نعم . هذا ممكن . قد تتيسر لي فرصة أرجو منها هذا الرجاء ولا ادري ان كانت تجيبه

— تجيبه . ليس ما يمنع ان تجيبه

— اذاً . أتكل على الرحمان

— نعم ولي الامل ان انجح في مسألتك . هل تعرفين الشخص الدمشقي الذي له علاقة بخليل

— من هو ؟ لا اعرف من تعني ؟

— اعني واحداً من أفراد العصابة يلقب نفسه او يرمز عن نفسه بالدمشقي وهو يعرف خليلا . فهل تعرفين هذا الدمشقي ؟

— ما اسمه ؟

— هذا ما اود ان اعلمه منك

— لا اعرف يا سيدي

— تقولين : ليس لك اب ولا ام ولا اخ

— نعم

— اذاً مع من تعيشين

— اعيش الآن وحدي . فقد مات ابي منذ عام تقريباً . وبعد موته علمت ان زوجته ليست امي . وحدث بيني وبينها خلاف على تركة ابي افضى الى تنافر بيننا ثم علمت ان ابي لم يكن ابي الا بالتبني فقط . وهذا سبب الخلاف بيني وبين زوجة ابي لانها رامت ان

تستقل بالتركة باعتبار اني لست ابنة زوجها . وحاولت ان تدحض شرعية بنويتي له

— عجباً . اما ربتك ؟ فكيف لا تعطف عليك ؟

— نعم . وكنت ولا أزال أحبها حب الابنة لامها . ولكن يظهر ان احوال الحرب الاخيرة قست قلوب الناس . فرامت امي ان تستأثر بكل شيء لنفسها

— لله من الطمع وهل تريد ان تتركك للقدر الاعمى

— لا . بل تقول لي انها لا تطردني من منزلها وانما لا تعترف لي بحق من مال ابي

— اما ولدت هي أولاداً

— لا . ولهذا ابي تبنـاني لانه لم يشأ ان يطلقها ولا ان يتزوج سواها بحال من الاحوال

— كان يجب ان تحترم ارادة ذلك الزوج الذي حافظ على عهده المقدس لها

— نعم . وانما لها غرض آخر فيّ لم انلها اياه . وهو انها تريد ان تزوجني لابن اخيها حتى لا يذهب قسم من التركة لشخص غريب عنها . وانا لا أطيق ذلك الفتى لانه بليد خامل كسول لا يريد ان يعمل عملا سوى الشرب واللهو . ولهذا غضبت هي غضباً شديداً . اذ علمت اني اميل الى خليل الرحماني وتغيظت لما علمت اني عاهدته العهد المقدس

— وكيف عرفت خليل الرحماني وهو بعيد عنك كثيراً

— كان بين ابي وابيه معرفة قديمة اذ كان ابي قاطناً في الشام وكان ابو خليل يتردد الى الشام وكان صديقاً حميماً لابي . وبعد ان مات ابو خليل منذ بضع سنين كان خليل يأتي كل مدة بعد اخرى لاشغال تجارية الى حماه فكان يزورنا ومع التمادي تمكنت صداقتنا

وكانت الفتاة تروي هذه الحكاية وهي تتورد حياء وتتلعثم خطاباً . ثم قال عثمان :— اذاً . الا تعرفين عن ابويك الحقيقيين شيئاً ؟

— كلا البتة

— عجباً او ما قالت لك زوجة ابيك شيئاً عنهما

— لا تعلم شيئاً سوى ان زوجها جاءها ذات يوم وانا طفلة في العام الاول من حياتي وقال لها : عليك ان تربي هذه الطفلة وهي بنتي وقد تبنيتها . فسألته من اين لك هذه . فقال : لها لا يهمك ان تعرفي . انت تريدين ولداً لنا فهذه ولد . فقالت له : لماذا لا تأتي بطفل بدل طفلة . فقال هذا ما تيسر فاقنعي بها واسكتي . ويظهر انها ظنت به حينئذٍ سوءاً ولم تر بداً من الاذعان فسكتت

— ان حكايتك يا آنسة غريبة

— نعم وغرابتها تثير اشجاني احياناً

— وهل عرف خليل حكايتك هذه

— عرفها كما عرفها غيره . طبعاً لم تبق امراً مكتوماً

— وهل لم يزل . . .

— نعم لم يغير فكره . وربما كان يعرف حكايتي من قبل . ربما عرفها من ابيه لان اباه

كان صديقاً حميماً لابي ولا بد انه اطلعه على الحقيقة في حينها

— وهل نلت حقك من الميراث

— لم نزل نتقاضى على الارث

— بالطبع خليل يبذل جهده في تحصيل حقك

— خليل لا يبالي حصلت على حقي او لم احصل عليه — عجباً

— خليل لا مطمع له بمالي

فابتسم عثمان وقال في نفسه : اجل ان من ينال هذا الجمال وهذا الادب وهذه الخلال لا تبقى له شهرة لمال . ألا تعرفين من هم اصدقاء خليل الذين هجموا على النفر الذي كان يحرسه وقيدوه ثم حلوا وثاق خليل وأخذوه

— لا أعرفهم يا سيدي . وماذا قال لك الحارس عنهم ؟

— ان ذلك الحارس اصبح كالاخبل كل ساعة يقول كلاماً مناقضاً لكلامه السابق حتى أصبحنا في ريب منه

— وتقول يا سيدي انه سجين

— بالطبع

— مسكين . ما ذنبه ، اذا كان كثيرون قد سطوا عليه وغلبوه

— كان عليه ان يقاتلهم حتى يموت . هذا نظام عسكري

— مسكين انه مظلوم . ليتك يا سيدي تهتم بانقاذه أيضاً

فابتسم عثمان وقال : واظنك تريدين ان ننقذ الجميع لاجل خليل

فتوردت الفتاة خجلاً ثم قالت : الا ترى ياسيدي ان ذاك الجندي مظلوم . لابد انه قاوم جهد طاقته . ولعلهم باغتوه قبل ان يتمكن من النضال . لا ريب انه معذور وفي سجنه مظلوم فارجو ان تبذل جهدك في انقاذه . ان خدمك العظمى للجندية جعلت منزلتك عند الباشا معتبرة جداً . فاذا شفعت لديه قبل شفاعتك . فبالله انقذ هذا المسكين ايضاً

فتبسم عثمان بيك متأثراً وقال : اني يا سيدتي افعل كل ما في وسعي لاجابة رغائبك . لقد أثرت بي عواطفك الشريفة الرقيقة

— اود ان اقدم هدية لذلك الجندي المظلوم . فما السبيل لارسالها اليه

— سأزوره اليوم لأجل خاطرك . فاذا شئت اكون الرسول بينك وبينه

— عفواً يا سيدي . ما اكرم خلقك

— ماذا تريدين ان ترسلي له

— بعض حلويات وبعض ليرات . فلعله في حاجة الى المال .

— شكراً لمكارمك

— اذاً سآتي بالهدية بعد بعض الساعة

— وانا بعد بعض الساعة ازور ذلك المسكين وابلغه عواطفك وادفع اليه هديتك

— شكراً . وانا بعد بعض الساعة امتثل لدى نجمة الصبح هانم والتمس منها ان تتكرم بمقابلتك

— واني اعدك ان ابذل جهدي عندها باستشفاعها بثلاثة

— ثلاثة ؟ من ؟

— خليل . وحارسه السجين . وصديقه الدمشقي — الف الف شكر

ثم ودعته الفتاة نعيمة الزينبية ومضت

الفصل العشرون

الحلية شؤم وفأل

بعد ساعة أو أكثر كان عثمان بك في السجن يخاطب السجين حليم العدني قائلاً : اليك هدية فاخرة يا هذا

— ماذا

— فاكهة واطايب وليرات

— شكراً . ممن ؟

— من خطيبة الفتى الذي وليتك أمر حراسته فسحرك بلسانه وانامك بمغنطيس عينيه وخدعك بدهائه واخضعك بسلطان نفسه فامرك ان تحل وثاقه . ففعلت صاغراً ثم اوثقك مكانه ومضى

— اقسم لك ياسيدي عثمان بك ان غولا من اغوال الانسان او ماردا من مردة الجان باغتنا فصرعني وحل قيد ذلك الفتى ثم قيداني كلاهما وتركاني حتى جاء جنودك فاخذوني كمجرم مع اني وايم الحق . . .

— كفى كفى . لا تحلف . لا ادري كيف أثر ذلك الداهية عليك حتى اطلقت سراحه وجاءت خطيبته اليوم تشكر لك جميلك

— خطيبته ؟

— نعم

— ما اسمها

— اذكر انها قالت ان اسمها نعيمة الزينبية .

— من أي بلد — من حماه

فابرقت عينا حليم العدني وقال .

— عجباً كيف ذلك . هل عاد اليها فتاها

— كلا بل تدعى انها تظن انه مقبوض عليه . وما علمت الا مني انه فر وانك حللت محله . ولهذا ودت أن تكافئك فارسلت اليك هذه الهدايا

— شكراً لها ما أرق فؤادها

— لا ريب ان فؤادها رقيق كفؤاد خطيبها الذي لعب بقلبك وعواطفك وعقلك حتى اقنعك ان تحل محله ياغبي . استغرب ان رجلاً مثلك مرت عليه الايام طوالا فكان يجب ان تخنكه

— ان تخنيك العواطف والقلوب يابني غير تخنيك العقول . فعذراً . اني اكفر بسجني عن ذنبي . وكفى

— وذاك الداهية الخائن يسرح ويمرح الآن .

— اني احل محله فليذل العدل مني

— لا ريب انك تعرف الى اين التجأ

— وحق ال . . .

— صه . مه دع اليمين الكاذبة . وخذ هذه ٥ ليرات اجرة وثاقك وهذه الاطايب والفاكهة زيادة اكرام ورمز شكر .

ونهض عثمان يريد الخروج فقال له الجندي حليم العدني : هل رددت لها الحلية

— اي حلية ولمن ؟

— الحلية المصرية الشكل المعلقة بالسلسلة التي اخذتها من ذلك الفتى الراعي حين اخذت منه ما معه . هذه الحلية عربون عهد بين الفتى والفتاة أو علامة تذكار من الفتاة للفتى .

— من قال لك ذلك ؟

— الفتى قاله . وقد تألم جداً من هذا العمل اكثر مما تألم من ايثاقه وحسبه اعتداء على حقوق القلوب . فهل تريد انت ان يستلب احد منك علامة تذكار من حبيبتك

فتأثر عثمان وقال : لا . ولكني لم اعلم انها كذلك .

— بالطبع لا تعلم لانك لم تمكث مع الفتى دقيقة بل تركته لحراستي ومضيت وبعد ذلك بقي الفتى متألماً لهذا العمل المدلس لهيكل الحب . انت بهت مقدس الحب حين اخذت تلك الحلية من الفتى الراعي . فليتك تردها لخطيبته

فتأثر عثمان جداً ولكنه تظاهر بعدم المبالاة وقال : اذاً كنت وذلك الراعي الخائن تتشاكيان الهوى

— نعم يا بني . لا انتابت النوائب حبك ولا عبثت لوعات الهوى بقلبك

— ثم تقول لي ان غولاً هجم عليك وأوثقك . اظن غول الحب صرعك . فتالله هل اكتشفت في ذلك الفتى علاقة بحبك حتى اطلقت سراحه

— كفى كفى يا سيدي الضابط . اذا لم تصدق مقالي فاقنع بعقابي جزاء ما تطنه من خياني . وانما ارجو منك ان ترد تلك الحلية للفتاة لانها تذكار مقدس من والدتها . فهي حرام عليك . ان استبقيتها معك فقد تكون نغصة لك في حوادث غرامك وشؤماً لك في أيام هواك

— اعدك ايها العم اني سأرد هذه التحفة التذكارية لصاحبتها عملاً بنصحك . وداعاً الآن

وخرج عثمان وهو متأثر مما سمع ورأى وعاد تواً الى منزله وبحث عن الحلية فلم يجدها . فسأل الخدم فأقسموا انهم لم يروها قط . فأقام المنزل واقعده حتى ظهر جده عدنان باشا وقال له : ما بالك تعربد يابني يا عثمان . ماذا حدث

— عندك في المنزل لصوص لا تزال عظيم الثقة بهم ولسوف يسرقون كل نفيس عندك وانت تتشبث بهم

— كيف ذلك

— الحلية الفرعونية مسروقة

— لا لا. لم يسرقها احد

— اذاً — انا وهبتها

— وهبتها

— نعم. لأنها شؤم عندنا لا اريد ان تبقى في هذا المنزل مادامت... مادام الدمشقي ... آه لعنة الله على ذاك الدمشقي ...

وكاد الباشا ينصرع من شدة التأثر. واما عثمان فاشتد غضبه وصاح يملء فيه: لمن وهبتها؟

— لمجنون عسى ان تزيد جنونه

فزعق قائلاً: لمن؟

— دعها. دعها. لا اريد ان تمسها. انها نجاسة

فاستشاط عثمان غيظاً وقال: — ويحك هل تريد ان تسترقني وتستعبد ارادتي لأنك جدي. ان لي شأناً في تلك الحلية. اريدها. لمن اعطيتها؟

— يا بني ... خفف ....

— لا اريد. لا اطيق لا احتمل. لست عبدك. اني حر بشؤوني. دعني سأترك منزلك ومالك ورزقك

وهم عثمان ان يخرج فصاح به جده عدنان باشا: مهلا يا بني. ورفقاً. الحلية عند ذاك الدرويش المجنون

— لماذا؟

— جاء يهنئني بعودتك سالماً ظافراً وانشد ابياتاً حماسية نخرية فرمت ان امنحه منحة كالعادة فلم اجد افضل من تلك المنحة..

فصاح عثمان: ويلاه. تبذلون القلوب كأنكم تبذلون حصى. اما علمت ان نفسي تربط بتلك الحلية بأسلاك عواطف

وخرج عثمان مهيجاً غضباً وحزناً

الفصل الحادى والعشرون

قلبان يتناهبان بالخفاء

كانت نجمة الصبح في ذلك النهار خلافاً لعادتها ترى جو حياتها مكفهراً من جهة وصافياً من جهة أخرى. تحس حيناً بخفقان فؤادها وحيناً بانتعاش نفسها. يعتورها الخوف والاطمئنان متعاقبين. ذلك لأن حديث الدرويش حسن هاج كوامن نفسها وبعث دوافن ماضيها، وتلك الحلية ايقظت في قلبها عاطفة قل ان شعرت بمثلها في حياتها.

كانت نحو الساعة الحادية عشر تدخن نارجيلتها في خدرها الخاص ولديها خادمتها زمردة تذهب وتؤوب حسب اوامرها في قضاء حاجاتها واذ عادت زمردة تقول: هنا فتاة يا سيدتي تلتمس مقابلتك

— فتاة. لعلها تريد اعانة. قولي لها انه

ليس عندي اليوم ما اعطي فقد اعطيت امس كثيراً . اوف يا لهذا الويل الذي يقاسيه بنو الناس . خذي هذا الريال المجيدي واعطيها اياه وقولي لها هذا ما تيسر الآن

فخرجت زمردة وما لبثت ان عادت قائلة: مولاتي . تقول انها في حاجة الى ابتسامة من ثغرك اكثر من ريال من يدك

— لعلها في حاجة الى اكثر من ريال

— تريد ان تأذني لها بمقابلتك خمس دقائق

— دعيها تدخل وانتظري اوامري في الرحبة

وكانت نجمة الصبح لا تزال في بحرانها تفكر بكرازة الدرويش يوسف الى اندخلت وأشعة بهائها تسطع امامها كما يسطع مصباح السيارة امامها . واحست نجمة بومضة كهربائية عبرت في بدنها حين وقع شعاع عيني الفتاة وهي مقبلة على عينيها وقالت في نفسها : بالله ! اساحرة هذه ؟

وتقدمت الفتاة اليها تواً وانحنت وتناولت انامالها وقبلتها . فاشارت نجمة اليها باسمة وقالت اجلسي يا صبية الى جنبي . من أي بلد انت . أمن الشام !

— كلا بل من حماه يامولاتي

— اظن عندكم قمحاً هناك

— نعم من خير مولانا الباشا عندنا . الله ينصر السلطان والدولة

— لعلك في حاجة الى شيء آخر

— نعم ياسيدتي ان حاجة النفس اعظم من حاجة الجسد

— ماذا تحتاج نفسك

— تحتاج الى تعزية لا تجدها الا عندك

— عندي ؟ ما هي ؟

— نعم يا مولاتي عندك . ان قلبي جريح وفي يدك البلسم بل بين شفتيك الشفاء

وكانت الفتاة تتكلم مضطربة مكفهرة ونجمة الصبح تخفق فؤاداً وتشعر بثورة اعصابها فقالت : ما هو جرحك يا عزيزتي

فتنهدت الفتاة والدموع تترقرق في عينيها وقالت : قبض الجند على خطيبي خطاءً وكلمة منك لمولانا الباشا ترد له حريته

— التحقيق يبرئه ياعزيزتي فلا توجعي . ان الديوان العرفي عادل

— لا يقف لدى المجلس العرفي يا سيدتي

— لماذا ؟

— لانه فرّ بعد ان قبضوا عليه

— عجباً . لماذا يفر ؟ ألكي يثبت جرمه؟

— خاف يا مولاتي

— اخطأ بفراره . قولي له ان يسلم نفسه والتحقيق يظهر الخطاء في القبض عليه

— لا ادري اين هو الآن

— عجباً . ولماذا اذاً تتوسطين له

— حتى اذا علم انه عفي عنه اطمأن وعاد

— كيف يعلم ؟

— يقرأ في الجرائد

— ان كلامك مضطرب متناقض يا فتاة ثم تطلبين مني ... ماذا تطلبين ؟

— ارجو ان تتشفعي به لدي مولانا الباشا

— كيف اتشفع به وهو غير موجود ولا يعلم الباشا عنه شيئاً . ثم ان فراره ذنب اعظم من ذنبه . تطلبين مني طلباً لاقبل لي على اجابته. ولو كان خطيبك بريئاً ما فر . لاريب ان خطيبك مذنب خائن : وانا لا استطيع أن اتشفع بخونة يا بنتي.

— مولاتي. ان خطيبي مظلوم مخدوع...

فتبرمت نجمة الصبح وقالت . لا اقدر يا عزيزتي لا اقدر . دعي خطيبك للمقادير . زمردة . هاتي القهوة للهانم

ونهضت الفتاة نعيمة الزينبية من مجلسها وقالت : شكراً لك يا سيدتي . استأذنك

— مهلاً حتى تشربي القهوة

— بقي لي رجاء آخر بسيط يا مولاتي اعتقد انك تجودين به

— ما هو ؟

— ان تسمحي للضابط عثمان بك بمقابلتك

— الضابط عثمان بك ؟ من هو ؟

— اظنك تعرفينه يا سيدتي

— لعله الذي قبض على .... نعم اظنني رأيته مرة منذ عهد قريب . ماذا يريد ؟

— يريد ان يخاطبك في امر يعتقد انه يهمك

— ليس لمثلي ان تقابل الرجال يا هذه

— لمثلك يا سيدتي ان تقابل الملوك فتقابل بعض الناس بطريقة استثنائية . ان عثمان بك يعلم انك صانعة خيراً فيريد ان يشير لك بعمل خيري

— فليأت غداً الساعة الثانية بعد الظهر الى قاعة الحريم

وفيما كانت زمردة داخلة بالقهوة راعها صوت صارخ في الدار يصيح : — ايها النائمون استيقظوا . ايها السكارى اصحوا. ايها الغافلون تنبهوا . لقد دنت الساعة . لقد حان يوم الحساب . لقد حل زمن العمل . انهضوا قوموا . اين انتم

وكان الصوت يضخم ويعظم ويتضح الى ان بدا في الباب الدرويش يوسف . فانهرته نجمة وزجرته قائلة :ويحك . ماهذه القحة والجسارة. كيف تدخل على دار الحريم ؟ الا تعلم ان انت الا تحسب حساباً لعقبى جسارتك هذه . ماذا تريد ؟

— ماجئت الا لكي انبهك الى واجبك ايها الاميرة . لقد قرب الوقت . الساعة قصيرة والقدر رقيب .

ودخل الى الخدر وجلس على الكرسي فسخطت به نجمة الصبح قائلة : لله من قلة حيائك وادبك . استغرب كيف افلت من السجن .

— لقد كنت ضيفاً للباشا والآن انا سجين عندك يا هانم

— حاذر ان تتطرف بالكلام . انسيف النقمة يخطر فوق عنقك . الافضل ان تخرج

بسلام . ان حلم الباشا اطمعك بعفوه فازددت ادلالاً عليه .

— بل ان حلمي زادك طمعاً بعفوي فصرت تسوغين انهاري وزجري .

— الافضل ان تخرج حالاً

— اني خارج . وما دخلت الا لكي اخرج . وما جئت الا قياماً بواجب تذكيرك يا استير . نعم ان سيف مردخاي الملك يلوح فوق الرقاب . والويل اذا أصاب ذلك السيف عنقاً وانت لاهية في بذخك ولهوك . ان الارواح التي برحت تتطلع من شرفات اللانهاية مراقبة عملك فتباركك او تلعنك . ان مفتاح الطريق الى المستقبل في يدك . فالطريق الذي تختطينه يسير الزمان الآني فيه . كفاك نوماً ، كفاك لهواً ، كفاك سهواً . لقد حانت الساعة . مباركة انت او ملعونة

ونهض الدرويش ونجمة لم تستطع ان تضبط اضطرابها فبذلت كل قوتها حتى قالت له : لاريب انك مجنون . لاريب انك مريض . شفاك الله

— شفاك الله من داء جبنك وقوى ضعفك وخرج مسرعاً خروج من به جنة

وكانت زمردة والفتاة نعيمة تكفهران فرقاً لما سمعتا ورأتا . ولما خرج قالت نجمة : اين كان هذا المجنون وكيف دخل . ومن فتح له الباب . اعلم انه في السجن ، فمن اطلق سراحه؟

— اجابت زمردة : لا ريب ان سيدي الباشا اطلق سراحه

— مسكين . مجنون معذور

فقالت نعيمة : نعم مسكين مجنون . كنت اراه احياناً في حماه طائفاً في الشوارع يصيح ويصخب ويعربد على هذا النحو

— احقيق . ماذا كان يقول؟

— كان يقول انه ملك العرب . ويهدد من لا يخضع له والناس يضحكون عليه . واحياناً يكون رائقاً فيتكلم كالفلاسفة والحكماء

— الجنون فنون يا عزيزتي

ولما انتهت نعيمة من شرب القهوة خرجت وهي تشكر لنجمة الصبح لطفها

الفصل الثاني والعشرون

مناجاة القلوب الاثيرية

في الميعاد المعين كان عثمان بك في حضرة نجمة الصبح في مكان المقابلة في دار الحريم حيث اعتادت ان تقابل بعض الرجال احياناً اذا راموا ان يستوسطوها في أمر أو اذا رامت ان تكلف احداً مهمة او ان تغدق على احد نعمة . لانه كان معلوماً ان جمال باشا كان يحبها لجمالها وطربها وأدبها ورجاحة عقلها وكان لها عليه بعض الدالة وبعض النفوذ

استقبلت نجمة الصبح عثمان بيك فتى في اول ربيع الحياة وقد تدفع دم النشاط في عروقه وسلسبيل الحب في قلبه ورقص الحظ بين عينيه وطالع السعد على محياه . عينان سودوان تتقدان ذكاء وخدّان احمران يتلهبان بهجة وثغر يتدفق ابتساماً ؟ فما وسع نجمة الصبح الا ان توسعه ابتساماً من بين شفتيها العندميتين وبشاشة من جميع ملامحها المتهللة . فقالت له : اني اهنئك ياعثمان بيك بفوزك الباهر

فاغضى عثمان قليلاً وتورّد كثيراً ثم قال : اي فوز يا سيدتي ؟

— بقبضك على رجال العصابة

— ليس هذا بالشيء الجليل يا مولاتي

— لو لم يكن جليلاً ما كان الباشا قد عقد حفلة الطرب الشيقة امس الاول ابتهاجاً به . وقد علمت انه عقدها اكراماً لعملك العظيم الشأن .

— ان كان هذا قصد مولاي فقد اعظم شرفي .

— لا بدع ان يفعل ذلك لانه كان مسروراً بعملك سروراً لا يوصف بدليل انه انتدبني للغناء والرقص . وهو لا يفعل ذلك الا اذا كان عظيم السرور وكان المجتمعون من اعز اصدقائه

— الحق يا مولاتي اني لا اغتبط بعملي ولا بنتيجته الا لانه كان سبباً لان امتع نفسي برخيم صوتك الذي ينعش النفوس . والا فما كنت الا كئيب النفس بنتيجة عملي حتى انه كلما مر الزمان على ليلة الامس البهيجة وصار يتلاشى اثرها من نفسي تعظم كآبتي

— عجباً يا عثمان بيك . لماذا ؟

— فتنهد عثمان وقال : اني كئيب جداً ياسيدتي . حتى اني اتمنى لو لم اوجد ولو لم اكن صاحب هذه النصر الذي تهنئينني به ياسيدتي

— عجباً . عجباً . ماذا حدث ؟

— كنت بهذه الحملة الجاسوسية المخزية سبباً في القبض على شخص غدوت مديوناً له بحياتي ، اعم بحياتي وجسدي . لولاه لمزق رجال العصابة لحمي عن عظمي . لولاه كنت اشلاء دفينة في ذلك الكهف . وقد عرض بحياته وبشرفه للخطر لاجلي

— بشرفه ؟ وبحياته ايضاً ؟

— نعم خان عهد اخوانه ومكر بهم حتى يخلصني ولو علموا بانه مكر بهم لكي ينقذني لقتلوه شر قتلة ودنسوا شرفه وداسوا تحت اقدامهم عنقه ورأسه . وهو قد علم ذلك وشعر أنه خان عهد اخوانه لاجلي وانه استحق الهلاك والخزي والتحقير والتمس مني بل تضرع الي ان اقتله او ان احل يديه من الغل حتى يقتل نفسه ولا يشهد بعينيه عاره وخزيه وهوانه .

وكانت نجمة الصبح تسمع حديث عثمان وتدهش وتستغرب وعصبها يقشعر وقالت : كأني بك تروي لي حديثاً عن مروءة العرب ووفائهم وكرم اخلاقهم ونبلهم وهذا أمر لم يرق عندنا منه الا خبره . ترى من هو هذا النبيل

— لا ادري يا مولاتي . الى الآن لم يبح باسمه وسيذهب الى المشنقة ولا يبوح باسمه لانه يود ان يبقى اسمه على الافل غير ملطخ بعاره

— اذاً . بماذا يعرف ؟

— يعرف بالدمشقي فقط لان رجال هذه العصابة كلهم متنكرون لا يعرفون بعضهم بعضاً الا باسماء كهذه : الحلبي البغدادي الحجازي البصري الخ

— اما عرف احد من هم ؟

— بالطبع لابد ان يكونوا معروفين لانهم كلهم كبار العرب ولان المحقق اكتشف اسماء اكثرهم او كلهم . ولكنهم لا يزالون يكتمون هويتهم كأن ذلك من شروط جمعيتهم التي يقدسونها

— ترى ما غرض هذه الجمعية ؟

— لا يبوحون بشيء عن اسرار جمعيتهم وانما هو معلوم ان غرض جمعيتهم انشاء دولة عربية

— دولة عربية ؟ في هذا الوقت العصيب والدولة العلية رازحة تحت عبء الحرب . يا للخيانة ! اما كفى الدولة معاول للهدم من الخارج حتى يقوم زعماء العرب ويقوضونها من الداخل ؟

— اجل انهم لخونة يا سيدتي . ولكنهم خونة سياسيون ، وفي ما سوى ذلك هم نبلاء واذا لم يكن فيهم نبيل الا من انقذني فكفى

— الحق انه لنبيل . ولكنه باي دافع فعل هذا الفعل النبيل حتى انه كاد يضحي بنفسه . او انه ضحى بشرفه لاجلك . مع ان دعوته او جمعيته تسوغ له ان يقتلك

— نعم . هذا هو السر الذي لا ازال اجهله واستغربه . وقد كان ممكناً ان يكون هذا الرجل اول من ينزع فؤادي من صدري لو لم ير معي حلية غريبة كانت لي كالتعويذة وكانت له كالسحر الآخذ بمجامع القلوب فما رأى تلك الحلية معي حتى اضطرب وانقلب غضبه عليّ الى رضى وعطف واشفاق وصار يستلذ ان يفتديني بنفسه . ولما فهمت ما كان من تأثير هذه الحلية بنفسه جعلت احاول ان انتفع بتأثيرها هذا عليه في سبيل انقاذي .

فاختلجت نجمة الصبح وقالت :— يالله . كأنك تروي لي حكاية من حكايات الف ليلة وليلة . فما سر هذه الحلية ؟ وماذا يعلم من امرها ؟

— لم ادر . كأنه يعلم تاريخاً لهذه الحلية ولكنه يكتمه . فسألته ماذا يعرف عنها فأبى ان يجيب

— من اين لك تلك الحلية وما هي

— هي حلية مرصعة بحجار كريمة ترصيعاً يمثل رموزاً مصرية قديمة . وجدتها مع واحد من رجال العصابة وقبضت عليه خارج الكهف واوثقته ووليت جندياً حراسته ولكنه خدع الحارس وفر — وجدت الحلية معه فاغتنمتها ولكني لم اقل للدمشقي اني نهبتها من أحد افراد عصابته لئلا اخسر عطفه . فسألني من اين لي هذه ؟ فقلت له انها هدية تذكار من ذوي

واهلي . فازداد تمسكاً بي وعطفاً علي . ولو قلت له اني نهبتها لقتلني لا محالة . الا تظنين هكذا يا نجمة هانم ؟

اما نجمة الصبح فكانت تنتفض فؤاداً وتذهل عقلاً . فقالت وهي مشتتة البال: نعم . لا ريب

ثم قالت بعد سكوت هنيهة : والحلية ؟ اين هي ؟

— كانت معي حتى امس فعلمت ان جدي وهبها . فتغيظت عظيم الغيظ

— وهبها ؟ لمن ؟

— أتذكرين الدرويش الذي كان في حفلة اول امس ؟

— نعم اعرفه ؟

— ذهب ليهنيء جدي بعودتي سالماً عسى ان يحسن اليه بشيء كعادته . فما كان من جدي الا ان اهداه هذه الحلية

وكانت نجمة الصبح تضطرب مقلة وعصباً وقلباً ونفساً وجسداً وقالت : عجيب ان يفعل جدك كذلك

— لا تعلمين يا مولاتي كم سخطت على جدي بسبب ذلك . ولا سيما لاني اصبحت مديناً لهذه الحلية وذويها ديناً مقدساً

— ديناً مقدساً ؟

— نعم يا مولاتي ديناً مقدساً لانه اثر تذكاري مقدس بين حبيبين . فان الشخص الذي اخذتها منه كان يحتفظ بها كهدية تذكارية من خطيبته . وعلمت انه كان يفضل ان يقتل قتلاً على ان تؤخذ هذه الحلية منه لانها عنده اعز من حياته وهي هدية من خطيبته . وانا اود ان احترم هذه العواطف . والغريب ان الظروف قادت تلك الخطيبة الي وودت ان ارد لها هذه الحلية . فلما بحثت عنها ولم اجدها هاج غضبي

وكانت نجمة الصبح تزداد اضطراباً حتى لاحظ عثمان امرها . وقالت : بالطبع يهيج غضبك . وتقول ان خطيبة الرجل ....

— نعم كانت عندي امس . وهي الفتاة التي زارتك واخذت لي منك موعد هذه المقابلة

هنا لم تعد نجمة الصبح تضبط نفسها فجعلت تنتفض انتفاض المصاب «ببردية» الملاريا وقالت : — ويحك ! اهي الفتاة التي جاءت الي امس ؟

— نعم يا سيدتي . نعم . هل . . . هل ساءك منها تصرف ... هل ...

وكاد عثمان يرتبك لما رآه من اضطراب نجمة فقالت : لا لم تسؤني بشيء

— اذاً لماذا تأثرت يا سيدتي ؟

وكانت مقلتاها تجحظان وقد ازداد اضطرابها فقالت : لان الحلية .... اظن .... الحلية ....

— هل شاهدتها مع الدرويش ؟

— بل اعطانيها

— اعطاكها . اذاً تتكرمين بها . . .

— هل هي هذه !

وأخذت من بين ثوبها وصدرها الحلية

وارتها لعثمان . فقال بلهفة : نعم يا سيدتي . هي هي بعينها . اظنك تتكرمين بها . لاني مديون بها للفتاة

— بل انا اكون مديونة لها بها عندك . بربك ارسل الفتاة الي لكي تأخذها من يدي اني اود ان اضعها في عنقها بيدي . لقد جاءت الفتاة تتشفع بي امس لاجل خطيبها فرددتها خائبة . واليوم بكتني ضميري . فارجو ان تبعثها الي . اين خطيبها ؟

— هارب . والحارس الذي سهل له الهرب معتقل بدله . لم ادر كيف مكر ذاك على هذا فحل الحارس وثاقه وذاك اوثق الحارس وفر . على ان الحارس يزعم ان اشخاصاً او شخصاً باغته وسطا عليه فانقذ ذاك وكلاهما اوثق الجندي وتركاه . ولكن شفاعة الفتاة بالحارس تدل على انها عالمة بمقر خطيبها وهو الذي دفعها للسعي الى طلب العفو عنه وعن الحارس

فبقيت نجمة تفكر كأنها تغزل خيوط الآمال الى ان نبهها عثمان بقوله : عسى ان تجيبي يا سيدتي سؤل الفتاة

— ابذل جهدي

— وهل تتفضلين باجابة سؤلي ايضاً

— ما هو سؤلك ؟

— ان تشفعي بالنبيل الدمشقي

فارتجفت نجمة وقالت : ويلاه . كيف استطيع ان اتشفع بخائن للدولة ؟

فقال عثمان وكأنه يتضرع لخالقه : مولاتي . في ساعة رضى وسرور لايضن عليك الباشا بحياة نبيل . ان لهاتين العينين الساحرتين فعلاً في قلوب الابطال فاستلبهما من غمديهما مرة واحدة في العمر لاجل مرحمة

عند ذلك بغتهما دخول الدرويش فجاءة كأنه الوحي الهابط وصاح : فلتعم عيناك اذا لم تستلي سيف السحر منهما . وليتحول جمالك الى سحنة السلاحف والبوم والبابون اذا كنت لا تسطين بمغنطيسك اليوم . ويحك يا شقية . الميزان منصوب ، والحسام يخطر فوق الاعناق ، والهاوية مفتوحة . فالى متى انت صابرة ؟ هل انت خائفة من الموت يا ميتة . هل انت خائفة من الهلاك يا هالكة . هل انت موجسة من الهوان يا رجسة . هل انت مشفقة بنفسك ان تتسحق يا تعسة . طهري نفسك من دنسها بفدية مقدسة . قومي الظري شعبك تحت يد القضاء الجهنمي يستغيث . قومي اسمعي وطنك يستصرخ قواه ان تنقذه من نقمة شياطينه . القوة في عينيك يا عمياء فافتحيهما . القوة في لسانك يا بكماء فافصحي . القوة في دلالك يا متبذلة فتدللي . ان الدم الذي تسلسلت منه سيقف عموداً احمر امام ضميرك الى الابد ياخائنة . الآن وقتك يا استير عشيقة مردخاي

وخرج الدرويش وترك نجمة الصبح بين يدي عثمان مغمى عليها وهو يعالجها ويقول : يا له من مجنون . كيف جاء الى هنا الآن ؟

اما نجمة الصبح فبعد قليل جعلت تغمض جفنيها وتفتحهما بسرعة وهي تقول : ويلي بنتي . ابي . اخي . زوجي . اهلي

ودخلت زمردة فجزعت اذ رأت سيدتها في هذه الحالة وقالت مرتبكة : سيدي الباشا قادم . الباشا . اخرج من هنا .

وفتحت لعثمان باباً يؤدي الي مخرج خلفي من المنزل . ودخل جمال ودهش اذ رأى نجمة في هذه الحال

الفصل الثالث والعشرون

دهاء حواء على آدم

اما جمال باشا فلما رأى نجمة صريعة واهية تأثر وانهمك وسأل زمردة : ماذا جرى لسيدتك الهانم يا هذه ؟

فقالت زمردة مرتعدة ، لا أدري ياسيدي لا ادري . يظهر لي انها تأثرت من أمر مي ء شديد التأثير فأصابتها نوبة عصبية

فجلس جمال الى جنب « نجمة الصبح » وجعل يؤاسيها قائلاً . ماذا بك ماذا ساءك يا عزيزتي ؟ هل اغضبك امر ؟ لماذا تغضبين ؟ هل تحتاجين الى شيء ؟ هل تنقصك نعمة ؟ هل تحسدين مرأة على نعمة ؟

فتنهدت « نجمة الصبح » ملء صدرها ولم تجب . فسأل جمال : — من كان هنا يا زمردة

— جاء الى هنا الدرويش المجنون وتكلم كلاماً فارغاً وعربد ومضى

فضحك جمال باشا وقال : هل راعك هذا المجنون يا عزيزتي نجمة ؟ اني ابقيت على حياته لكي يسليك بنكاته واضاحيكه . هل قال لك شيئاً يسوؤك . هل فعل فعلاً مشيناً .

ماذا قال ؟ اني اشنقه اذا كان قد اغضبك

فقالت نجمة : اخرجي يا زمردة اعدي القهوة لمولاي الباشا

فخرجت زمردة وهي تعلم ان المراد من هذا الامر ان تخرج وتترك المكان لهما وحدهما . ثم قال الباشا : العل درويش المجنون تنبأ لك نبوآت شريرة

— نعم . تنبأ لي انك ستهلك اهلي وعشيرتي

— اهلك وعشيرتك ؟

— نعم . ان جميع هؤلاء الذين يحاكمهم الديوان العرفي الآن هم اهلي وعشيرتي . اما هم زعماء العرب ؟ اما انا عربية ؟

— ولكنهم خونة . فذنبهم يعاقبهم لا انا . وخيانتهم تحكم عليهم لا الديوان العرفي .

فنظرت نجمة في جمال باشا كأنها تقرأ صفحة في اعماق نفسه ورأت مسحة البشاشة لا تزال تغشي وجهه فشددت نفسها بالرغم من خفقان فؤادها وقالت : ما هي خيانتهم

فأجاب : كانوا يتآمرون ضد الدولة

ورأت نجمة الصبح ان جمالاً يحتمل مناقشتها فتشجعت في الخطاب، وقالت : ما هو موضوع مؤامرتهم ؟

— يسعون الى انشاء دولة عربية . فهل من خيانة اعظم من هذه ؟

— لا ارى في ذلك خيانة . بل بالعكس لا ارى فيه الا خدمة للدولة . فبدلاً من ان تكون تركيا دولة واحدة تكون دولتين متعاضدتين متساندتين متآزرتين تحت سلطة سلطان واحد . فبدل ان تكون الدولة العثمانية تركيا التركية وبعض البلاد العربية ، تكون تركيا كلها والبلاد العربية كلها معها . وبدل ان يكون بعض اطراف العرب خصوم الدولة ومناوئين لها تكون البلاد العربية كلها دولة جامعة كل قوات العرب الشاردة والواردة ومعاهدة دولة الترك على ان تكون مناصرة لها

وكانت نجمة تتكلم وهي تنظر في جمال باشا لترى ماذا يكون تأثير كلامها فيه ، فاذا هو لا يزال يبش ويبتسم كأنه يستلذ هذا الحديث فقال : ان الذين لقنوك هذا الكلام يسعون الى تجزئة الدولة العلية او شقها الى شقين .

فقالت متشجعة : — ليس احد يلقنني . ولكني ارى ما تراه انت ويراه كل واحد . الا ترى انت ان جانباً كبيراً من العرب غير خاضعين للدولة ولا هي مسيطرة عليهم ؟ وفي ابان محنتها الحالية اي حربها التي وضعتها بين الموت والحياة لم تستطع ان تكتسب منهم جندياً واحداً حتى ولا جواداً لا ولا بقرة . بل بالعكس ربما كانوا اعواناً لخصومها . فلو كان العرب مجموعين كلهم في دولة واحدة الآن وهذه الدولة مرتبطة بعهود مقدسة مع الدولة العلية اما كانت صولة الدولة الآن ضعفين

فبالغ جمال في الابتسام وقال : يلوح لي انك من هذه الجمعية يا نجمة

— الاعمال يا سيدي بالنيات . فانا من هذه الجمعية ما دامت هذه نية اعضائها . وما دام هذا قصدهم فلا يعدون خونة بل يعدون امناء واخلص المخلصين .

فقهقه جمال وقال : ليس في اعمالهم ما يبرهن على هذه النية . بل بالعكس والا فلماذا يتآمرون في الخفاء . ان مؤامراتهم السرية تثبت سوء مقاصدهم

— لا يخفى عليك يا سيدي ان عملاً كهذا لا يظن فيه حسناً حتى ينفذ وتظهر نتائجه الحسنة . كانت جمعية الاتحاد والترقي تعد خائنة للدولة حتى فازت فاصبحت تعد منقذة للدولة من السقوط تحت نير الاستبداد . فهم مضطرون ان يسعوا في مسعاهم سراً حتى لا تقف السعايات والنمائم والوشايات في سبيلهم . ولكني علمت ان حسن نيتهم وصلاح قصدهم قد بلغا بهم الى ان يقترحوا عليك يا سيدي ان تكون زعيم هذه الحركة ومؤسس هذه الدولة . وقصدهم من ذلك أولاً ان يكون الاساس وطيداً . وثانياً ان تكون انت بصفة كونك تركياً همزة الوصل بين الدولة العربية والدولة التركية . وثالثاً في هذه الحالة يحسن الترك ظناً في الدولة

العربية وفي العرب انفسهم . فهل يعد أناس هذه نياتهم خونة يستحقون العقاب ؟

فتبسم جمال متهللاً وقال مخفياً ما في ضميره : اظن الدرويش المجنون يوحي اليك هذه السياسة الافاكة . هذه السياسة تخالج ضمائر العقلاء والمجانين على السواء ياسيدي لانها سياسية صالحة ومفيدة لكلتا الامتين التركية والعربية ، وهي الوسيلة الوحيدة لضمانة الثقة والاخلاص المتبادلين بينهما ، والطريقة الوحيدة لتوثيق الرباط بينهما

فقهقه جمال وقال : يلوح لي انك بارعة بالسياسة كما انت بارعة في فن الغناء ياعزيزتي . قالا فضل ان تقتصري على هذا الفن لكي تكوني فيه انبغ موسيقي العرب والترك

ثم نادى زمردة فوافت . فقال لها : — كيف تؤذنين للدرويش يوسف ان يدخل الى هنا . متى كانت دار الحريم مفتوحة للرجال

فقالت زمردة وهي تضطرب فرقاً : — مولاي لو كنت تأمر بشنق هذا الدرويش لكنت تريحنا من شره . لقد اطمعته بحلمك حتى صار كثير الدالة علينا

— لا تدعيه بعد الآن يدخل الى هنا والا عاقبتك معه

ونهض جمال وخرج تاركاً «نجمة الصبح» هادئة روعاً ومستبشرة خيراً لما رأته من بشاشته في حين كانت تكلمه في موضوع يعد عند الترك تجديفاً على وطنيتهم .

القسم الثالث

الديسونة الافاكة

الفصل الرابع والعشرون

مرافعة طيبة في محكمة تمثيلية

في ذلك الحين كان الديوان العرفي معقوداً وكان لا يختلف عن ديوان معقود في ماهى للتمثيل الا بأن هذا يمثل الحقيقة وديوان جمال يحقق التمثيل — ذلك لما كان فيه من الشواذ عن قوانين الاجراآت في المحاكم . فكانت كل حركة فيه تجرى بحسب ارادة القائد العام التي اصبحت لذلك الحين قانون الاجراء وقانون القضاء أيضاً

تألفت المحكمة من بضعة ضباط جلسوا على منصة القضاء في بهو كبير أعد خصيصاً لهذه القضية العظيمة الشأن . وجيء اليه بالمتهمين وهم منقبون بنقب تنكرهم ومعصبون بعصائب

اسمائهم كما عرفهم (القاري)، في الكهف وكما قبض عليهم جنود عثمان بيك العدناني

وقد اعدت منصة خاصة ببعض الصحفيين المختارين خصيصاً لحضور هذه المحاكمة . ومنصة اخرى لبعض كبار الجيش ورجال الحكومة والأعيان ممن لا يتجاوز عددهم البضعة عشر وكلهم مختارون اختياراً لمشاهدة المحاكمة

فهل تختلف محاكمة على هذا النحو عن المحاكمة التمثيلية التي تمثل في دور التمثيل ؟

ولما انعقدت الجلسة قال رئيس المحكمة :

« فتحت الجلسة . بعد ان انتهي التحقيق عن ظروف واحوال الخيانة العظمى التي اتهم بها عدد من كبار العرب المتلبسين بهذه الجريمة رأت المحكمة ان تحاكمهم بصفة كونهم غير معروفين الا اعضاء « بجمعية اخوان العهد » السرية التي تدبر دسيسة هائلة ضد الدولة العلية ، وفي الحالة التي كانوا يجتمعون فيها في كهفهم مكان مؤامرتهم . ذلك لانهم ابوا حتى الآن ان يقولوا عن اسمائهم او أن يبوحوا بشيء عن اسرارهم . ومع ان المحكمة اصبحت واقفة على جلية امرهم ومطلعة على جميع اسرارهم وتعرف اسماءهم كلهم تقريباً فما زالوا يصرون على ان لا هوية لهم غير هوية عضويتهم في جمعيتهم . فهي تحاكمهم بصفة كونهم اعضاء هذه الجمعية بل هي تحاكم الجمعية نفسها برمتها لأن الجريمة منسوبة للجمعية . ولانهم المحكمة هوية الجانين بل تهمها شخصيتهم او ذاتيتهم . فما داموا هنا حاضرين بانفسهم فالمحكمة تحاكم الحاضرين وتحكم على الحاضرين . فعلى المحقق ان يلقي نص الاتهام »

فوقف المحقق نظمي بك وقرأ :

« في السادس عشر من شهر ... سنة ... قبض عثمان بيك العدناني هو وشرذمة من جنوده على افراد من العرب يلقبون انفسهم بالالقاب الآتية : الدمشقي الحلبي الحموي الحمصي الحجازي المعاني العماني اليمني النجدي الحضرموتي العدني التهامي البغدادي البصري الموصلي الحلي اليافي البيروتي الطرابلسي المصري اللبناني الحوراني . قبض عليهم وهم مجتمعون في كهف سري في جبل عجلون عند مكان يدعى آسة الثعلب . وكانوا يتآمرون فيما بينهم على خيانة الدولة العلية والخروج عليها وكانوا مجتمعين متنكرين كما هم الآن . وقد اصروا على ان لا يجاوبوا على اسئلة التحقيق اجوبة تبين شيئاً من هويتهم وجريمتهم . ولكن التحقيقات الاخرى كشفت الغطاء عن حقيقة امرهم وعن مقاصدهم »

ثم قال الرئيس : نسمع الآن مرافعة المدعي العمومي

فوقف احمد بك السيفي المدعي العمومي وقال :

« الدولة هي القوة التي تحرك الامة في حركتها الحيوية . والامة هي الجسم الحي بتلك القوة المتماسك الاجزاء المتعاضد الاعضاء المتوافقة وظائف اعضائه

فالامة جسم حي تام الاعضاء اللازمة لحيويته . جسم ينمو ويلد ويموت

والدولة هي الروح أو المبدأ الحيوي الذي يبث الحياة في تلك الاعضاء بالقوة التي فيه ، اي في هذا المبدأ

وصحة هـذا الجسم وسلامته تتوقفان على قيام اعضائه بوظائفها بكل اجتهـاد واخلاص وحكمة . وكل عضو يقصر في العمل حسب وظيفته أو يعرقله عن العمل يعرض حيـاة الجسم كله للخطر .

ولا يخفى عليكم ان للجسم اعداء خارجة عنه هي الجراثيم المرضيـة أي الميكروبات الخبيثة . تحاول دائماً ان تتغلغل في هذا الجسم لكي تعيش فيه على حسابه وتنازعه حيـاته . وفي هذه الحالة يتعين على كريات الدم البيضاء التي هي جنود الدفاع في الجسم ان تقاتل هذه الميكروبات الخبيثة حتى تهلكها وتنجي الجسم من خطرها

فكل كرية بيضاء تقصر عن هذا الواجب تقع فريسة لهذا الميكروب . وكل عضو يسمح لهذه الميكروبات الخبيثة ان تستعمره يعرض نفسه وسائر الجسم للخطر . وكل جسم لا يعالج هذا العضو الذي استعمرته الميكروبات او يقطعه لكي يفصل العدو عنه يكون معرضاً للخطر

فالكرية البيضاء التي لا تقاتل العدو تعد جندياً خائناً

والعضو الذي يسمح للميكروبات ان تستعمره وتعشش فيه يعد خائناً ويحق للجسم أن يحكم عليه بالقطع

وكل جسم يسهل السبيل لدخول الميكروبات اليه كالجسم الذي يدمن الخمر مثلاً ، والجسم الذي لا يطهر نفسه ولا يغتسل ، والجسم الذي يزج نفسه مع الاجسام المصابة بالامراض الخبيثة — يعد ايضاً خائناً لاعضائه لانه يأتي بالعـدو الى وسط الدار

وكل جسم ينهك نفسه بالاعمال والاشغال فوق الاحتمال وبالسلوك الردىء وبالافراط بكل شيء كالاكل والشرب والبذخ واللهو والبطالة الخ يعد ايضاً خائناً لاعضائه

فاذا كانت الامة كهذا الجسم والدولة هي روح الحيـاة ذات القوة المسيطرة على حركة الجسم . فالجندي الذي هو كالكرية البيضاء اذا قصر في الدفاع او تهاون او تـكاسل عرض الامة للخطر وعد خائناً

والفرد او الجماعة التي تسهل لعدو البلاد الدخول اليها بغية استعمارها او اغتصاب منافعها تعد خائنة لجسم الامة كله

والامة التي تفرط بحياتها الاقتصـادية او تسرف في معيشتها او تخالف قوانين الحياة الاجتماعية والآداب العمومية تعرض جسمها كله للخطر وتعد خائنة

وكل فئـة في الامة تحاول ان تعيش على حساب فئة اخرى تعرض جسم الامـة كله للضعف وتعد خائنة

وكل دولة او كل هيئـة في الدولة تقتصر على خدمة منافعهـا الخصوصية وتغفل خدمة

الامة والعمل لحياتها وسلامتها تعرض الامة للخطر وتكون خائنة للامة ايضاً

وكل هيئة في الدولة او كل فئة في الامة تسهل السبيل لدخول اي عنصر اجنبي واغتصاب منافع البلاد او اختلاس السيطرة فيها تعد خائنة للامة

وكل دولة ترهق الامة بالضرائب والمكوس لكي تبدد المال في ملذات رجالها الاخصاء تعرض الامة للخطر وتكون خائنة

كل دولة تفرط بحقوق شعبها لاجل اغراض خاصة في نفوس حكامها تعرض حياة الامة للخطر وتكون خائنة

وفيما تقدم من الكلام كنت اقدم امثلة على الخيانة . فقد اتضحت الخيانة بكل جلاء. وكما ان العضو الذي يصاب بمكروب خبيث يقطع لانه خطر على الجسم كذلك الخائن يجب ان يقطع من جسم الامة لانه معرضها للخطر .اه

بهذا الكلام انتهت مرافعة المدعي العمومي احمد بك السيفي فقعد . وبعض الحاضرين يقول : عفارم . عفارم

على ان احد المتهمين وقف حينئذٍ وقال: ان حضرة المدعي العمومي لم يثبت اننا من فئة من هذه الفئات الخائنة

فقال الرئيس حسن بك العظيمي : — على المحامي عنكم ان يثبت انكم لستم من فئة من هذه الفئات . وفي الرد على المدافع عنكم يفصل المدعي تهمكم وخيانتكم . من هو المحامي عنهم ؟

فقال المحقق : لم يشاؤوا ان يعينوا محامياً

— عجباً . لماذا ؟

— لانهم يقولون انهم ليسوا مجرمين . وقد اصروا على هذا القول وعلى عدم تعيين محامٍ عنهم من قبلهم

— فهل يريدون ان يدافعوا عن انفسهم؟

ثم وجه الخطاب اليهم قائلاً : هل يريد كل منكم ان يدافع عن نفسه

فقال الدمشقي : لا ندافع لاننا لسنا مجرمين

— ولكنكم متهمون فبرئوا انفسكم

— ليس في وسعنا ان نبرىء انفسنا اذا كانت المحكمة لا ترى براءتنا وقد ....

فصاح به الرئيس : صه . هل تتهم المحكمة بالظلم ؟ .... اذاً يجب ان يعين محامٍ مسخر للدفاع عنهم . تؤجل المحاكمة الى يوم السبت القادم لسماع الدفاع عن المتهمين . ورد المدعي العمومي

فضت الجلسة الآن

وفي الحال أخذ الجنود الحراس المتهمين الى امكنة اعتقالهم وخرج الحضور كلهم يتحدثون بمرافعة المدعي العمومي احمد السيفي ويهنئونه ببراعته ، الى ان تقدم اليه احدهم وقال : بلسماً ليتك نظمت هذه المرافعة شعراً فلم يكن ينقصها الا الوزن والقافية

وكان آخر الى جانبه فقال :— انها خير مقدمة لكتاب في الفلسفة الادبية ، او فصل في علم الطب

وتقدم ثالث وقال . توهمت اني في جامع او في كنيسة اسمع عظة أو في نادٍ اسمع محاضرة ، لافي محكمة اسمع مرافعة

وتقدم رابع وهمس قائلاً : لم أدر ياأخي ، هل ان ترافع ضد هؤلاء المتهمين أو ضد رجال الدولة .

أما السيفي فكان يعرض عن مخاطبيه باسماً بلا جواب

الفصل الخامس والعشرون

خروج الاسرار من الاوتار

نعود الى عثمان بيك العدناني فانه خرج من عند نجمة هانم وهو حيران لتوالي الاسرار امامه وهو لا يدري حقائقها . رأى ان لتلك الحلية سراً عند « نجمة الصبح » لم يفهمه . ورأى من اضطراب « نجمة الصبح » الشديد عند علمها ان هذه الحلية تخص الفتاة خطيبة الراعي ما يشغل البال ويحرك البلبال .

عاد عثمان وهو يراجع تاريخ هذه الحلية وكيف كان تأثيرها على ذلك الدمشقي المتنكر . وكيف تأثر جده وذلك الدمشقي عند ما تقابلا . فعاد الى منزله نواً وهو يفكر تفكيراً عميقاً . وما دخل حتى قيل له ان الفتاة التي جاءته امس عادت وهي تنتظره بفارغ الصبر

فدخل نواً الى البهو وهو يتكلف الابتسام واستقبلته الفتاة وهي تتورّد حياءً وخجلاً ورحب بها مستعطفاً متردداً وحيته متخشعة وديعة ثم قالت : اني أرى في محياك المنير بشارة سعيدة يا سيدي

فتهلل عثمان سروراً كأنه شعر انه يمنح الفتاة سعادة حقيقية وقال: نعم . تنتظر « نجمة الصبح » هانم امتثالك لديها . وهي على استعداد تام لخدمتك . فقابليها وثم اخبريني ماذا يكون من امرها اذا شئت . وانا ابقى رهين امرك ووقفاً على خدمتك

— شكراً جزيلاً ياسيدي . وهل ذكرت لها ذلك الحارس السجين . مسكين انه بريء مظلوم .

— ان نجمة هانم تفتح لك صدرها الرحيب فاطلبي منها ما ترومين

— شكراً عظيماً لك ولها يا سيدي . سأذهب لمقابلتها الآن

— ولي الامل ان تتفضلي بمقابلتي بعدئذٍ اذا لم يكن ثمت من مانع

— لا غنى لي عن معونتك ومشورتك يا سيدي . بالطبع سأعود لمقابلتك

وخرجت الفتاة مودعة

* * *

اما عثمان بيك فبعد ان تبعها الى خارج الدار عاد تواً الى حجرة جده حيث يجلس هذا فيدخن نارجيلته ويقرأ بعض الصحف ويستقبل بعض اصدقائه المسنين . وجلس وقال : لي ياجداه معك حديث ذو شأن ولا بد من ان تصدقني فيه القول حتى لا تسوء العلاقة بيني وبينك

فنظر الشيخ الباشا في حفيده متجهماً وقال : ماذا يا بني ؟

— قبل الخوض في الموضوع ارجو منك ان تفهم أمراً وتثق فيما اقول . اني مدين لك بتربيتي واني مستعد لايفاء هذا الدين . ولكن تربيتك لي لا توجب علي ان اكون عبدك الى الابد

— كلا يابني . لقد اصبحت رجلاً وانت حر . اذا شئت ان تتركني في آخر ايامي ....

فسخط به عثمان قائلاً : لست هذا اعني . وانما اعني انه اذا كنت تصر على كتمان ما اسألك عنه فاني اتركك ولا اريك وجهي وانما اوفيك دينك عليّ ثمن تربيتك لي . اوفيك من نتيجة عملي وان كنت لست ملزماً بهذا الدين لأنك احد اسباب وجودي وما كلفتك ان تكون كذلك

فاجهش الشيخ الباشا بالبكاء وقال : يابني . ما الداعي لهذا الكلام ؟ وهل بدا لك مني أمر يريبك فيّ ؟

— نعم انك تكتم عني اموراً يجب ان اعلمها . الى الآن لم اعرف الحقيقة عن ابويّ . تقول لي ان امي يئست هجرها ابي ثم ماتت وكان لي خال فهجرك ايضاً لأنه رام ان يستقل بفكره ورأيه وكان لي خال آخر فنشز عن الطريق السوي وقتل وبقيت اخيراً لك وحدي . اسألك من كان ابي فتراوغ من طريق هذا السؤال . وقد لقبتني بالعدناني نسبة اليك فلا بأس وكرهاً لاسم ابي فلماذا ؟ من كان ابي ؟ فلا تقول لي

— قلت لك كان اسمه سيف الدين

— سيف الدين ماذا

— احمد سيف الدين

— ولكن ابن من هو ومن اهله وعشيرته

— قلت لك ان اهله من عشيرة عربية . كنت اظنها شريفة فاذا بها منحطة . فانخدعت بأبيك وجافيته فهجرنا

— من اي بلد هو ؟

— قال انه من البلقاء ولكن بعد ذلك علمت انه ليس منها ولم اعرف اصله وفصله .

— اين ذهب . واين هو الآن ؟

— اقسم لك يابني اني لا اعرف شيئاً عنه الآن ولا ادري ان كان حياً او ميتاً . فالافضل ان تقتصر عن حديث عقيم كهذا لا فائدة لك فيه ولا يهمك ولكنه يؤلمني

— ولماذا هجرك خالي

— اوه . لا تصدع رأس يا بني بحديث شجن قديم . كفى ما بي من غموم . انخالك عصى اوامري وداس ارادتي ودنس اسمي . آه دعني من خالك . انى سيء الحظ من

أولادي فهل تريد ان تكون خاتمة سوء حظي

وكان الشيخ شديد التألم من هذا الحديث حتى كاد عثمان يرق له . فامهله هنيهة ثم قال :— لماذا اهديت الحلية المصرية النقوش لذلك الدرويش . اما وجدت عندك شيئاً آخر تهديه؟ لماذا لم تعطه ليرتين او اكثر

فتأثر عدنان باشا شديد التأثر وقال : اما كفى ما عاتبتني من هذا القبيل ؟ سأستعيدها من الدرويش

— لست هذا ما اقصده . وانما اود ان افهم السبب . لماذا فرّطت بالحلية وانت تعلم انها تذكار ثمين عندي

فتململ الباشا وقال : ما فهمت انها ذات اهمية عندك . ولماذا تحتفظ بحلية كهذه تعد سليبة

— لأنها كانت سبب انقاذي من ايدي اعدائي

فاضطرب الباشا عظيم الاضطراب وقال : كفى كفى يا بني لا تذكرني

وغطى الباشا عينيه كأنه لا يريد ان يرى ولا ان يسمع . فازداد بلبال عثمان وقال : هذا كل ما اريد ان اعلمه . وهو حقيقة علاقتك بالدمشقي الذي انقذني . تقول انها علاقة مؤلمة جداً . فاود ان اعلمها

— ويحك لا تحرك اشجاني

— يجب ان اعرفها . اذا لم تخبرني كل كل سر من اسرارك هجرتك هجراً أبدياً . لاني لا أريد ان أحيا حياة محفوفة بالاسرار . اريد ان تقول لي الآن كل شيء والا سافرت الي الابدية وهو سفر خير من بقاء في وسط مجهول . فمن هو ذلك الدمشقي وما علاقتك به

— يا بني ؟ ....

— لا تحاول ان تستعطفني ولا تراوغ في الاجابة على اسئلتي . اجبني حالاً والا فاني مرتكب كل منكر . لقد كاد تكتمك يخرجني من صوابي ، لا أريد ان اكون آلة في يد هوسك وعنادك

فانتفض الباشا وهاج وقال: انك لمحرجي يا بني ان افتح سفراً مختوماً بختم الآثام والذنوب ، وابسط لك صفحات مسودة بسواد الفواجع والكوارث والمصائب . فلا تزد آلامي وآثامي

فصاح عثمان : اذاً . اتريد ان تورثني آلامك وآثامك وانا اجهل كيف اسكنها واعالجها . يجب ان تفتح ذلك السفر المختوم

فتململ الباشا ثم قال : اسمع اذن واحكم واقض علي اولي . فقد آن زمن الدينونات وميزان القضاء منصوب . ولكن العدل بعيد عن ساحة هذا القضاء . فاسمع يا بني

— اني سامع واني لأعاملك بالحلم والرأفة ان كنت مذنباً واعذرك جيل العذر ان كنت معذوراً

— اني والله يا بني لبريء . وانما الكبرياء والغرور هما المذنبان . ولكنهما لا يعاقبان . ولات حين عقاب . فاسمع : كان لي ابنان حليم وسليم وابنة هي امك سلمى . وقد علمتها

وانا اضع نصب عيني ان ابلغهما الى مناصب الحكومة العالية لان لي غراماً بهذه المناصب لما فيها من النفوذ كما لا يخفى عليك . وانا غني ذو مال وفر . والمال لا يمنح بنفسه نفوذاً لصاحبه وانما يشتري له النفوذ . فكنت ابذر المال بذراً حتى رقيت سليماً الى بعض المناصب . ولكن لا سليم ولا حليم كانا يرويان غلتي من هذا القبيل . فطمعت انا بمنصب وال وسعيت اليه جهد طاقتي فلم انل المنصب . واخيراً اشار علي سليم ابني ان اقترب من احد صدور الدولة العظام — وكان حينئذٍ في دست الوزارة — بانتساب منه . فقدمت اليه ابني سليماً وحليماً على امل ان يختار احدهما عريساً لابنته وجعلت احدى الهوانم الداهيات وسيطة في المسألة

وكان عثمان يسمع الحديث وهو كأنه يسمع قصة خيالية لانه لم يعرف ان كانت لجده مطامع كهذه . فقال : واظنها لم تنجح

— بل بالعكس نجحت كل النجاح ونال حليم رضى الصدر وحب بنته وامها

— اذاً ؟

— في الوقت نفسه كانت تحدث حوادث خفية عني لا اعلم بها وهي تهدم ما ابنيه من الاساس لذاك المجد الشامخ

— ماذا حدث ؟

— في ذلك الحين كانت امك سلمى زوجة لابيك ولكنها كانت عندي لان ابا زوجها لم يكن راضياً كل الرضى عن ابنه . واتفق ان عمتك اخت ابيك كانت تتردد الينا بدعوى انها تسعى في تحسين العلائق بين ابيها واخيها وزوجة اخيها لان اخاها زوج بنتي . أي ان اباك كان يقضي معظم الوقت عندنا ملازماً لزوجته . وكان يجتمع ابنى حليم خالك بعمتك . ولما ورد الينا الخبر ان الصدر الاعظم رضى ان يكون حليم صهراً له وكان الفرح عندي عظيماً جداً لاني ضمنت السلم الى اعالي المجد — اكتشفت حينئذٍ امراً هائلا يسد باب الطريق الى ذلك المجد ويكسر السلم الذي أرقى اليه ويضعضع كل آمالي واماني .

— ماذا اكتشفت ؟

— اكتشفت ان ابنى حليم خالك متزوج عمتك زينب سراً . ففضبت غضباً شديداً . وامرته ان يطلقها في الحال لئلا يذهب نجاح المسعى ضياعاً . فقال انه لا يستطيع ان يطلقها .

فقال عثمان: قد يعذر . ولكن ماعذره ؟

— قال انه تمادى معها قبل ان يتزوجها وصار يشعر انه مديناً لها بالزواج . ولكي يطمئن بالها اضطر ان يتزوجها سراً ريثما ينال رضى ابيها . وكان حينئذٍ ساعياً في استرضاء ابيها من غير ان يدعه يعلم بما حدث حتى متى اعلن ابوها رضاه تزوجها علناً من غير ان يدع اباها يعلم بما كان .

فقال عثمان وقلبه يخفق ثائراً — انه كان معذوراً ياجدي

— نعم . ولكن نحن كنا نؤسس لمجد ياذخ وخالك يهدم يابني

— لا ريب انه احب عمتي حباً جماً ياجدي فهو معذور

— ولكن الانسان العاقل لا يدع قلبه يقف في سبيل مجده . فالحجت عليه ان يطلقها مهما يكن الامر

— ويحك يطلقها ويدعها ثيباً بعد ان استسلمت . وربما كانت . . . .

— نعم . هنا المصيبة . كانت على وشك ان تصير اماً

— اذاً كيف يطلقها وابوها لم يعلم بعد بزواجها ؟ الا يعد خائناً لها ؟

— نعم . كانت المصيبة عظيمة ولكن المصلحة تقضي بتضحية

— يالله . اتضحون ببنات الناس لاجل مصلحتكم ؟

— البنت ضحت بنفسها لانها كانت بالغة سن الرشد

— ولكنها صارت زوجة ابنك . فهل كان من مانع ان يتزوج خالي حليم ثانية

— لو تزوج بنت الصدر الاعظم ثم علم الصدر ان له زوجة اولى ولو سراً لاعدمه الحياة

— ربما كان ذا حق . اذاً لقد جنت على نفسها براقش

— نعم لقد جنى ذلك المجنون عليّ فخرت في امري . وحاولت طرد الفتاة من عندي . ولكن ابا ها علم بالامر وغضب غضباً شديداً لامزيد عليه . وحاولت ان استرضيه وان اقنعه بان اعوض على بنته بمبلغ وفر على ان يطلقها حليم . فكان ذلك الرجل كالمجنون لا يطيق ان يسمع هذا الكلام ولا ذاك . بل طلب بنته من غير قيد ولا شرط فارسلناها اليه . وثم اختفت من الوجود

فانتفض عثمان وقال : ويحكم ماذا جرى بها ؟

— بالطبع دهورها ابوها . وقيل لنا بعدئذ انه اوعز الى كاتب عنده ان يأخذها الى مكان منفرد ويقتلها ويدفنها

— ويحه من ظالم قاس . لماذا فعل هكذا ؟

— لانه لم يرد ان يصاهرنا . وهذا مازاد طينتي بلة . نحن نسعى ان نصاهر الصدور العظام . وبعض عرب البداة يشمخون علينا ويأبون ان يصاهرونا . هذه نتائج جناية خالك حليم . ضيع بسببه حياة فتاة ، وضيع علينا وسيلة للارتقاء الى اعلى ذري المجد . افلا يحق لي ان اغتم كل حياتي .

وكان عثمان يسمع هذا الحديث مدهوشاً فقال : ثم ماذا جرى بعد قتل الفتاة

— صار خالك كالمجنون لانه كان يحبها .

وقد اشتد غضبي عليه حتى اني لم اعد اطيق وجوده ، لشدة استيائي من حميه . فما لبث ان اختفى من الوجود . فبحثنا عنه فلم نجده . ثم قيل لنا انه سافر الى الاستانة . فاطمأنت بعض الاطمئنان عليه مع شدة استيائي منه وغضبي عليه . ولم اعد اسأل عنه

— وماذا كان من امر ابي

— أما ابوك فغضب عليه ابوه لانه اعتقد ان مصاهرته لي بالرغم من ارادته كانت سبباً

لحدوث الفضيحة التي حدثت لبنته وسخط عليه سخطاً شديداً . وانا أيضاً لما وجدت نفسي قد خسرت كل آمالي وضيعت ابني أيضاً لسبت ذلك الى مصاهرة ابيك . وفي ابان غيظي سخطت عليه فهجرنا ومضى ونحن لا ندري الى اين مضى . وقيل لنا انه ذهب الى الاستانة ايضاً

— اذاً لم يمت ابي كما قلت لي

— كان كأنه في حكم الميت اذ انقطعت اخباره وما لبثت امك ان ماتت لشدة غمها . ثم استعلمت عن ابيك بعد حين فقيل لي انه مات . ولم يبق الا ابني سليم فلم يعد بعد ذلك الحادث يجد حظاً ولا سيما لان الصدر الاعظم الذي كنا نؤمل ان يرقيه لما علم بحكايتنا من الوشاة واهل السعايات امتعض وتبرم علينا وجافانا ولم يعد يجاملنا قط . ولما حدث الانقلاب العثماني كان نصيب ابني سليم من الاتحاديين النقمة فقتلوه لانه كان مخلصاً للسلطان . فترى ان حياتنا السياسية كانت نحساً بنحس . وما بقي لي يا بني الا انت اتعزي به وانت تهددني الآن بالهجران ايضاً

— أتأسف يا جدي انك ضحيت ببنتك لاجل مطامع وهمية . ماذا كنت تجني من مناصب الدولة ؟

— النفوذ يا بني . الدنيا بلا نفوذ عدم بل موت

— وما حاجتك بالنفوذ السياسي وانت ذو مال تنفق بسخاء . حسبك ان تعيش وبنوك في رفاهة ورخاء بل في ترف

— هذا الكلام لا يصح في بلادنا يا بني . هذا كلام مفيد في اوروبا وفي اميركا . واما في تركيا فالمال بلا نفوذ سياسي يتضعضع حالاً . السياسة نفسها تقرضه والسياسة وحدها تحميه ولهذا اقرض مالي كله او جله لاني لم استطع ان اقبض على النفوذ السياسي

فتبرم عثمان وقال : تباً لنفوذكم وسياستكم كدتم تضيعون الدولة والمملكة بهذه السخائف والسفاسف

— لا تقل هكذا يا بني . انما الدولة بما فيها من النفوذ وبما فيها من الافراد النافذين

— سحقاً لكم ولنفوذكم . ما معنى هذا النفوذ الذي تستخدمونه في سبيل نكاية بعضكم لبعض وتدعون مصالح الدولة ومرافق الامة تأول الى الدمار والخراب

— ربما كان الامر كما تقول يا بني ولكن مادام النفوذ في الدولة اصبح موضوع تناول كبارها فاذا لم تنازعهم فيه كنت عرضة لان تداس تحت اقدام هذا النفوذ .

فسخط عثمان وقال : اوف . لله من افكارهم الدنيئة . دعني من احاديث دولتكم البائدة . ان دولة هذا العصر ستقوم على اساس غير ما يقيم عليه . لنعد الى قصتنا التي اثارت كوامن نفسي وانشأت في كآبة لا تزول . واخبرني من كان ابو ابي

— هو هذا الدمشقي الخائن الذي قبضت

عليه وتريد الآن ان تنقذه . هو هذا الذي كان بانفته الفارغة وكبريائه الثقيلة سبب هجران ابي وتداعي مجدي

فانتفض عثمان وقال : ويحك . تريد ان تقول لي ان الدمشقي جدي الاول

فارتعد عدنان باشا وقال : نعم يا بني ولكني انا جدك الثاني الذي ربك وهذبك واعد لك المستقبل الباهر

— كل هذا لا يخولك الحق ان تفصلني عن والد ابي . لا يسوغ لك ان تحرجني ان ادفع بابي ابي الى الردى فقل لي من هو جدي الدمشقي

فارتجف عدنان باشا وقال : رفقاً بنفسك يا بني . لا تتصل به وهو ملوث بخيانة . اخاف عليك من انتسابك اليه .

فصاح به عثمان وهو ينتفض تأثراً وقال : قل من هو جدي هذا . ويحك قتلت امي ثم ابي ثم تقتل جدي . قل من هو جدي هذا والا اصطحبتك معي الى امام وجه الديان العادل الآن . قل .

فجزع عدنان باشا اذ رأى حفيده في حالة تهيج عظيم يكاد يتحول الى جنون وقال : لا تغضب يا بني . انه الامير محمد نصر الدين الدهري

فبهت عثمان واعتراه مثل ذهول وبقي برهة صامتاً يجيل نظره هنا وهنالك وهو يحملق كالضبع . ثم قال عابساً بجده الباشا ؟ الامير محمد نصر الدين الدهري جدي ؟

— نعم يا بني وهو جد ظالم قتل بنته لانها تزوجت ابي وكان لا يريد ان يصاهرني وكاد يقتل ابيك لهذا السبب

— ليته قتلكم كلكم ولا دنس شرفه برجس نفوسكم . أتعتب على الامير محمد نصر الدين الدهري لانه قتل بنته التي اعتدى على شرفها ابنك ؟ سلمت تلك اليد وشلت يدك يا من استحللت ان تطرد تلك الفتاة التي خدعها ابنك واغتصب عرضها ودنس طهارتها . بالطبع يقتل ذلك العربي السليل المجيد بنته لانها خانت ارادة ابيها واستسلمت لابن شخص سافل النفس دنيء القلب يدفع بها له وبنيه الى حمأة الظلم والاستبداد لكي يشاركوا المستبدين باستبدادهم والظلام بظلمهم . نعم ان ذلك الشريف العربي يضن بعرض بنته ان يدنسه ابن حقير مثلك ورث مالاً مجموعاً بالظلم ثم رام ان يشتري به آلة الظلم التي تسميها انت « النفوذ السياسي » . اين انت يا من اشترى رتبة الباشا بمئات الجديات ؟ اين انت من ذلك الامير العربي الذي تسلسل من بيت المجد . تباً لك من رجل خسيس ! سحقاً لك من مخلوق دنيء : اني انتسب الى ذلك المجد وتنكر علي انتسابي يا مذبذق ثم تمنعني ان انقذ ذلك المجد من بين براثن الظلم ؟

واعمل عثمان كفيه بشعر رأسه تفتتاً من الغيظ والحنق وصاح : جداه جداه . اني ماض اليك لكي اشنق معك واكتسب شرف الموت لاجل الحرص على حرية الوطن واستقلال العشيرة . اني اخر ان اموت الى جنبك فأكون

حجراً من احجار الدولة العربيـة . لبيك يا جداه . لبيك يا نصر الدين الدهري

واتجه عثمان نحو الباب يريد الخروج فصاح به عدنان باشا : ويحك . لا تكن جائر الحكم علي يا ولدي . اقتلني قبل ان تمضي فكفاني عذاباً — عذاب تشتيت الشمل وضياع البنين وتبكيت الضمير

— نعم انم . مت كمداً فلا تستطيع ان تفرح تشفياً بضحايا الوطن . مت كمداً يا خائن الملة . لبيك ياجدي الدهري العربي الصميم

ثم انطلق عثمان من الباب كالمجنون الهائم على وجهه

الفصل السادس والعشرون

تصادم الفؤادين

في ذلك النهار كانت نجمة الصبح في بحران والافكار تطوف بها من منطقة الى منطقه في الكون وتتردد بها من عصر الى عصر ومن عهد الى عهد وسماء الماضي تكر امام مخيلتها عكساً وطرداً . فتارة تعبس مكتئبة وطوراً تهلل مغتبطة وحيناً تكفهر وجلة حسبما تؤثر تلك التصورات والافكار في نفسها الى ان نبهها عزف الربابة — ربابة درويشها يوسف . فانتفضت جازعة وما شعرت الا انها واقفة على قدميها كأنها تريد ان تتبين ذلك النغم الشجي والجهة التي يرد منها والمعنى الذي في الفاظ النشيد . فاذا الدرويش تحت شرفة خدرها اي في الفسحة التي تطل عليها شرفتها . فخرجت الى الايوان المحجوب بشعرية من الخشب المزخرف واصغت فاذا يوسف الدرويش ينشد :

هيا الى الديان الناصب الميزان

هل تبصر الاعرابا ببلادهم اغرابا
ورؤوسهم اذنابا وخصومهم احبابا

هيا الى الديان الناصب الميزان

قم واعتبر يا صاح واكسر كؤوس الراح
الوقت وقت نواح نشوانه كالصاحي

هيا الى الديان الناصب الميزان

انظر دماء المجد صبغت حجار اللحد
ان ديس حق العهد ذلت نفوس الولد

هيا الى الديان الناصب الميزان

ما قامت الاقوام ورجالها اغنام
ونساؤها اصنام وقلوبهن غرام

هيا الى الديان الناصب الميزان

ماقام امر بالشعب باللهو او بالحب
كلاّ ولا بالشرب بل بالوغى والحرب

هيا الى الديان الناصب الميزان

وكانت نجمة الصبح تسمع هذا النشيد وفؤادها ينتفض في قفص صدرها كالعصفور الذي قرصه الزمهرير . وما كاد ينتهي النشيد حتى دخلت زمردة قائلة : مولاتي . فتاة الامس

فاختلج بدن نجمة كله والتفتت مبغوتة . وقالت : مالها ؟

— عادت تلحف في طلب مقابلتك

— ويحك ماذا قلت لها

— قلت لها ان سيدتي مريضة الآن

— تباً لك

— مولاتي اني شاعرة بغمك واريد ان اخفف ثقالة الناس عنك

فصاحت بها : سحقاً لك . ما شأنك انت . استدعي الفتاة الى هنا حالاً . اني في انتظارها . اين هي ؟

— لم تشأ ان تخرج بل تلحف بطلب الامتثال

— استدعيها حالاً

وعادت زمردة وبقيت نجمة وقلبها يخفق . وما هي الا هنيهة حتى دخلت الفتاة ووجنتاها تتلهبان لشدة اضطرابها فاستقبلتها نجمة باسمة وصافحتها وكادت تضمها الى صدرها لولا ان منعها فكرة ان هذه الضمة قد تفضي الى ريب وشكوك فاجلستها الى جنبها وقالت :

اظنك خرجت امس من عندي يائسة

— بالعكس ياسيدتي اني قرأت في محياك كتاباً من الامل والرجاء

— ولكنك تعلمين يا عزيزتي ان من تتشفعين به مجرم . فلا أدري كيف تنتظرين مني ان انجح في الشفاعة به . ولا يخفى عليك ان دولة الباشا حريص على تنفيذ القوانين العسكرية حرصه على سلامة الدولة . فلا ادري ماذا اقول له وكيف اتزجاه وبأي حجة اشفع التماسي منه

فاكفهرت الفتاة نعيمة اذ دب اليأس في فؤادها ولكنها لم تيأس من رحمة الله فقالت وعيناها تغرورقان : سيدتي . لك ان تقنعي دولة الباشا ان خطيبي لم يكن بين المتهمين وقد القوا القبض عليه بمجرد الشبهة فهو متهم خطاء

— ولكني اخاف ان التحقيق يثبت عليه التهمة

— مولاتي ان الشاهد الذي يعتمد على شهادته في هذه المسألة هو عثمان بك وهو سيقول اذا سئل انه قبض عليه لمجرد اشتباه به فقط

— ولكن هربه صعب المسألة يا بنية

فما كان من نعيمه الا ان جثت عند قدمي نجمة الصبح . فقالت مولاتي : في ساعة الرضى تستطيعين ان تؤثري على دولة الباشا

وتقنعيه بما تريدين . بربك انقذي حياة بريئة والله يحسب لك اجراً عظيماً

واخذت نعيمة تريد ان تقبل قدمي نجمة الصبح فامسكتها هذه بيدها وانهضتها قائلة لا تفعلي هكذا يا بنيتي

وتنهدت نجمة الصبح من اعماق احشائها ثم قالت : ابن هو خطيبك الآن ؟

— هارب يا سيدتي

فابتسمت نجمة وهي تحاول كتم اضطرابها وقالت : لابد انك تعرفين اين مقره

فاكفهرّت الفتاة وقالت : رحماك ياسيدتي رحماك ... لا أجسر ...

— لا تخافي . قولي

— رأفة يا سيدتي . رأفة . لا أقدر ان اقول لاني غير واثقة انه يوجد حيث اقول

— يلوح لي انك تحاذرين مني

— عفواً ياسيدتي . ان لي بك كل الثقة . ولكن ...

— ما ذا ؟ لا تخافي . قولي كل شيء وثقي اني لا استعمل معلوماتي لأذى احد

— مولاتي . اعذريني

— لا تخافي يا بنيتي . ثقي اني اصدقك القول .

— اني واثقة بصدقك يا مولاتي وانما اخاف العقبى عند غيرك .

— اذاً تعرفين . اين مقر خطيبك ؟

وعادت الفتاة فجثت عند قدمي نجمة الصبح وهي تجهش بالبكاء وقالت: نعم ياسيدتي ان حياتي وحياة خطيبي بين يديك الآن فلك ان تسلمينا للموت ولك ان تحفظي حياتنا . والموت والحياة في رضاك عندي سيان

فتنهدت نجمة الصباح وامسكت الفتاة بذراعيها وانهضتها وكادت تضمها الى صدرها وقالت : ثقي يا عزيزتي اني مخلصة لك ولخطيبك . اقسم لك بعنقي اني لا اغشك

— شكراً يا مولاتي والف شكر

— ما رأيك اذا كنت توعزين اليه ان يعود من مخبئه حتى لا يثبت عليه فراره ويقدم نفسه للباشا وانا اكفل لك اني ....

فعادت نعيمة وارتمت على قدمي نجمة الصبح وهي تبكي بكاء مراً وقالت : رحماك يا سيدتي . اعدلي عن هذا الطلب . ما سلم احد نفسه وسلم . ان الحوادث علمت الناس ان... آه ... بربك سامحيني لهذا الافتراء ... رباه ماذا اقول . اكاد اجن .... رباه .... بربك سامحيني

فما كان من نجمة الا ان رفعت الفتاة الى صدرها وضمتها واستنشقتها وقبلتها قبلات حارة وقالت : والفتاة تسمع خفقات فؤادها : انك يا بنيتي قليلة الثقة . موجسة . فهاك برهاناً مني على اني احبك من اعماق فؤادي . ولهذا يستحيل ان أوذيك

فارتعدت الفتاة ووقفت خاشعة حائرة ولسان حالها يقول لماذا تحبينني ؟ ثم قالت لها نجمة الصبح : لا ريب انك تستغربين قولي هذا . وانه يزيدك ريبة في . ولا بد ان تسائلي نفسك

لماذا احبك . اجل اني احبك لاني فقدت بنتاً وحيدة تشبهك . ولو بقيت حية الى اليوم لكانت مثلك وفي سنك . ان ذلك الحب الوالدي قد تحرك في فؤادي الآن واتجه اليك

فتأثرت الفتاة وقالت : بالله . هل حقيقة منحتني هذه السعادة العظمى ياسيدتي

فعانقها نجمة الصبح وقبلتها القبلات التي لم تدع شكاً في نفس الفتاة وقالت : ثقي اني احبك كل الحب ولا اطلب منك ان تخبريني عن مقر خطيبك ولا ان توعزي اليه ان يظهر نفسه . واما ابذل جهدي في انقاذه . قبليني يا بنيتي علامة ثقتك بي

فتعانقت المرأتان وارتوت نجمة من تقبيل نعيمة كما ترتوي الام من تقبيل بنتها . ثم جلست نعيمة الى جنبها مطمئنة بالرغم مما هي فيه من التأثر . ثم قالت نجمة : ما اسعد خطيبك هذا بك يا بنيتي . ترى هل يستحق هذا العطف الذي اراه منك

— انه يا سيدتي يستحق كل عطف وكل تضحية لانه أخلص لي من كل انسان على سطح الارض . وقد بدا لي من عطفه وطيبته عالم يبد من ابوي

— عجباً . كيف ذلك ؟

— لا تعجبي ياسيدتي . اني يتيمة الابوين فكان يوسف لي اخي واحن من ابوين

— متى يتمك الدهر يا بنيتي

— اقدر ان اقول يا سيدتي اني ولدت يتيمة ولكن رباني ابوان آخران وتبنياني . وكان الاب عطوفاً علي جداً وماادخر شيئاً في سبيل تربيتي وتعليمي وهنائي . ولكن لما مات فزت محبة زوجته لي واضطررت ان انفصل عنها لخلاف بيننا على الميراث ولانها تريد ان تزوجني بالرغم مني لابن اخيها حتى يبقى نصيبي من الميراث تحت سلطتها . وفي اثناء هذا الخلاف كان خطيبي يحميني ويحرص على راحتي وسلامتي

— اذاً لا تعرفين ابويك الحقيقيين

— كلا البتة وما عرفت اني ابنة بالتبني للذين رباني الا بعد وفاة الاب المتبني

— اما اخبرتك زوجته شيئاً عن اصلك ؟

— لا تعرف شيئاً . واظن ابي الذي رباني لم يكن يعرف شيئاً عن ابوي أيضاً

— اذاً من أين حصل عليك

— كان ابو خطيبي صديقاً له وهو الذي جاء بي اليه قائلاً : انت بلا ولد وتريد ولداً فخذ رب هذه الطفلة اليتيمة

وكانت نجمة تسمع الحديث وتكاد نعيمة تسمع نبضات فؤادها . فقالت نجمة : من هو خطيبك ومن ابوه ؟

— خطيبي اسمه خليل الرحماني ابن علي الرحماني من القدس . وكان علي هذا يأتي الى حماه باشغال تجارية وبينه وبين مربي حامد نسيم صداقة قديمة . وكان احياناً ابنه خليل يأتي معه . فنحن نعرف بعضنا بعضاً من الصغر

وكانت الفتاة تتكلم ونجمة تختلج وتحاول ان تكتم ما يخطر في ضميرها وما يعبر في قلبها

من النبضات الكهربائية فقالت بعد فترة : لا ريب ان خطيبك فتى فاضل طيب القلب وابله كذلك. وهو يستحق منك هذا العطف الجميل . ولكن هل انت واثقة ان ابويك الحقيقيين ميتان

— ماذا يمكن ان يكون غير ذلك ياسيدتي

— اما سألت علي الرحماني

— علي الرحماني مات قبل ان اعرف اني لست ابنة حامد نسيم الذي ربابي .

— وخليل ابنه ؟

— لا يعرف شيئاً . فسر نسبي بقي دفيناً عند علي الرحماني

— الى الآن لم تقولي لي ما اسمك يا عزيزتي

— عبدتك نعيمة الزنبيبة

فانتفض فؤاد نجمة وقال . كيف ذلك ؟ الا تنتمين للذي ربك ؟

— نعم ولكن لما وقع الخلاف بيني وبين زوجته قالت لي ان المرحوم علي الرحماني سماني هكذا حين اتى بي الى زوجها فاثرت ان اعود لكنيتي السابقة

— اليس عندك علامة من ابويك الحقيقيين ولا اثر ولا . . .

فخفق فؤاد نعيمة وقالت : لما ابلغتني مربيتي اني لست بنتها ولا ابنة زوجها قالت لي ان حلية مصرية كانت معي حين جاء بي علي الرحماني الى زوجها . وقال ان هذه الحلية كانت مع امي التي ولدتني ثم ماتت على اثر ولادتي . فاحتفظت بتلك الحلية كتذكار من ام مجهولة

— اين هي الحلية

— اودعتها مع خطيبي خليل كتذكار عهد في مدة الحرب التي اوجبت ان نفترق مدداً طويلة . وهو اعطاني هذا الخاتم تذكاراً منه

وارتها نعيمة الخاتم مرصعاً بزمردة آية في البداعة . فلما رآته نجمة اختلجت وقالت انه لجميل . ترى هل هديتك له جميلة كهذا الخاتم

— انها لحلية نادرة المثال ذات رسوم مصرية قديمة .

— ترى هل حرص عليها ؟

فتنهدت نعيمة وقالت : اني اسفة ياسيدتي ان الذين قبضوا عليه اخذوها منه . وهي ثمينة عندي جداً لانها تذكار وحيد من الام المجهولة التي احن الى روحها

— من اخذها منه ؟

فاغضت نعيمة قليلاً وقالت : اظن ان عثمان بيك اخذها منه

— يمكنك ان تسأليه عنها فيردها لك

— اني اخجل ان اطالبه بها . ولا بد ان يردها من نفسه بعد حين اذا علم قيمتها عندي

— باعتبار اني امك الثانية اهديك هدية مثلها على شرط ان تحتفظي بها فلا تعطيها حتى ولا لخطيبك

واخذت نجمة من بين صدرها وثوبها الحلية التي اعطاها اياها الدرويش يوسف كما علم القارىء وقدمتها اليها . فلما رأتها نعيمة « شهقت » وقالت : انها مثل حليتي تماماً

وتناولتها متهللة وجعلت تقلبها بين يديها وهي تقول : انها مثلها تماماً . كأنها هي بعينها . انها تذكرني بتذكار امي

فابتسمت نجمة الصبح وقالت : هي هي بعينها وقد وصلت اليّ مصادفة فأردها لك

— بل اعتبرها يا مولاتي هدية حقيقية منك . هدية من امي الثانية

وانحنت نعيمة تريد تقبيل نجمة فعانقتها هذه عناق الأم للبنت وارتوت من تقبيلها . ثم قالت: ثقي اني افعل لاجلك كل ما ترومين . افعل لاجلك ما تفعله الام لابنتها

فما كادت نعيمة تصدق كل هذا العطف لو لم تشعر ان في قبلات نجمة ما يؤيده كما يؤيد الختم الامضاء . وكان اغتباط نعيمة عظيماً وصارت لها دالة كبيرة على نجمة فقالت : بقي لي سؤال واحد يا سيدتي

فقالت نجمة : تسريني اكثر اذا كنت تقولين «يا أمي» ويلذ لي ان تقبليني كأمك . واذا شئت ان تعيشي عندي كابنتي تزيدين غبطتي

— ان لي الشرف العظيم يا . . .

— قولي يا أمي — يا أمي

وتعانقت المرأتان ثم قالت نجمة : اذاً . سأفاوض الباشا حتى يأذن ان تقيمي عندي . ولا بد ان يقبل بل يسرّ . فماذا تبتغين مني ايضاً ؟

— ارجو ان تتشفعي بالحارس الذي كان يحرس خليلاً ثم قبضوا عليه وزجوه في السجن مع انه بريء

— كيف ذلك ؟

وروت لها حكاية الحارس المسمى حليم العدني وكيف باغته رجل كالغول واوثقه ثم حلّ وثاق خليل وتركاه ومضيا . وقالت : ان الرجل غير مذنب فهو يزعم ان جماعة بغتوه وسطوا عليه وفعلوا به كذلك

فقالت نجمة الصبح : ولكن القانون العسكري يذنبه لأنه كان يجب ان يقاوم حتى الموت

فقالت نعيمة باسمة : ولكني اقول لك الحقيقة ان ذلك الحارس كان نبيلاً جداً فقد جرى حديث بينه وبين خليل وعلم بحقيقة حال خليل وعلاقته معي وتأثر حتى سمح ان يطلق سراح خليل ويوثق هو مكانه . كان ذلك برضاه واختياره على امل ان المجلس العسكري يعذره ويبرئه . ولكن يظهر ان المجلس المذكور شديد قاسٍ . وقد يحكم عليه حكماً جائراً . ولهذا ارجو منك ان تنقذيه

— لاجل خاطرك انقذه لانه انقذ خطيبك

وهنا « تدلعت » نعيمة دلعةً على نجمة وقالت : ارجو ان تجدي لي وسيلة لزيارته في السجن لأني أود ان اهديه بعض فاكهة وان اطمئنه سراً

فابتسمت نجمة وقالت : هذه مسألة بسيطة غداً نزوره معاً

— شكراً عظيماً لك يا . . . أمي

وتعانقت المرأتان وخرجت نعيمة على نية ان تعود غداً

الفصل السابع والعشرون

فؤاد افندي يتدافعان

في اليوم التالي كانت نجمة الصبح ونعيمة الزيفنية تسعيان الى دخول السجن لمقابلة حليم العدني ومع نعيمة منديل مملوء من الفاكهة اللذيذة .

لم تجدا صعوبة في دخول السجن وفي استدعاء حليم هذا الى حجرة خاصة لان نفوذ نجمة اصبح معروفاً . فانتظرا في الحجرة برهة قصيرة الى ان اقبل عليهما رجل طويل القامة منحني الهامة كأن اثقال الهموم قد قصمت ظهره واشباح الغموم قصرت عمره فظهر كأنه شيخ مع ان في محياه مطالع الشباب

فتلقته نعيمة وقالت هامسة اني موفدة اليك سراً من قبل صديق حميم لا تفنى صداقته حتى ولا بفنائه

فاختلج الرجل وقال : — لا اعهد ان لي في الدنيا صديقاً له هذه الوفاء الذي تزعمينه يا آنسة

— عجباً . الا تعتقدان من تفتديه بنفسك يكون له هذا الوفاء ؟

فاختلج الرجل وقال :— افتديته بنفسي ؟

— نعم . هل نسيت الراعي الذي فرّ من تحت حراستك وتركك مقيداً

— لا . لم أنس

— ولا هو ينسى هذه المروءة ولهذا عنده لها ما يقابلها من الوفاء

— بارك الله به . انه اول وفي عرفته . هل هو في مأمن

— نعم انه الآن في مأمن ولكنه ما زال تحت خطر . وكان يؤمل ان الديوان العرفي يعذرك ولا يضع عليك مسأولية فصار يخشى ان يعاقبك . ولذلك بود ان يسلم نفسه حتى يلتزم الديوان العرفي ان يطلق سراحك

— بارك الله به . اظن حضرتك . . .

— خطيبته . نعم

— اذاً قولي له ان يسلم بنفسه ولا يقدم نفسه لديوان عرفي لا يعرف التزاماً عادلاً ولا حقاً . فاذا سلم نفسه عاقبنا الديوان معاً . فلماذا هذا التفادي

— ولكنه قلق الضمير

فابتسم الرجل وقال : قولي له ان يطمئن ويحافظ على نفسه ولا يبالي بي . لست نادماً على ما حدث . اني شاعر بان له ان يتمتع لانه في ربيع حياته ومقيد بعهود شريفة يجتهد ان يقوم بها . واما يأس من سعادة هذا الحياة فاريد ان اسير في اقرب الطرق الى الحياة الاخرى .

— عجباً يا سيدي : لماذا اليأس من رحمة الله ؟ ان لكل نكبة نهاية ولي الامل ان يلهم الله الديوان العرفي الحق والعدل على الاقل اذا لم يلهمه الرحمة والرأفة

لست يا سيدتي شاكياً ظلم الديوان العرفي بل قد يكون ظلمه مرحة لي لان لي في نكبات الزمان ما يجعلني احنق على الزمان واعاديه وافر منه .

— اني يا مولاي اسفة لاحزانك وآلام نفسك . اود لو اقوم بأي خدمة لك . ولي الأمل ان اقدر ان اخدمك حتى في الديوان العرفي

— شكراً لك نجحت او لم تنجحي

— بل اني ناجحة باذن الله . ارجو ان تقبل مني تقدمة لا قيمة لها . هذه الفاكهة وهذه الليرات القليلة

— اما الفاكهة فاشكرها لك اذا كنت تقدرين ان تقنعي السجان ان يأذن لي بأكلها واما الليرات فقلما احتاج اليها هنا .

— بل تستطيع أن تستخدمها في اغراضك

— لا بأس قد تنفع . نعم اني في حاجة اليها .

— اذا شئت غيرها ايضاً فيمكنني الحصول على مثلها

ربما احتجت الى مثلها او اكثر لان لي بغية تحتاج الى شيء من المال

— ما هي بغيتك

فتململ الرجل وقال : قولي لي اولاً كيف تسنى لك ان تزوريني

— بمساعدة سيدتي « نجمة الصبح » ودولة حرم الباشا وقد توصلت اليها فاذا هي كريمة الخلق جداً

— حسناً جداً . هل يمكنك ان تقنعيها ان تكلف عثمان بك ان يتفقدني في السجن . ان لي معه شأناً

— عثمان بك ؟

— نعم . هل تعرفينه

— نعم هو كان وسيلة تعرفي بالهانم . فما شأنك معه

— عليّ لخطيبك دين لا يمكن ايفاؤه الا عن يد عثمان بك

— كيف ذلك . وما هو هذا الدين ؟

— تعهدت لخطيبك ان اسعى باسترداد الحلية التي استلبها عثمان بك منه وقد رجوته ان يردها لك فما لقيت منه الا الاعراض . فاودّ ان استردها منه بثمن

— فابتسمت نعيمة وقالت : شكراً عظيماً لعواطفك يا سيدي لقد عادت لي الحلية . فشكراً والف شكر . ها هي

واخذت الحلية من صدرها من تحت ثوبها وادرتها لحليم السجين فامسكها بيده وتأملها هنيهة وما لبث ان ارتد الى الوراء مبغوتاً متجهماً وقال منتفضاً : يا لله !

فاستغربت الفتاة امره وقالت : ما بك . اما هي الحلية التي تعنيها ؟

— لم ار حلية خطيبك قبل ان يستلبها عثمان حتى اعلم ان كانت هي او غيرها . ولكنك انت تعلمين

— نعم هي الحلية التي كانت معه وسلبها عثمان بك ثم ردها

— وهل هي الحلية التي اعطيتها انت لحطيبك تذكاراً

— نعم هي هي بعينها

فانتفض نابيه وقال : ويلاه . من اين لك هذه الحلية .

— انها يا سيدي تذكار من امي

— من امك ؟ من هي امك ! ويلاه ؟

فجزعت الفتاة واكفهر وجهها . ونظرت الى « نجمة الصبح » التي كانت جالسة بعيداً عنهما لتخلي لهما مكان الحديث وكانت تدخن سيكارتها . فلما رأت نجمة الصبح الفتاة تنظر اليها مكفهرة خشيت ان يكون قد اعتراها أمر أو ان يكون الرجل قد اساء اليها بأمر فاسرعت اليها قائلة : ماذا حدث يا بنية ؟

فاجالت نعيمة نظرها بين حليم العدنى وبين نجمة الصبح وبين الحلية كأنها معقودة اللسان ثم وقع نظر الثلاثة على الحلية كأنها صلة بين الثلاثة كانت ضائعة . ثم تفرس كل من حليم ونجمة في الآخر هنيهة ثم تباعدا كأن قوة حالت بينهما . ثم نظرت نجمة الصبح الى نعيمة نظرة روعت الفتاة وقالت لها : ارجو يا عزيزتي ان تنتظريني هنيهة خارج هذه الحجرة

فقالت الفتاة صاغرة : سمعاً وطاعة يا سيدتي

وخرجت الفتاة وبقيت نجمة الصبح تنظر في حليم وهو ينظر فيها ونبضات كهربائية ترج مجموعها العصبي الى ان قال حليم : زينب . زينب . هل انت حية

— ما انا زينب . بل انا « نجمة الصبح »

— نجمة الصبح ؟

— نعم

— ولم تزالي حية ؟

— ولماذا اموت ؟

وكان حليم يتفرس فيها جزعاً وهي تتفرس فيه منتفضة الفؤاد فقال : عهدي بهم قتلوك يا زينب . قاتلهم الله

— لعلهم قتلوا زينباً . واما نجمة الصبح فما مسها احد بضر

وكاد حليم يكون كالابله فقال : قاتلهم الله . لقد قتلوا سعادتي واحيوا شقائي . سفكوا دم هنائي وحقنوا دم غمومي . ويلاه اين كنت وانا اهيم في طول بلاد الله وعرضها ابحث عن النسيم الذي ارتوى من انفاسك وعن الزهور التي تغذت من بخار هيكلك وعن الاثير الذي حمل روحك . اين كنت يازينب

— كانت زينب حيث تركتها بين ايدي الذين يستقوون على المرأة الضعيفة . فلماذا لم تكن الحصن الذي يصونها من قذائف الحنق ؟ اما كانت امينة الك ! هل خانت عهدك ؟

فحملق فيها قائلاً : ولك . اما انت زوجة غيري الآن ؟ اما كفاك هذا خيانة ؟

— قف عند هذا الحد يا جبان . انك تخاطب « نجمة الصبح » الآن ونجمة الصبح تحاسبك عن روح زينب التي اخلصت لعهدك

وسلمت نفسها لذمامك . ولما تسددت اليها سهام الانتقام فررت انت فرار الجبان وتركتها بين ايدي الحانقين يمرغون على رأسها جام غضبهم . فلو كان عندك شيء من الشجاعة لانقذتها من ايدي قضاتها عادلين كانوا او ظالمين. تركتها تحت ذلك القضاء الهائل وفررت فرار اللص من امام الحكم العادل . وبعد ذلك تسأل عن زينب وتلومها ؟ لماذا لم تحافظ على عهدك حتى في ساحة دمها ؟ وماذا تنتظر ان تفعل لاجلك غير ان يسفك دمها بسببك ؟

وكان حليم ينتفض تأثراً كأن نوبة عصبية انتابته فقال متهدج الصوت : ويحك يا ظالمة . هل تريدين ان تبرري نفسك بتقمصك باسم «نجمة الصبح» . ماذا استطيع ان افعل اذا كان ابوك قد غدر بك واخذك اليه لكي يغتالك وما دريت بسوء قصده الا بعد ان شاع وذاع ان سهم قضائه نفذ . وقصدت الى كاتبه علي الرحماني فازغاً اليه مستجيراً به فاقسم لي ان المقدور نفذ . فكدت انتقم منه لو لم يحل بيني وبينه خادم عتل اوشك ان يقضي علي . بعد ذلك همت علي وجهي في فضاء الله الواسع

— كان جديراً بك ان تتدارك النقمة قبل وقوعها يا خسيس . كان يجب عليك وقد سلمتك زينب نفسها ان تصونها في حصن منيع — ان تفر بها قبل ان ينفرك غضب ابيك . كان يجب ان تعلم ان شرف العرض العربي يحرج ابي ان يصون هذا الشرف بالقتل . كان يجب ان تقف وقفة البطل الابي الشريف النفس في وجه ابيك الذي استسهل ان يضحي بعرض فتاة نبيلة لاجل مصلحة نفسه الدنيئة

فاطم حليم خديه وشد شعر رأسه وقال : الويل الويل لابي . الويل لذلك الطباع الذي ضحى بشرفه وبعواطف بنيه في سبيل مطامعه ؟ كفى كفى لا تذكريه لي . فقد انكرته بل انكرت كل ذاتيتي . فكما انك انت الآن نجمة الصبح لا الاميرة زينب بنت الامير محمد نصر الدين الدهري كذلك انا الآن حليم العدني لا حليم بك ابن حسن باشا عدنان . فاستمري يا نجمة الصبح في نعيمك الجديد وانعمي فانت لحقيقة به . ودعي حليم العدني يقضي نحبه في بحر شقائه . نعم ان حليم بك عدنان قد قصر في صونك وجبن في حمايتك فلك كل الحق ان تنبذيه وان تخلعي سلطان حبه عن عرش دولة قلبك . دعي حليماً ينال عقابه في هذه الدنيا عسى ان يرأف الله به في الآخرة . عودي يا هذه الى مجدك وعزك وبهائك ودعيني في خزيي وعاري . لست ادينك ولا حق لي ان ادينك وانما ادين نفسي . والله يدين الظالمين الناقمين الغاشمين

واتكأ حليم على مقعده واهي القوى لشدة تأثره فاشفقت عليه نجمة الصبح ورقت له فامسكت بيده وقالت له : خفف عنك يا هذا وهون عليك . هذا قضاء الله الازلي . فقد كتب لكل امرء حظاً . لا تستسلم لليأس . ان بقاءك هنا اصبح محسوباً بالساعات فستخرج وتم تعود الى حيث قضي لك ان تعيش

فصاح حليم كالمجنون مذعوراً : زينب زينب الا تزالي ناقمة علي . هل تريدين ان تنتقمي مني

— ويحك ما فعلت حتى تقول هذا ؟

— ويلي منك يا امرأة اما تحكمين علي بالاقصاء عنك ؟ افبعد ان علمت انك عدت من عالم الفناء واريتني باب النعيم تقفلين الباب في وجهي ؟

— لله منك . هل جننت . اما فهمت اني زوجة رجل الآن ؟ فهل تريد ان تفضح امري . وهل تستسهل ان تحيي عاري ؟ ماذا يقول الناس اذا عرفوا السر الهائل ؟

فجعل حليم يرتجف تأثراً كأن قوس الاسى جعل يحز على اوتار اعصابه وقال متهدج الصوت: لا لا . زينب انك طاهرة من العار . ان عارك على رأسي وقلبي ونفسي . اني احميك من كل عار . عودي الى نعيمك وانما اذا كنت ترثين لي تحولين سهم القضاء الى قلبي . يجب ان اموت حتى لا ارى فؤادك ينبض لغيري . فاسعديني بموتة عاجلة

— لله منك . أما انت ذو عيلة . فهمت انك . . .

— اجل اجل . بعد ان وثقت ان قضاء الغضب الأبوي نزل عليك تزوجت حتى . . آه . . . ماذا اقول وماذا اعلل . . اني جحود النعمة كافر بها . . . . دعيني يازينب . لقد عظم خطبي وثقل ذنبي

لست ادينك يا هذا لأنك تزوجت . . فقد فعلت مايفعله الناس . وانما عاتبتك لأنك تركتني عرضة لغضب ابي وانتقامه . ولولا رأفة علي الرحماني كاتب ابي الذي حقن دمي وكتمني في مخابىء الزمان لما بقيت حية ولا اضطررت ان اغير مجرى حياتي . فأحسب زينب ميتة . « ونجمة الصبح » الآن تسعى لانقاذك لاجل عيلتك . فافتكر بنيك الذين اوجدتهم في هذا العالم . فانت مدين لهم بحياتك وقوتك .

فقال حليم متحسراً : ويلاه . . . وهذه الفتاة . من هي ؟ . واين كانت هل كانت مخبوءة معك في مخابىء الزمان ايضاً

فاختلجت نجمة الصبح وقالت : ويلاه انك تضرب على وتر متوتر في فؤادي . اخاف ان اقول ان هذه ابنتي . لئلا اعلن ثمرة عاري بنفسي . حسبي ان امتع نفسي بها خلسةً

— وانا يا شقية ؟ اما هي ابنتي ؟ ام . . .

فصاحت به : ويحك . قف هنا . اني كنت مصونة حتى اليوم . فلا تبتكر لي عاراً جديداً وخزياً

— اذاً . هل تريدين ان تطمسي كل سعادتي ؟ ان لي في بنتي حقاً ونصيباً من التعزية فهل تحكمين عليّ ايضا حكماً آخر جائراً لا مبرر له . . هذه ابنتي اريد ان اضمها الى صدري ضم الاب لابنته والا فان ابيت كنت ذات عار وخزي

فارتجفت نجمة الصبح وقالت ساخطة ؟ ويحك . انك تعرض عرضي للخطر . فكيف يمكن ذلك من غير ان تفهم الفتاة جميع

الاسرار الهائلة . بربك قف عند هذا الحد الى ان يفتح الله باب الفرج . كن عاقلاً ورزيناً وحاذر ان تخرج من دائرة لصحي وارشادي بل اوامري . اني مضطرة ان اعود الآن عاجلاً . فوداعاً . وانتظر نتيجة مساعيّ فهي بقضاء الهي ايضاً فحاذر ان تعصاها وداعاً

وتركته ومضت آخذة الفتاة نسيمة معها . وهذه ازدادت حيرة فيما رأته ولم تفهمه

الفصل الثامن والعشرون

لا زعيم للعرب الا عربي

في اثناء ذلك كان حسن بيك العظيمي رئيس الديوان العرفي مختلياً بأحد المتهمين المتنكر باسم الدمشقي في غرفة وحدهما فقال حسن بك : كيف رأيت هذه المحاكمة يا اخانا

— ماذا تعني يا حضرة البيك

— اعني كيف رأيتها اجمالاً وماذا تنتظر ان تكون نتيجتها وكيف يكون الحكم

— هذا سؤال غامض على مثلي يا سيدي . وماذا تنتظر مني ان اجاوبك

فابتسم حسن بك وقال : لست اخاطبك الآن بصفة كوني رئيس الديوان العرفي بل بصفة كوني عربياً مثلك ونحن اخوان ولنا مصلحة واحدة وغاية واحدة وامانٍ متفقة وآمال متشابهة . فماذا فهمت من هذه المحاكمة

— فهمت انها « تياترو » الى الآن لم تعلن اسماء المتهمين . والى الآن لم يثبت المدعي العمومي التهمة عليهم .

فابتسم حسن بك وقال : نعم هذا ما تمنيت ان يفهمه كل واحد منكم أيها المتهمون . نعم ان اسماءكم لم تعلن ولا انتم افرزتم بها ولكننا نحن نعرفكم واحداً واحداً وكذلك لم يحاول المدعي العمومي حتى الآن ان يثبت التهمة عليكم وان كان قد شرح شرحاً مفيداً ما هي الخيانة . ولكننا نحن عارفون ما هية التهمة . فماذا تفهم من ذلك

— افهم ان هذه المحاكمة انما هي دور تمثيلي سابق لحكم مقرر

— نعم انها لكذلك ولكن ماذا تعتقد في الحكم ان يكون

فتحير الدمشقي ماذا يجيب ثم قال : لا ادري . وماذا يمكن ان يكون غير الحكم الجائر بالاعدام او بالمؤبد

— يحتمل ان يكون كذلك ويحتمل ان يكون الحكم بالبراءة ايضاً

فاستغرب الدمشقي هذا الكلام وقال : بالبراءة ؟

— نعم لان المحاكمة لم تثبت فيها ادانتكم بعد .

— وما الغرض من هذا الدور الذي تلعبونه ؟

— هو ان يكون الحكم عليكم في يدكم

— في يدنا ؟

— نعم . في يدكم . انتم تملون صورة الحكم كما ترغبون

فابتسم الدمشقي وقال : — بالطبع نحن نملي البراءة

— ولكم البراءة

— اذاً . لماذا قبضتم علينا وسقتمونا للمحاكمة ؟

— لأن السلطة العسكرية مضطرة ان تفعل كذلك اذ ورد امر من الاستانة الى جمال باشا بان يقبض عليكم ويحاكمكم . ولا يسعه الا ان ينفذ الامر . فقبض عليكم ونحن نحالكم طوعاً للأوامر . ثم نرى انكم ابرياء فنحكم ببراءتكم . وبذلك نكون قد نفذنا اوامر الاستانة من غير ان نضركم

شكراً لكم وأي شكر . ولكني الى الآن لا ارى سبباً لهذه المعاملة الكريمة

— ليس لها سبب الا انكم لستم خونة ولا مجرمين البتة

— عجباً كيف تقول ذلك ؟

— اقوله لاننا نحن عالمون دعوتكم وغرض جمعيتكم السرية . وهو انكم تسعون لانشاء دولة عربية تجمع جميع العرب الذين تحت سلطة الدولة العلية والذين لم يخضعوا لها وان تكون هذه الدولة الى جنب الدولة العثمانية تشد ازرها فكأنها تضيف الى قوة الدولة قوة سائر العرب المنفصلين عنها الآن اعداء لها وضدها . فأي مسعى اشرف من هذا . ولذلك لا يمكن ان تعد جمعيتكم خائنة ولا عملكم خيانة ولا انتم خونة . ولهذا اقتصر المدعي العمومي على بيان الخيانة ولكنه لم يطبق هذا البيان عليكم .

— كل هذه حقائق صحيحة في نظرك وانما هي في نظر الترك بالعكس والا فما كان قد ورد من الاستانة امر بالقبض علينا ومحاكمتنا ولا كنا نحن نجتمع سراً تحامياً لاضطهاد الترك

— صدقت كل كلامك هذا صواب ولكن بين الترك من يصوب عملكم هذا ويحسبه شريفاً ونافعاً للعرب وللترك جميعاً وخيراً للامتين بل لجميع الامم الاسلامية . ولذلك يودون ان يناصروكم فيه ضد من يستنكرونه . ومن جملة مناصريكم جمال باشا نفسه وهو الذي دبر المحاكمة على هذا الشكل وجعل جميع اعضاء الديوان العرفي عرباً

— بارك الله به . لقد كنا اذاً مخدوعين بظاهر جمال . كنا نظنه غول العرب لكثرة من شنق منهم ومن نفى ومن اضطهد ومن امات جوعاً ومن سبا ومن هتك ومن ومن . ترى هل كل هذه الاعمال من ظواهره ايضاً ؟ فكيف تكون بواطنه اذاً . وما هي بواطنه ؟

فاكفهر حسن بيك وقال : لا يخفى عليك انه كان ينفذ اوامر الاستانة

فضحك الدمشقي وقال : ونعم المنفذ الامين فقد بالغ في الامانة بالتنفيذ حتى انه شنق المشتبه بهم وفتك بالابرياء ونكل

بالمخلصين للدولة ونفى خدمتها المتفانين في الاخلاص لها واجاع الامة التي لما شبت الحرب قالت : « ندع مشروع الاصلاح الآن جانباً ونقف جنب الاتراك كتفاً الى كتف في الدفاع عن دولتنا ومتى انتهت الحرب نعود الى المطالبة بالاصلاح » — فأمانة جمال في تنفيذ أوامر الاستانة قضت بأن يقصى شبان هذه الامة الى مقدمات صفوف القتال في اقصى خطوطه وان يمات شيوخها ونساؤها وأطفالها جوعاً . فانهم بجمال من مأمور طائع امين في التنفيذ

فاكفهرّ حسن بك العظيمي وقال : عجباً انت تعلم ان السوريين كان بعضهم يمالئون فرنسا وبعضهم يمالئون انكلترا ولهذا استحقوا الشنق

— هذا محض افتراء . ليس احد ممن شنقوا أو اضطهدوا او نفوا كان يمالىء دولة اجنبية البتة . بل كان ذنبهم الوحيد انهم كانوا طلاب اصلاح والاصلاح عدو الترك فشنقوهم واضطهدوهم . نعم ان بعضاً منهم عقدوا مؤتمراً في باريس لأن الترك جعلوا يقاومون طلاب الاصلاح بكم الافواه وبالاضطهاد فاضطروا ان يعقدوا مؤتمرهم في جو حرية صاف . وعند ذلك جعل الترك يجاملونهم ويتظاهرون بمودتهم ومصافاتهم ويعدونهم الوعود الخلابة بالاصلاح حتى متى استحكموا منهم في اول الحرب اعملوا فيهم سيف النقمة . العجيب انهم لم يحاكموهم يوم كانوا يطالبون بالاصلاح . بل صبروا الى حين اخذوا شبان البلاد وابعدوهم جنوداً الى ساحات القتال البعيدة ثم جعلوا ينكلون بأعيانهم وشيوخهم ونسوتهم واطفالهم . على ان الشرذمة القليلة التي كانت تمالىء فرنسا بقيت في مرافدها آمنة . فالقوم الذين يبلغ بهم الجبن الى هذا الحد لا تنتظر منهم ان يستخلصوا دعوة العرب الى انشاء دولة عربية كبرى تجمع كل العرب وتشد ازر الخلافة

وكان حسن بيك يكفهر وهو يسمع ويفكر استعداداً للرد ثم قال . ربما كان في اقوالك بعض الصحة او جلها . فمالنا وللماضي الآن . وأما الحاضر فيؤكد لنا ان بين الترك من صاروا يشعرون ان الوسيلة الوحيدة لجمع معظم المسلمين أو كلهم حول الخلافة هي انشاء دولة عربية كبرى تجمع جميع العرب . وجمال باشا من هؤلاء

فتبرم الدمشقي وقال : حبذا ان يكون في الترك من صاروا يرون الصواب ويعلمون ان العرب هم حصن الخلافة المنيع فيجب ان يترك لهم امر شعبهم . وانما هذا يحتاج الى براهين فعلية

— نعم . والبراهين مهيأة

— كيف ذلك

— تقومون انتم يا زعماء العرب وتنادون بدعوتكم جهاراً دفعة واحدة وجمال باشا نفسه على رأسكم أي زعيم الحركة . وبالطبع يقوم له خصوم من الترك بما كسونه . ولكنه بما يكون عنده من القوات العربية الكبيرة

وبما له من الانصار بين الترك يستطيع ان يسقط خصومه ويثبت الدعوة ويرغم الاتراك على قبولها والرضى بها

وكان الدمشقي يسمع هذا الكلام فاتحاً فاه مبهوتاً فقال : ماذا تقول يا هذا ؟

— اقول ان جال باشا زعيم ال . . .

— ويحك . جال باشا ؟ زعيم الدعوة ؟ تركي يتولى زعامة الحركة العربية ؟ اليس عندنا عربي واحد يحسن الزعامة ؟

— ليس السبب هذا ياأخي وانما هو تركي يمكنه اقناع الترك ورضاءهم

— رضوا او «عمرهم» ما رضوا . لا يمكن ان ينقاد العرب لزعيم تركي

— سمعاً يا هذا . ان جال باشا قائد محنك عظيم يحسن القيادة المنظمة

— نعم ولكن العرب لا يخضعون لقيادة منظمة . لا يخضعون الا لامرائهم . وامراؤهم لا يتفقون تحت زعامة تركي . فاعلم يا هذا . ما أنا دمشقي بل انا امير عربي صميم . لا أطيق الخضوع لجندي تركي . انت لا تفهم قوة معنى ما تتكلمه . وزن الكلام قبل ان تقوله

فقال حسن بك : حلمك يا امير . ان هذه الحركة خطيرة الشأن وخطرة أيضاً . قد تعرض العرب والترك معاً للدمار . فاذا لم يكن على رأسها من يقنع الترك بالرضى بها كانت وخيمة العاقبة . ولهذا اقول لك يجب ان يكون جال باشا زعيمها

— نحن نصارح الترك فان صدقونا واصدقونا ما لا ناهم والا ناوأناهم . فماذا يستطيع جال أن يفعله ونحن نعجز عنه . بماذا يقنع جال الترك

— يقنعهم بان هذه الدولة العربية الجديدة لاتكون خارجة على الدولة العلية بل منصاعة لها

— ماذا تعني بالانصياع لها

فتردد حسن بيك بالكلام قائلاً : اعني انها تكون تحت سلطة السلطان الاسمية

فصاح الدمشقي : ويحك . تحت سلطة سلطان تركيا ؟ اذاً كيف تكون دولة عربية مستقلة ؟ هل انت غبي أو تظنني غبياً ؟ الست تفهم ان معنى هذه السياسة اخضاع جميع العرب لتركيا وهو الأمر الذي كان يتمرمر منه العرب في القرون الماضية لاسباب لاتجهلها ؟

— لا أقول ان تخضع الدولة العربية للدولة التركية بل للسلطان الخليفة

وكان الدمشقي يتكلم محتداً فازداد حدة وقال : — الدولة العربية تبايع الخليفة ولكنها لا تكون قط تحت سيادة السلطان العثماني لا الاسمية ولا الفعلية . نحن نريد ان نحدد دولة عربية كبرى تجمع جميع متكلمي العربية — تجمعهم ولو تدريجاً . نريد ان نستقل استقلالاً تاماً عن الترك وان راموا محالفتنا حالفناهم . فارجو منك ان تقف عند هذا الحد .

فاحتد حسن بك قليلاً وقال : لانريدون الانصياع للخليفة . ولكنكم تسعون لمالأة الاجانب والانقياد اليهم

فنظر فيه الدمشقي وقال : خسىء من

قال لك ذلك . نحن لا ننقاد لاجنبي وانما نساوم الاجنبي على تعاون وقتي لاستقلالنا .

— ولكن الناس يقولون انك تعالج الاجانب وتبيعهم استقلال بلادك

— كذب كل من قال هذا القول وخسىء كل من صدقه . اني واخواني نريد استقلالاً عربياً لدولة عربية قائمة بذاتها لاصلة لها بأي دولة اخرى غير صلة محالفة متبادلة او صلة وداد وتبادل منفعة . ولغير هذه الفكرة لا ندعو ويسواها لا نقبل . ولا يكون زعيمنا الا عربياً ولو كان اصغرنا مقاماً وقوة وسناً . ففكرة ترئيس جمال باشا علينا فكرة خسيسة . فاصرف نظراً عنها ان كنت عربياً انوفاً

فارتبك حسن بيك وقال : يالله ان جميع زملائك رضوا بهذه الخطة ووافقوا عليها

— لا أصدق ان عربياً صميماً يرتكب هذه الخيانة للامة العربية

— هل تظنني أكذب عليك؟ لقد فاوضتهم كلهم في الامر كما فاوضتك فوافقوا

— وهل بحثوا معك كما بحثت انا وناقشوك كما ناقشتك ؟

— نعم واقنعتهم بكل هذه النقط فاقتنعوا

— اذاً . اذا لم تكن انت كاذباً فهم خونة

فاكفهر حسن بك وقال : عجباً . أكلهم خونة ؟

— بدون شك . كل من فهم حقيقة اقتراحك ورضي به كان خائناً

كان حسن في ذلك الحين يبتسم ويكفهر

وهنا عبس وقال : لقد قلت لك في اول الحديث ان كلاً منكم يملي الحكم على نفسه في هذه المحاكمة . فماذا تريد ان يكون الحكم عليك

— اريد ان يكون الحكم علي كالحكم على من لا يريد جمال باشا ولا أي تركي زعيماً للدعوة العربية . بل لا يريد ان يكون لأي اجنبي تداخل في هذه الحركة أو اصبع في الدولة التي ستؤلف

— اذاً اتأسف ان اقول لك ان الحكم على من لا يريد جمال باشا زعيماً والدولة العربية منصاعة للدولة العلية الاعدام

فتبرم الدمشقي وقال : وهل تظن اني انتظمت في سلك « جمعية اخوان العهد » واستبقيت حياتي لي . ان حياتي ملك هذه الجمعية فلتذهب فدى عنها . ان لي الشرف العظيم ان اكون في تاريخ نهضة العرب غداً أحد شهداء الدولة العربية

فهز حسن بك رأسه وقال : أي نعم اتأسف ان اقول لك ان المصلحة الوطنية تقضي بان يبعد من الطريق كل من يقف في سبيل هذه الحركة

— اذاً انتهى الحديث بيننا . فوداعاً الى الحجرة المباركة

ووقف الدمشقي فوقف حسن بيك وقال له : لي الأمل ان تفكر في المسألة قبل البت النهائي فيها

— لا تحتاج المسألة الى تفكير يا هذا .

كل مشروع ينافي الاستقلال المطلق لدولة عربية لا أرضى به

— وهل تنفرد وحدك بهذه المعارضة ؟ الا حرمة لرأي الاكثرية عندك ؟

— دعنا نجتمع جميعاً ونتناقش في المسألة وحينئذٍ نرى ان كان هذا قرار الاكثرية .

واما ان تأخذ قول كل واحد وحده تحت التهديد فيندر ان تجد من يوافقك في المسألة

— أما اجتماعكم جميعاً فلم يعد ممكناً ما دمتم تحت الاتهام . ونحن لا نقدر ان نبرئكم الا تحت هذا الشرط . وقد رضي به الكل الا انت

— انا لا أرضى . فوداعاً

وعاد الدمشقي محفوراً الى سجنه

الفصل التاسع والعشرون

عرف الحبيب محاسن فتدلل

في اليوم التالي كانت نجمة الصبح في خدرها تدخن نارجيلتها وانما كانت في بحران كأنه البحر الخضم . أجل كانت في بحر من الافكار لا يكاد يكون له قرار فقد كشف لها الحاضر كنزاً دفيناً من اسرار الماضي . بنت كانت تظنها في عداد الاموات كما كان اهلوها يظنونها هي . واذا البنت صبية في عز ربيع جمالها ، أو شمس بهائها في رأد ضحاها . وزوج كانت تظنه غائصاً في بحر المجهول وقد اصبح كأنه الطيف القليل الزيارة في مخيلتها . فاذا به وهو في حال اسوأ من الموت لا يزال حي القلب والنفس والضمير . اشابت الغموم والهموم رأسه وهدت حوله . ولكن قلبه لا يزال في شرخ شبابه . على ان صروف الزمان فرقت بينهما تفريقاً ابدياً

ترى كيف حال ابيها واخيها — حالتها الفسانية . اما ابوها فتعلم انه امير قومه ولا يزال ولكن الانقلاب العثماني زعزع الحالة الاجتماعية في الشرق زعزعة مفضية الى الهدم والتجديد او الى الترميم على الاقل . فماذا هو حال قومها . هل هم هادمون ليبنوا او هم يرممون ؟ قلما سمعت عن ابيها وان سمعت شيئاً كان امراً اعتيادياً . لم تسمع الا انه صار شيخاً لا يزال محافظاً على مكانته بين قومه . واما اخوها فلم تعد تسمع عنه شيئاً سوى انه برح الى الاستانة جريح النفس من جراء الحوادث التي حدثت على أثر فضيحتها وحكم ابيها عليها باغتيالها . وهناك اختفى خبره . لعله مات او قتل في حرب من حروب الدولة

* * *

اجل كانت «نجمة الصبح» زوجة شرعية لجمال باشا . ولكنها كانت تعلم انه زوج وقتي

لا يدوم زواجهما الا بقدر دوام سلطان جمال في سوريا . ولهذا حفظت لنفسها عصمتها بحيث تطلقه متى شاءت

عثر جمال على « نجمة الصبح » في حفلة انس خاصة اقيمت تكريماً له في منزل عين من اعيان حلب اذ كانت نجمة قينة تغني الاغاني العربية والتركية . ثم لما عظم طرب القوم طلب اليها جمال ان ترقص فتمنعت . فقال لها انه يحب الرقص الشرقي لانها لا ترقص الا للحريم فيرجو ان تستثنى تلك الليلة من قوانينها اكراماً لخاطره . وبعد كثير الرجاء رقصت خجولاً وكان الخجل يزيدها جمالاً في عيني جمال

وفي تلك الليلة طلب اليها ان تصحبه الى الشام . فاخبرته انها ليست كسائر الغواني والقيان اللواتي ابحن اعراضهن . فاضطر ان يكتب كتابه عليها . واشترطت عليه ان تحفظ لنفسها عصمتها لانها علمت ان حياتها الزوجية مع جمال انما هي سحابة صيف

كل هذه الحوادث الماضية كانت تجول في نفسها اذ دخل عليها جمال باسماً فاستقبلته متهللاً مستبشراً فجلس الى جنبها قائلاً : — اين تريدين ان تقيمي يا نجمة ؟

فاختلجت مستغربة وقالت : ماذا تعني ؟ اننا مقيمون في دمشق

— نعم ولكني قد ابرح دمشق

— الى اين ؟

— لا ادري . وانما قد تقضي عليّ الحوادث بالانتقال

— هل انت زاحف بجيشك الى مصر ؟ اذهب معك

فابتسم جمال وقال : لا . لا نزحف الى الجنوب . قد نزحف الى الشمال . لا ادري وانما الحوادث قد تقضي عليّ بالانتقال او بالتنقل حيث لا ادري . وفي هذه الحالة لا اظنني استطيع ان اصحبك . فلا بد من بقائك في مكان معين يتيسر لي ان اتردد اليه

— اي مكان افضل من دمشق ؟

— ما قولك بحلب ؟

— لماذا حلب ؟

— قد اكون اقرب اليها مني الى دمشق

— ليكن حيث تشاء ولكني لا افهم لماذا الرجوع الى حلب ومهمتك التقدم الى الجنوب ؟ هل اخبار الحرب سيئة ؟

فابتسم جمال وقال : لا . لا . ان الحوادث تتغير وتتطور والاحوال تتكيف خلاف ماينوي الانسان او يظن . قد تحدث حوادث لم تكن في الحسبان

فاختجلت نجمة وقالت : ويلي . ماذا ؟

فابتسم جمال وقال : لا تنذعري . قد تكون الحوادث حسب رغبتك وتسرك . ولذلك قد يأتيك أمر بغتة ان تنتقلي فانتقلي سريعاً الى حيث آمرك .

— الى حلب ؟

— لا ادري الآن . قد يكون انتقالك الى حلب او الى حمص او الى حماه او الى بيروت او الى طرابلس

— الى بيروت تحت خطر القنابل البحرية ؟

فابتسم جمال وقال : لا تجسر اساطيل البحر ان تعتدي على هـذا الجمال . هي اني اوعزت بنقلك الى بغداد فما قولك ؟

— اذا كان في ذلك مسرتك ومسرتي فاذهب حيث تشاء

فقبلها مبتهجاً وقال : نعم ستكون لك مسرة عظمى انشاء الله . هل تريدين ان تكوني ملكة او اميرة على الاقل

فضحكت « نجمة الصبح » وقالت : قلما اطمع بالامارة او الملك الا اذا كان لي حق بالامر والنهي

— منذ الآن لك هذا الحق

— اذا كان حقيقاً ما تقول فهل اقدر ان ارجو منك بعض الامور رجاء لا أمراً ولا نهياً ؟

— بلا شك . مري يا نجمتي

— اريد العفو عن الفار المسمى خليل الرحاني الذي كان يظن انه من افراد العصابة وقبضوا عليه ثم افلت

— هذه مسألة بسيطة . عفوت وسأكتب وثيقة العفو

وارجو العفو عن الحارس الذي كان يحرسه فباغته بعض رجال العصابة وقيدوه وحلوا وثاق الرحاني

— وهذه مسألة ابسط . عفوت وسأوقع وثيقة العفو

— بقي شخص واحد اذا عفوت عنه لا اعود أطلب طلباً آخر . — من ؟

— الدمشقي من اعضاء العصابة

فتجهم جمال وعبس قائلاً : لا . لا . لا اقدر . اطلبي عشر طلبات غير هذا الطلب

— لا ارجو بعد هذا الرجاء شيئاً

— لا استطيع يا نجمة لا استطيع . هذا الرجل في يد الديوان العرفي الآن ولا اقدر ان اتداخل بشؤون الديوان الا بطريقة قانونية

فنظرت فيه نجمة مستغربة وقالت :— يا لله متى لم تكن انت الديوان والقانون !

— في قضية الدمشقي لست كذلك . فدعي هذه المسألة . وكوني على استعداد اذ قد تباغتك الطوارىء مباغتة

— بماذا ؟

— بالانتقال من الشام . ولكن اعلمي انه قد تحدث الحوادث وتبقى دمشق خير مقرّ لك . . وانما اقول . يحتمل ان يقتضي الامر انتقالك . الى الملتقى

— ولكن مهلاً . الدمشقي

— دعي هذه المسألة ليست في الامكان . اني مستعجل الآن

وخرج جمال وترك نجمة تفكر بهذه الطوارىء التي قد تباغتها . ترى ماذا هو حادث في الكون ؟ هل غيرت السيارات دورانها ؟ وهل اختلف نظام الافلاك ؟

الفصل الثلاثون

سهمان من لهيب

ما هي الا هنيهة حتى باغتها دخول الدرويش يوسف الروضي وهو كالغول او كالانسان الاول الذي نشأ من الغورلا وعيناه كأنهما جمرتان متقدتان في وجهه فصاحت به : ويحك . لله منك مجنوناً وقحاً مجازفاً . كيف دخلت ؟

— تغفلت زمردتك البلهاء ودخلت

— اما خفت العواقب . اما فهمت ان الباشا يقتلك اذا علم بك ؟ فاخرج حالاً

— ويحك يا شقية . اما علمت ان جمالك لا يقدر ان يقتلني مرتين

— صه . ان هذه الكلام الشعري البارد لا يطفىء لهيب غضب جمال باشا فهو يقتلك بلا محالة

فحملق فيها ساخطاً وقال : لله منك مجنونة . الا تفهمين ما اقول لك . ماذا يقتل جمالك الباشا فيّ ؟ جسدي ؟ وماذا يهمني جسدي بعد ان قتل جمالك الاميري قلبي .

فتململت نجمة وقالت : لا قبل لي الآن على سماع هذا الكلام الفارغ . فماذا تريد مني ؟

— لست اريد منك شيئاً يا ظالمة يا مجرمة لم تبق لي فيك امنية . وقد قام بينك وبيني حجابان : حجاب الماضي وحجاب المستقبل . حجاب المستحيل وحجاب اليأس .

فسخطت به قائلة : اذا كنت تعلم هذا حق العلم فحتى متى تباغتني بزياراتك المروعة . بالله دعني في صروفي . واخرج قبل ان يعلم احد بدخولك فيقضي عليك اليوم

— افلا تعلمين يا مجنونة اني بعد هذا اليأس لم تبق لي الا امنية هذا القضاء علي ؟ اني اعرض نفسي لنقمة جمالك يا اثيمة

فصاحت به : ويلك ! تباً لك من وقح . اذا شئت ان تموت فامض الى وادي الموت . فما شأني انا بك ؟ حسبك ترويعاً لي

فزمجر كالاسد وصاح : هنا وادي الموت يا شقية . هنا يجب ان اموت تحت قدميك . هنا يجب ان تري دمي مسفوكاً . هنا يجب ان اتقطع ارباً اربا حين ترين ويلاتك تتمثل كالسماء امامك ولا تجدين ستاراً يحجبها عنك الا الانتحار . حينئذ تنتحرين او تقتلين . ام يا زينب حينئذ تقتلين وتتحقق امنيتي التي استحال عليّ تحقيقها في هذه الحياة . حينئذ يمتزج دمي بدمك وتعانق روحي روحك ويتم في السماء الاقتران الذي استحال في الارض . فاستقبلي ايتها الاثيمة ويلاتك الهائلة . استقبلي بلواك الفظيعة التي ستقرع بابك عما قليل . موتي جسداً يا ميتة النفس

وحول يوسف عنها وجهه يريد الخروج وهي ترتعب فرقاً وتنتفض جزعاً من كلامه

الرهيب فصاحت به : قف . ما هي ويلاتي . وما هي بلواي يا شيطان . انك تقصف غصن عمري بهذا الانذار المخيف . تباً لك وسحقاً . قد زعزت قلبي في صدري ، وقلقلت نفسي من جسدي . ما هي ويلاتي ؟

فنظر فيها وكأن عينيه سهمان من لهيب وقال : — اما فهمت يا استير النبية ماذا يفعله احشويرش (١) في شعبك . الا تفهمين الا متى صار الدم الذي تسلسلت منه يجري امامك متلوياً تلوي الافعى الحمراء ! الا تسمعين الا حين تصيح بك ارواح الليل مؤنبة وموبخة . الا ترين الا حين تلوح امام مخيلتك طيوف شعبك المفظعة واشباح اهلك المروعة .

ان الميزان منصوب و «شنا كل» الاستبداد والظلم تتجاذب كفتيه ، وبد العدل فوقه ترتجف غضباً من شر الانسان . فاصحي يا نائمة واحيي يا ميتة . لقد حانت ساعة تزلزل الارض . استعدي لكي تلتحفي بالجبال وتختبيء في في الاودية من وجه الشر البشري . وداعاً يازينب وداعاً . لقد انتهت رسالتي . طهري نفسك قبل ان تبرحي الفلك الارضي حتى تنالي جواز المرور الى الجو السماوي حيث تلتقي

وخرج الدرويش تاركاً نجمة الصبح في روعة لم ترتعها قبلاً

(١) لقد ضللتنا الذاكرة في اسم الملك البابلي الذي كانت استير الاسرائيلية تتشفع لديه بشعبها اذ كان يحبها الى ان نبهنا احد الادباء لهذا الخطاء واذكرنا بأن ذلك الملك هو احشويرش . وأما مردخاي فهو عم استير . فنلتمس من القارىء ان ان يصحح بقلمه مافات في الصفحات الماضية من ذكر مردخاي

الفصل الحادي والثلاثون

قنابل عواطف

ما ان خرج يوسف الدرويش حتى دخلت زمردة فراعها ما رأت من روعة سيدتها نجمة وهي متكئة ثلهث من شدة التأثر وقد وهنت قواها فأسرعت اليها وقالت : بربك ياسيدتي . ماذا بك ؟

فنظرت فيها نجمة غاضبة وقالت : — اين كنت الآن يا شقية ؟

— هنا ياسيدتي . ماذا جرى ؟

— يدخل الناس ويخرجون وأنت لا تدرين . فكيف تكونين هنا ؟

— ويلاه . سيدتي . من دخل ؟

— الدرويش يا تعسة

فصاحت زمردة : ويلاه . حياتي . دمي . سيقتلني سيدي الباشا

— اين كنت يا لعينة ،

فجزعت زمردة جزعاً شديداً وهي تقول

متلجلجة في الكلام ناحبة باكية : كنت يا سيدتي اوامي عزيزتك لعيمة الزينبية لانها جاءت لكي تقابلك وكانت في شديد التأثر من امور لا اعلمها . فماوصلت الا واهية القوى . ولم تشأ ان تدخل عليك في هذه الحال فأدخلتها الى غرفة اخرى وانشغلت بتقديم المنعشات لها

— يا لله هل هي في حالة اغماء ؟

— لقد حسن حالها جداً يا سيدتي وهي تلتمس مقابلتك

— ادعيها حالاً يا تعسة

— بربك يا سيدتي . الباشا سيقتلني

— لا تخافي . أشفع بك . ادعي الفتاة

في لحظة دخلت لعيمة وخداها متوردان وارتمت عند قدمي نجمة . فتلقتها نجمة في الحال بين ذراعيها وضمتها قائلة : ما بك يا عزيزتي لا تزيدي جزعي . ماذا جرى . اجلسي وأخبريني ؟

وكانت الفتاة في حالة ارتياع شديد فجلست وهي لا تكاد تملك روعها وقالت : سيدتي : الدمشقي

— ماذا جرى له ؟ ويلاه !

— سيعدمونه

— رباه ! من قال لك هذا ؟

— عثمان بيك

— وماذا يهمك انت من امره ؟ خليل خطيبك عفي عنه . والحارس عفي عنه . فلا تهتمي بأمر الدمشقي . ولا ترتاعي

— سيدتي . عثمان بك يكاد يجن لأجله

— عجباً . لماذا ؟

— لأن بينهما صلة دم . يكاد عثمان يجن يا . . . اماه . . بربك انقذي الدمشقي

فتأثرت نجمة الصبح شديد التأثر وقالت : كأنها تكلم نفسها : ويلاه . لعلّ هذه فواتح الويلات التي تنبأ بها ذلك الدرويش الشقي يوسف الروضي . ما هي الصلة التي بين عثمان بك والدمشقي ؟

— لا ادري يا سيدتي . يقول عثمان بيك انه اكتشف حقيقة الدمشقي وعرف انه قريبه القريب . ويكاد ينتحر اذا لم يستطع انقاذه . فبربك يا سيدتي انقذيه لاجل خاطر عثمان لان عثمان صنع خيراً عظيماً معي .

وجعلت الفتاة تنتحب فتألمت نجمة وقالت : آه . ويلاه . لا ادري كيف انقذه وقد كلمت الباشا عنه ورجوته فقال ان أمره في يد الديوان العرفي . وهو لا يريد ان يتداخل بشؤون هذا الديوان . فالواسطة يجب ان تكون في الديوان نفسه اذا لم يكن قد صدر الحكم

فتنهدت الفتاة لعيمة وقالت : اماه . . لم يصدر الحكم بعد ولا تمت المحاكمة . ولكن يقولون ان كل حكم مقرر . الا تعرفين احداً من اعضاء الديوان ؟

— وماذا تفيدنا معرفة واحد فقط يا بنتي . وكيف يمكن ان نتوسل الى كثيرين ونسترحمهم او نرشيهم

— الا يكفي ان نتوسلي الى رئيس الديوان حسن بك العظيمي

— اوه . هذا صلب متعصب وقد يكون

لشيماً . ثم ان وساطة الرئيس وحده لا تكفي اذا اجمع الاعضاء او كانت اكثريتهم ضده . فلا فائدة من رأيه

— اذاً ما العمل ؟

— اوه . لا ادري . من قال لعثمان بك انهم سيعدمون الدمشقي

— لا ادري . هو يسائل دائماً بعض المتصلين باعضاء الديوان العرفي . ان عثمان خارج الدار ينتظر نتيجة مقابلتي هذه . فهل تؤذنين بحضوره لعله يفيدك اموراً

— لا بأس . استدعيه الى هنا . فلبث حالاً وخرجت نعيمة وبعد دقائق عادت مصطحبة عثمان . فاستقبلته نجمة مرحبة ومتكلفة الابتسام ولما جلس سألته : كيف عرفت انهم سيعدمون الدمشقي

— ابلغني أحد العارفين سراً انه تقرر اعدامه

— عجباً . أقبل ان يصدر الحكم عليه ؟ ألا يمكن أن يكون بريئاً ؟

— نعم وانما المدعي العمومي سيثبت عليه الجريمة . والمحامي عنه مسخر فلا يستطيع الدفاع عنه

— عجباً . ما هذا الديوان العرفي . وما الغرض منه اذا كانت اجراآته تترتب من قبل حسب الاهواء

— الغرض منه يا سيدتي ان يكون حجة على العدل والحق في التاريخ . فلا يقال ان فلاناً اغتال فلاناً . بل ان الديوان العرفي حاكم فلاناً فوجده مجرماً فحكم عليه

ففكرت نجمة الصبح وقالت : من هو المدعي العمومي ؟

— احمد السيفي بك

فقالت نجمة مفكرة : احمد بك السيفي ؟ اتذكر اني رأيت هذا الرجل مرة في مجلس الباشا . واذكر انه ترك في نفسي اثراً حسناً لما توسمته من نباهته وانفته وشرف نفسه . فلا أكاد اصدق ان رجلا فيه هذه الاخلاق يقبل ان يحاول تجريم متهم عمداً . ولذلك لا أظنه يقبل رشوة او شفاعة اذا كان يرى ان المتهم مذنب حقيقةً . ولذلك أرى المسألة صعبة جداً . لان الباشا بالرغم من توسلي عنده قال لي انه لا يقدر ان يتداخل في مسألة اصبحت بين يدي الديوان العرفي

فتململ عثمان بك وقال متضرعاً : مولاتي ان دولة الباشا هو الديوان العرفي . والا فما كان الديوان يبرىء جميع المتهمين الا الدمشقي فيجرمه

فتجهمت نجمة الصبح وقالت : لله . ماذا تقول يا بيك ؟

— اقول يا سيدتي ان هناك تدبيراً سرياً وهو ان المدعي العمومي سيبرهن للديوان ان الدمشقي هو صاحب هذه الحركة للثورة وانه دعا هؤلاء الاشخاص لاجتماع يعلمون ان الغرض منه البحث في امور اقتصادية لخلاص الشعب من المجاعة . ولكنهم لما اجتمعوا وجدوا انه خدعهم . ولهذا سيبرهن الديوان ويحكم على الدمشقي وحده بالاعدام

فابتسمت نجمة في ابان تأثرها وقالت : عجباً . ان هذا «التياترو» غير معقول يابيك . لاجل غرض اقتصادي لا يقبلون كلهم الدعوة الى كهف سري . فاما ان يكونوا كلهم مجرمين أو كلهم ابرياء

— «في التياترو» ياسيدتي يجوز ما لا يمكن حدوثه في الحادث الحقيقي .

— لقد علمت انك كنت حاضراً خلسة في الكهف تسمع مناقشة المتآمرين فما هي شهادتك ؟

— لا يستدعونني للشهادة . ولو استدعوني لكنت اجعل روح الاجتماع حسنة من غير ان اكذب . ولكنهم لا يطلبون شهادتي

ففكرت نجمة برهة ثم قالت : لا أرى حيلة الا في استشفاع المدعي العمومي اوارشائه . ولكن ليس لي على هذا الرجل اقل دالة

فقال عثمان بيك متوسلاً : مولاتي لا تأثير لأحد في هذه المسألة الا جمال باشا . وهو يكرمك ولا بد ان يقبل رجاءك

— لقد ترجيته كثيراً فاذا هو مصر على ترك المسألة للديوان العرفي وسأعيد الكرة عليه . على اني مستغربة كل الاستغراب لماذا يريدون تبرئة الكل الا الدمشقي

فازدرد عثمان لعابه وقال : مولاتي يظهر أن الجميع موافقون على اقتراح سري لم يشأ الدمشقي ان يوافق عليه

— عجباً . ولماذا هذا العناد ؟ لماذا لا يجاري رفاقه

فتململ عثمان وقال همساً : مولاتي ان الدمشقي حر لا يقبل بما قبلوا به ولو اعدم

— بماذا قبلوا ؟

— لست اعلم حقيقة الاقتراح ياسيدتي . وانما هكذا سمعت

— وهل كلهم قبلوا ؟

— لا تزال المسألة تحت المفاوضة سراً بطرق غير رسمية . فمن لا يقبل يكون نصيبه نصيب الدمشقي . والظاهر ان معظمهم راضون بالاقتراح وربما رضوا كلهم أخيراً الا الدمشقي . ولهذا اصبح الحكم عليه مقرراً

فاستغربت نجمة الصبح الامر جداً وتأثرت اذ رأت الفتى على ما فيه من نشاط ورجولية يكاد يبكي من التأثر فقالت : وما هي نسبتك للدمشقي حتى همك امره الى هذا الحد

فتململ الفتى وقال : مولاتي ان دمي الذي يطوف في عروقي من دمه وانفتي من انفته . وما عندي من نخوة ومروءة ووفاء فمنه موروث

— اذاً هو أبوك ؟

— بل ابو ابي

— نعم الجد . لا ريب انه كما تقول . فمن هو يا ترى . الى الآن لم يذع اسم احد من اعضاء هذه الجمعية . فاستغرب الامر

— نعم ياسيدتي . كل شيء يحدث في العالم لقصد ولغاية . قد عرف الديوان العرفي والباشا اسماءهم جميعاً وانما ابقوا اسماءهم مكتومة حتى يتسنى تنفيذ الاقتراح الذي هو موضوع المفاوضات السرية الآن .

فتعجبت نجمة وقالت : اذاً يعرف جمال من هو الدمشقي جدك ؟ — نعم

— ترى هل يمتنع عليك ان تخبرني اسمه. لعل حديثي مع الباشا يستلزم ان اذكره باسمه

— هو يا سيدتي الامير محمد نصر الدين الدهري

فما انتهى عثمان من هذا الكلام حتى أصابت نجمة رعشة زلزلت عظامها واسلنقت على المقعد تنتفض انتفاضاً فجزع لأمرها عثمان ونعيمة واستدعيا حالاً زمردة . فأتت هذه بالمنعشات وجعلوا جميعاً يعالجون نجمة الصبح من مثل اغماء وهم مدهوشون لما حصل مستغربون الى ان فتحت نجمة عينيها وتكلفت الابتسام وقالت : عذراً . لا تؤاخذوني . نوبة عصبية تطرأ عليّ أحياناً

فقال عثمان : اخاف ان أكون قد قلت أمراً يسوؤك يا سيدتي .

— لا . لا . لقد انقضت النوبة فلا تخافوا وسأبذل جهدي لدى الباشا لأجل الدمشقي

فودعها عثمان ونعيمة وخرجا مستغربين آسفين لا يدريان سر ما حدث ولا كيف يؤاسيان «نجمة الصبح»

الفصل الثاني والثلاثون

الحلية ، الحلية ، الحلية !

كان احمد بك السيفي في غرفته صباحاً حين دخل عليه الجندي (المراسلة) الذي يخدمه وقال له : مولاي هنا سيدة ترجو مقابلتك

— من هي . وماذا تريد ؟

— لم تشأ ان تقول . تريد مقابلتك شخصياً .

— دعها تدخل

فشعر احمد بك بخفقة فؤاد لم يستطع تعليلها وذلك حين دخلت اليه فتاة متزرة بالازار الاسود وقد رفعت النقاب عن وجهها وتألقت مقلتاها الحوراآن وتلهبت وجنتاها الورديتان وشع ثغرها ابتساماً . فما وسعه الا ان وقف لها وصافحها بكل احترام ورحب بها وقدم لها كرسياً . وما ان جلست الفتاة حتى وقعت عينه على الحلية المصرية الزي التي رآها القارىء في عدة مواضع — رآها احمد بك السيفي معلقة بسلسلة ذهبية في صدر تلك الفتاة وهي نعيمة الزينبية . وما وقع نظره على الحلية المذكورة حتى شعر برجة عصبية في كل بدنه وشعر كأن في الحلية قوة مغنطيسية جذبت الى صدر الفتاة لبه وقلبه ونظره جميعاً .

وما خفي أمره على الفتاة اذ لاحظت فيه اضطراباً واستغربت انه ينظر كثيراً الى صدرها فظنت ان فيه شيئاً شاذاً او غير لائق فالتفت

يدها على صدرها ونظرت في ثوبها فوق صدرها كأنها تستر عيباً . ولكنها لم تجد شيئاً غير اعتيادي النظر . فارتبكت وازدادت وجنتاها توردا

فشعر احمد ان نظره المتواتر الى صدرها أثار الريبة في نفسها فقال : عفواً وعذراً يا سيدتي . لقد اساءت الادب في تكرار النظر الى هذه الحلية التي في صدرك . انها تشبه كل الشبه حلية عندنا ولها تاريخ

فاضطربت الفتاة وقالت : نعم ان هذه الحلية غريبة تستلفت النظر . ولما رأيت مثلها فلعل من محاسن الصدف ان تشبه حلية عندكم يا سيدي البيك . ولعل بين الحليتين فرقاً

— لا ادري ما هو الفرق بينهما لاني منذ زمان طويل لم اعد ارى تلك الحلية وانما اذكر جيداً انها كانت مرصعة كهذه بالاحجار الكريمة برسوم مصرية قديمة كهذه وكانت هدية لجدتي من حرم المغفور له اسماعيل باشا يوم زار جدي مصر مع عيلته ، وزار ذلك الخديوي الكبير وبقيت تلك الحلية عندنا تذكاراً جميلاً لتلك الزيارة ، ثم منحتها جدتي لامي

وكانت نعيمة تسمع الحكاية مختلجة البدن كان سراً يدب في جوف هذه الحكاية دبيب الصهباء في ثنايا النهى فقالت : وماذا كان مصير تلك الحلية ؟

— لا ادري يا هانم . لا ادري

— وهل اهدتها والدتكم المحترمة لاحد ؟

وحدث بين احمد بك ونعيمة اهتزازات اثيرية كالتي تحدث بين عدتين لاسلكيتين رجت اعصابهما وشغاف قلبيهما وقال احمد متلجلجاً : لا أدري يا سيدتي لا أدري . لا ادري

فشعرت كأنه لا يريد ان يقول ، وهي احست كأنها تريد ان تعرف . فقالت مرتبكة : عذراً وعفواً يا سيدي لتسآلي فيما لا يعنيني

— كأنك يا سيدتي تقفلين علي باب السؤال فقد كنت انوي ان اسألك من اين لك هذا الحلية ؟ من باعكها او اهداكها ؟

— وجدت معي منذ طفوليتي يا سيدي ولا ادري من اودعها معي .

— عجباً . كيف ذلك ؟

— ذلك لاني عشت يتيمة الابوين . ولا أدري من منهما ترك هذه الحلية معي .

فازداد اضطراب احمد بيك وقال : من كان ابواك ؟

لا أعرف يا سيدي

— عجباً عجباً !

لا انكر عليك حقيقة امري . اني ربيبة ابوين كنت اظنهما ابوي الحقيقيين الى ان مات الاب فعلمت اني بنتهما بالتبني . وبقيت حتى اليوم جاهلة ابوي الحقيقيين

وهنا جرى بينهما حديث روت فيه نعيمة حكاية سر مولدها كما عرفها القارىء حين روتها لعثمان ولنجمة الصبح . وكان غرضها من رواية هذه الحكاية ان تعلم ان كانت هذه الحلية التي استلفتت نظر احمد بك السيفي تكتنف سر مولدها وحقيقة ابويها

اما احمد فكان يسمع الحكاية وهي ترى وجهه يتلون حسب حوادثها ولا سيما حين ذكرت خطيبها خليل الرحماني . فرأت عيني احمد بك تزمهران وقد اشتد اضطرابه ولما انتهت من الحكاية قالت : عسى ان يكون سيدي قد وجد علاقة لهذه الحلية بحلية جدته . لعلها هي هي بعينها

فانتفض وقال : لا ادري ياسيدي لا ادري لاني منذ زمان .... لم ار الحلية

— لعل سعادتك تسأل حضرة الوالدة المصونة عنها . فان لم تكن عندها فلا بد ان تخبرك ماذا فعلت بها . ولمن اعطتها . فقد تكون هذه الحلية هي اياها بعينها . لقد اصبح يا سيدي يهمني ان اعرف من اين لي هذه الحلية عسى ان اعرف من كان ابواي

فتململ احمد بك وقال : لا ادري ياهانم لا ادري . لعلها لا تشبه تلك الحلية الا بعض الشبهة . منذ عهد طويل لم اعد اري تلك الحلية

فنزعت نعيمة الحلية من صدرها وقالت : ارجو سعادتكم ان تأخذ هذه الحلية معك وتعرضها على سيادة الوالدة وترى ماذا تقول

فانتفض احمد بك وقال : لا لا . دعيها معك يا سيدتي : لا اقدر . لا اقدر

— لماذا يا سيدي ؟

— لان أهلي ليسوا هنا . نحن من .... نحن نقيم في الاستانة

— اذ شئت فارسل الحلية الى الاستانة واكتب الحكاية لاهل سعادتكم

— لا لا . لاداعي لارسال الحلية . دعيها معك يا سيدتي ... سأكتب ... دعيها معك

وما خفي على نعيمة اضطراب احمد الشديد حتى تفاقمت هواجسها وصارت تشعر كأن مفتاح هواجسها مع احمد بك هذا . ولكن راعها نفوره من الحلية ورفضه ان يأخذها أو يلبي الطلب حسب رغبتها . ثم قالت : اشكرك عظيم الشكر . ارجو ان تكتب حكاية هذه الحلية لاهلك وتخبرني بعدئذٍ ماذا يكون قولهم

— اخبرك اخبرك . أهذا الغرض شرفتني يا سيدتي ؟

— كلا . لاني لم اعرف قبل الآن انه كان عندك حلية كهذه . وانما جئت لاجل غرض آخر . جئت ولي رجاء بفضل عظيم منك

— ما هو ؟

— سترافع سعادتك غداً بقضية الدمشقي

فاختلج احمد وقال : وما شأنك بذلك ؟

— لا ريب انك تعلم ان الدمشقي مظلوم

— من قال لك اني اعلم ذلك ؟

— لانك ستبرىء رفاقه . فما داموا ابرياء فهو برىء

— من قال لك انهم ابرياء او غير ابرياء وما شأنك في امر كهذا ؟ وبأي جرأة يا آنسة تخاطبينني في موضوع دقيق كهذا ؟ ألا تعلمين ما في الحديث في هذا الموضوع من المسأولية ومن الخطر

— اني اعلم ياسيدي ولكني واثقة من

حلمك وكرم اخلاقك ان تسمع مني الحديث وانا لا أبحث معك في السياسة بل ارجو منك رجاء بفضل .

— ولكني لا استطيع ان اقبل رجاء في مسألة قضائية كهذه . هل تريدين ان ابيع ذمتي وضميري

— لا يا سيدي . معاذ الله . بل بالعكس ارجو منك ان تدافع عن الدمشقي كما تدافع عن سائر المتهمين امثاله كحالهم تماماً . ان كانوا ابرياء كان الدمشقي بريئاً أيضاً

فتململ احمد بك وقال : لا تلحين يا آنسة ما ذا تقولين . لو لم اعتقد بسذاجة قلبك ونفسك لكنت أطلب القبض عليك الآن واطلب معاقبتك على تداخلك في أمر قضائي عسكري لا يحق لاحد التداخل فيه

فجزعت نعيمة وقالت : عفواً وعذراً يا سيدي . ان طمعي بكرم اخلاقك يسوغ لي ان ارجو منك هذا الرجاء ولو عرضت نفسي لخطر العقاب . فلا ازال ارجو منك رجائي . ان الدمشقي مظلوم لانه حر

— وما هي علاقتك بالدمشقي

— لا علاقة لي به ولا أعرفه وانما له علاقة بصديق صنع معي معروفاً عظيماً . ثم علمت ان الدمشقي رجل فاضل جداً حر الضمير . فاضطهاده او عقابه ظلم له . وعلمت انك سترافع ضده وسمعت عنك من الثناء ما حملني على ان اطمع بحلمك وكرم اخلاقك وارفع اليك هذا الرجاء

— اعدك اني لا أتحامل عليه ولا على سواه . سأرافع بحسب ما أمامي من الحقائق

— شكراً عظيماً . وانما اذا كنت تستدعي عثمان بك الذي قبض على العصابة للشهادة كنت تبغي مرافعتك على اساس عادل

— هذه امور لا أقدر أن ابحث معك بها يا سيدتي . ولا اقدر أن اقول لك غير ما قلت . فأرجو منك ان تقتصري عن هذا الحديث حتى لا تضطريني الى الاساءة اليك بتنفيذ القوانين التي اذا لم انفذها اكون مجرماً

— شكراً لحلمك يا سيدي

ونهضت نعيمة مبتسمة وخرجت وهي مخبولة مما رأت وسمعت وتكلمت . واما احمد فبقي كالاخبل أيضاً لا يدري ماذا يعلل ما رأى وسمع وما حدث . وخالجه الظن بان هذه الفتاة جاسوسة تلعب عليه دوراً شيطانياً . ولكن ملامحها ومظاهرها لا تدل على الدهاء والمكر . ثم هذه الحلية ! اشغلت باله

الفصل الثالث والثلاثون

من القنبلة العربية

نعود الى نجمة الصبح او زينب (اسمها الحقيقي) فانها لما علمت ان الدمشقي الذي سيسكب عليه جام النقمة هو ابوها الامير محمد نصر الدين الدهري وان ذنبه العظيم الذي سيعدم لأجله هو وطنيته العربية المتوقدة اضطرمت نار الغيرة في فؤادها وهاجت هياج المجانين. فما صدقت ان خرج من عندها عثمان بيك ونعيمة بنتها وائتزرت بإزارها وتقنعت بقناعها وذهبت الى مركز القيادة العامة ودخلت توّاً الى مكتب جمال باشا. فلما رآها جمال ورأى ما في وجهها من نجهم وما في عينيها من اضطراب استغرب وقال: ماذا حدث يا نجمة؟ لماذا جئت، ماذا تريدين؟

فقالت والغضب يقطب جبينها: جئت اطلب عدلاً. جئت اطلب حقاً. فان كنت لا تعدل ولا تحق الحق فاني انذرك بويل هائل لم يخطر لك في بال

فابتسم جمال باشا ابتسامة المزدري وقال: اجلسي واخبريني أي عدل واي حق تطلبين

— علمت ان الديوان سيبرّىء المتهمين زعماء العرب ويحكم على الدمشقي وحده بالموت

— الى الآن لم تتم المحاكمة فمن ذا الذي يتنبأ؟

— المعلوم جيداً انك انت الديوان العرفي وانت تحكم قبل المحاكمة.

فضحك جمال باشا وقال: ماذا تريدين الآن مني؟

— اريد ان تطلق سراح الدمشقي حالاً

— عجباً. وزير الحربية لا يجسر ان يطلب مني هذا الطلب بهذه اللهجة

— ولعلّ السلطان نفسه لا يستطيع ان يطلب هذا الطلب منك ولكن الحق يطلبه بأشد من هذه اللهجة

— وهل انت وكيلة الحق؟

— بل انا لسان الحق الملتهب الذي يلذعك اذا لم تفعل

— لا افهم لماذا هذه الشفقة على الدمشقي وهو صاحب القلب الصواني الذي لا يلين والدماغ الفولاذي الذي لا يتكسر

— لأنه وحده الذي ستصب عليه جام نقمتك. واما البقية فستدعهم. وانما صلابة قبله ودماغه هما فضيلته

— ولكن هذه الصلابة ضارة ومؤذية بل خطرة جداً

— اذاً ذنبه صلابته لا خيانته. ورفاقه ابرياء لانهم لينون لا لأنهم موالون

— نعم نعم . لقد فهمت ذنبه وهو ذنب عظيم خطر

— اود ان تفصح فقد يتسنى لي ان الين ذلك القلب والدماغ

— لا شأن لك بهذه الأمور يا نجمة والأفضل ان تعودي الى خدرك

— بل لي كل الشأن ولي في هذه المسائل كل النفوذ . واذا لم تدع لي شأناً فيها عرضت نفسك لويل هائل . اني منذرتك من خطر عظيم . فاذا لم تذعن لنصحي ندمت ندامة الكسعي . اني اقيك من هذا الشر واتلافى هذه الندامة

— لا افهم ما هو شأن مرأة عربية قضت عليها شريعة قومها ان تقضي حياتها سجينة في خدرها — لا افهم ما هو شأنها في امور سياسية وحربية خطرة . فلهذا انصح لك ان تبتعدي عن هذا الخطر

— بل انا انصح لك ان تبتعد عن خطر الانفجار . ولا تحسب المرأة العربية الحبيسة في خدرها عدماً او جسماً لا حركة فيه . انما هي سن القنبلة التي اذا طرقت قدحت الشرر والهبت ديناميت القنبلة فينفجر . وهي التي اذا لم تقدح شرراً لا تنفجر القنبلة . فاذا شئت يا جمال ان تتلافى خطر الانفجار العربي فاستعذ بالله من سن القنبلة . انا سن القنبلة

فقهقه جمال مستهزئاً ولكنه في نفسه كان معتبراً . فقال : وماذا تستطيعين أن تفعلي حتى تتداركي الانفجار

— استطيع ان الين ذاك القلب الصواني وذاك الدماغ الحديدي حتى اذا ضربت السن عليه لا يقدح شرراً ملهباً الديناميت وفاجراً القنبلة

فتبرم جمال وقال : ماذا تعلمين عن هذه القنبلة التي تتذرين بانفجارها

انا عالمة انك تتحكك الآن بقنبلة الحركة العربية الهائلة وتداعبها وتلعب بها . فاخاف ان تضغط على سنها فتنفجر بين يديك وتنسفك وقومك . انها قنبلة شديدة الانفجار عظيمة الخطر ولهذا كنت انصح لك ان تتحد بها وتكون انت سنها فلا تنفجر الا حين تشاء ان تفجرها فلا تكون خطراً عليك بل قوة لك

فقلّ هنا ازدراء جمال ونظر الى الحديث بعين الاعتبار وقال . ماذا تفهمين من الحركة العربية يا هذه

افهم انها حركة مباركة ونبيلة الغاية . حركة آئلة الى توحيد قوات العرب في جسم واحد وهذه القوة المتحدة تكون خير ترس لوقاية الخلافة وبالتالي تكون خير ظهير للترك ما دامت الخلافة فيهم وهم محافظون عليها . ولهذا نصحت لك ان تكون في رأس هذه الحركة فتحسن ادارتها من جهة وتكون خير صلة بينها وبين الترك فلا يسوء هؤلاء بها ظناً . فهل ترى أجد من هذا المشروع ؟ وهل ترى اضمن منه عضداً للدولة

— الفكرة جميلة جداً ولكنها نظرية محضة

— جميع الحقائق كانت نظريات في الاصل ثم تحققت

— نعم ولهذا ستصادف هذه النظرية مقاومة شديدة في اول الأمر من الترك . ولا يحسنون الظن فيها ما لم يروا البراهين على محامدها وعلى اخلاصها لهم . والا فانهم يحسبونني خائناً ويقاومونني بكل قوتهم

— لك عند اعلان الاستقلال العربي ان تعلن هذه المحامد وهذا الاخلاص وتشرع بالتنفيذ طبق الاعلان

— حسناً جداً . هذا ما رأيناه ولكن صاحبك الدمشقي وحده يعارض . ولهذا يجب ان يزال من الطريق لئلا تكون معارضته حجر عثرة في سبيل الحركة العربية الجديدة فتعثر وتتحطم قبل ان تبلغ الى غرضها الامين

— عجباً ! الدمشقي يعارض ؟

— نعم هو المعارض الوحيد والبقية كلهم تقريباً موافقون على هذه الخطة . وان ظهر فيهم من يعارض اضطررنا الى ازالته حتى لا تفشل الحركة .

— اني استغرب انه يعارض مع انه اكثر اولئك الزعماء نفوذاً واشدهم باساً . ترى ما هو رأيه ؟

— يريد استقلالاً تاماً مطلقاً ولا علاقة للدولة العربية الجديدة مع الترك الا علاقة محالفة كمحالفة انكلترا مع اليابان مثلاً ، مع انه معلوم ان علاقة العرب بالترك اشد والصق جداً من علاقة الشرق الاقصى بالغرب الاقصى

— صدقت صدقت . وما دامت الخلافة عند الترك فالعرب مدينون للترك بمحالفة متينة

— اليس كذلك ؟ . لهذا ارتأيت ان نعلن استقلال العرب تحت سيادة السلطان الاسمية لانه خليفة وبهذه الطريقة نقنع الترك باخلاص هذه الحركة العربية ونتقي مقاومتهم

— نعم . نعم . كذا يجب ان يكون . فلهذا اسمح لي ان اقابل الدمشقي وانا اتعهد لك اني اقنعه ، وتزول هذه العقبة من السبيل

— لا ادري كيف تقنعينه

— هذا سر لي لا تهمك نتيجته .

— لا اقدر ان اقتنع انك تستطيعين اقناعه اذا كان الوعيد تارة والتهديد اخرى لم يكسر شظية واحدة من صوان دماغه

— طبعاً لا تقدر ان تظن اني استطيع اقناعه ما دمت تعتقد ان المرأة العربية صنم موضوع في الخدر للزينة . فانا سأريك ان المرأة العربية نصف قوة العرب

فابتسم جمال وتهلل وقال : — ان نجحت يانجمة كنت فخراً لجمال وكنت ملكة العرب . فاذهبي وقابلي الدمشقي . هذه ورقة جواز مرور . اعلمي ان المسألة موقوفة على لين هذا الدمشقي العنيد . فان لم يلن استحال علينا ان ندعه يفلت من عرينه ويطوف بين العرب لئلا يدك اساس الدولة العربية الذي نبنيها عليه الآن . فابذلي كل حكمتك وكل نفوذ في كلامك . سأتعملي سحر فكرك

الفصل الرابع والثلاثون

ايقاظ العواطف القديمة

كان الدمشقي الأمير محمد نصر الدين الدهري يجلس على سجادة صغيرة في حجرة وحده في سجنه يقرأ تارة القرآن الشريف وأخرى يسبح بسبحته وأحياناً يخرج الى فناء السجن يتمشى . وقد منعوا اختلاطه بسائر زملائه

في ذلك العصر وهو يقرأ نهبه حفيف من جهة الباب ، فنظر فاذا شبح مرة في ازارها مقنعة بقناع اسود واقفة في الباب . فسدد اليها نظره وسهام الغضب تراش من قومي حاجبيه متتابعة وذلك الشبح لا يتقدم ولا يتأخر الى ان قال : — من ؟

فلم يجب الشبح . فقال : ما هذا ؟ ومن هذا ؟ أجن نذير بالردى ؟

فاجابت المرأة بصوت خافت متهدج : — كلا يا سيدي . بل ملاك بشير بالحياة

— اني حي الى الآن فلا شأن لهذه البشارة

— بل انا البشير الذي يبشرك بزوال ذاك النذير الذي انذرك بالردى

— الموت والحياة في يد الله وليس لانس أو جن ان يبشر او ينذر . فماذا تريدين يا امرأة هنا ؟ وكيف دخلت الى هنا ؟ ومن اذن لك ؟

— مولاي ! ان العناية الالهية ارسلتني الى هنا وهي لا تعجز عن تسهيل السبيل وفتح الباب لي

— العناية الالهية في غنى عن التذرع بالعباد الى تنفيذ مقاصدها . فلا تكذبي يا امرأة عن لسان باريك . قولي من انت وماذا تريدين ؟

فتململت المرأة وقالت : مولاي اني انس لا جن ولا شيطان . فاذا كنت لا تثق اني آلة في يد العناية فلا يحق لك أن تفترضني رجيماً شريراً في جسم انسان . لان الله خلق اناساً صالحين وما زال بعضهم صالحين

— سواء اكنت صالحة أو شريرة فلا فرق عندي . اني معتصم بحبل الله في كل حال . فقولي ماذا تريدين

— هل تأذن ان اتقدم للامتثال بين يديك

— لا . اني اسمع كلامك من حيث انت واقفة

— لعلك توجس مني شراً وتخاف غدراً

— لست اخاف من زبانية الجحيم لان نفسي بعيدة عن متصل اهل صقر فكيف اخاف من اباسة البشر . وانما لم تبق لي رغبة في تجديد علاقة مع آدمي لاني رأيت بني آدم يشدون بي الى اسفل ونفسي تصعد بي الى فوق . فقولي ماذا تريدين ولا تمطلي في القول

— اريد قبل كل قول ان اثبت لك اني

رسول العناية الالهية . ولطالما اعلنت العناية الالهية ارادتها عن يد مخلوقاتها . فان كنت تصر على رفض رسول العناية الالهية كنت جاحداً نعمة الله تعالى. فهل تصر على الرفض؟

فتململ الامير محمد نصر الدين الدهري وقال : تقدمي . ماذا تريدين ؟

فتقدمت المرأة الهوبنا وهي مترددة وجلة مضطربة الى ان اصبحت على قيد باع من الامير فقال منتهراً : قولي ماذا تريدين ؟

ففهمت انه لا يريد ان تتقدم مزيداً . فجثت في الحال على قيد متر امامه ومدت يدها . فنظر الأمير فاذا في يدها شيء يلمع فالمع النظر فيه . ثم مد يده وهي ترتجف واخذ ذلك الشيء باصابعه بكل تؤدة ونظر فيه فاذا هو الحلية التي رآها مرة مع عثمان بك وكانت سبباً في نجاته له واعانته على النجاة من نقمة اخوان العهد . فاضطرب عظيم الاضطراب وقال بصوت منهدج : ويلك ؟ هذه كانت مع الجندي عثمان بيك فما علاقتك به

— نعم كانت معه برهة وانما هي لي أولاً وآخراً ولا صلة لي بعثمان بك الا صلة صداقة متأخرة

— اذاً كيف كانت معه ؟

— اغتصبها من صديق حميم كنت اعطيتها اياه عربون وداد وتذكار عهد

— من هو الصديق الحميم ؟

— هو علي الرحماني ابن المرحوم خليل الرحماني

— أعرفه . ولكن كيف عرفته انت

— عرفته منذ الحداثة اذ كان ابوه صديق ابي

— صديق ابيك ؟ من ابوك ؟

— اعني ابي الذي تبناني وهو حامد افندي نسيم

— تبناك ؟ — نعم

وكان الامير يزداد اضطراباً ثم قال : و... و . . . ومن اين لك هذه الحلية ؟

— وجدت معي منذ طفولتي . ويظن الزوجان اللذان تبنياني انها كانت معي تذكاراً لي من امي الحقيقية

فجعل الامير ينتفض وقال : اما علمت شيئاً عن امك ؟

— الى الآن لم اعلم شيئاً عنها واود ان اعلم ولا أدري كيف اعلم . ولهذا لجأت اليك

— عجباً . لماذا تلجئين الي ؟

— لاني علمت انك رأيت هذه الحلية قبل الآن مع عثمان بك وتأثرت من رؤيتها . فقلت في نفسي لا بد ان تكون عالماً بامرها وبامر من كانت معه قبلي

واشتد انتفاض الامير وتلجلجه في الكلام وقال : ويلي من الاقدار . ويلي من صروف الزمان . ماذا تريدين ان تعرفي يا بنيتي ؟

— اريد ان اعرف مع من كانت هذه الحلية قبل ان تصل الي ، او مع من كانت بعد ان فارقتك ان كانت قد وجدت عندك في زمن من الازمان . فبالله ياسيدي اصدقني الخبر

فمد الامير يده بالحلية الى الفتاة يردها اليه فامسكت هي بيده بكلتا كفيها وهي تقول : بربك يا مولاي اصدقني الخبر . ان نفسي ظمآنة الى أمي التي ولدتني ، الى ابي الذي كان سبب وجودي . اخبرني يا سيدي ما تعرفه عن هذه الحلية . رحمةً . رحمةً

فشد الامير يده فانجرّت الفتاة معها حتى صارت عند حجره وانحنت على يده تقبلها ، وتغسلها بدموعها وهي لا تزال تقول : اخبرني يا سيدي

فقال : ويحك . ماذا اخبرك ؟ هل افتح لك سفر شقائي وتعاستي ؟ هل اقلب لك صفحات آلامي وأحزاني ؟ هل اطلعك على كتاب عاري وخزيي . دعيني يا بقية دعيني . فقد جاء حكم القضاء ليستر عاري . فلماذا تريدين ان تمزقي هذا الستار ؟

فاغرقت الفتاة بالبكاء وهي تقول: مولاي اكشف لي سري . اطلعني على مجهول اصلي . ولا تدعني دون سائر بنات الناس كريشة في مهب الرياح . رحمةً داني على الصدر الذي يجب ان يضمني

فما تمالك الامير ان القى ساعده الاخرى على ظهر الفتاة وضمها الى صدره وقبل شعرها وتنشقه قائلاً : هذا هو الصدر الذي يجب ان يشملك يا بقية حشاشاتي . لقد وجدت تعزية قبل يومي الاخير . فارجعي يا بنيتي الى عالمك البشري ، واحتفظي بهذه الحلية تعويذة لك من محارب الشيطان . العالم كله لك فانضمي الى صلاحه . ولا تسلي عن أب ولا أم فلا اب ولا ام يدومان . للوالدين بنوهم وبناتهم وللبنون والبنات العالم . فعودي يا بنيتي الى عالمك ودعي سرك يدفن معي

— كلا كلا يا سيدي انت لا تدفن بل يجب ان تعيش

— ولماذا اعيش يا بنيتي وقد فقدت ولدي ابني وبنتي

— ولماذا تقنط من رحمة الله يا سيدي فلعل الله يجمع شملك بهما .

— لقد ماتا — هل انت واثق ؟

— اني واثق انهما ماتا نفسين ولا أدري بمصيرهما جسدين

— كيف تحكم بموت نفسيهما يا سيدي وما أنت الديان صاحب القضاء على النفوس

— ويحك لا تستخرجي ضميري من من وكره . ان ابنتي قتلت شرفها وابني قتل طاعته . فهما ميتان لي . وقد قضيت عهد كهولتي وشيخوختي اندب ولدي اللذين فقدت شرف احدهما وطاعة الآخر . فحسبي ماقاسيت وعانيت

— لا تقنط يا سيدي من رحمة الله ان الله رحوم غفور . فاذا كان الله قد غفر لهما وطهرهما من ذنبيهما ورحمك بان ردهما لك فلماذا لا تعيش

— ان الله رحوم غفور ولكن البشر لا يرحمون . يطهر الله بنتي من اثمها ولكن عارها لا يمحى عني يا بنتي .

— مولاي ان الزمان يمحو العار . فاعتصم برحمة الله واسأل عن ولديك

فضمها الامير الى صدره وهو يرتجف تأثراً وقال : آه ولدي . آه ولدي . أبعد غضب دائم الاتقاد وجفاء شديد وبين لا يقاس بالابعاد والازمان يمكن ان يجتمع الشمل

— سيدي ! ان النفوس الطاهرة المتحدة والقلوب النبيلة الاصل لا تحول بينها الابعاد والازمان ولا تحرقها نيران الغضب ولا تفرقها شدائد الجفاء . اعتصم بحبل رحمة الله . ودعنا نبحث عن ولديك لعل ابنتك امي او ابنك ابي

فاصبح فؤاد الامير كالشمع ليناً وجعل ينحب ويقول ولدي . بنتي زينب . ابني احمد . رباه ابن هما ؟ أفي هذا العالم أم في العالم الثاني ؟ اين ابحث عنهما ؟

* * *

عند ذلك سمعا صوتاً يقول : ها أنذا يا أبي . ها أناذا يا أبي

فالتفت الامير فاذا مرأة أخرى بادية من الباب وهي تتقدم الهوينا . فجعل ينتفض انتفاض العصفور وهو يحملق فيها وهي لا تزال تتقدم الى ان جثت الى جنب نعيمة الزينية ورفعت نقابها عن وجهها وقالت : ها أنذا يا أبي عند قدميك اتقبل حكمك علي مهما كان

فصرخ الامير صرخة كادت تدوي في فناء السجن وسائر غرفه قائلاً : زينب . زينب وبحك . هل تقمصت روحك في جسد جنية . ويحك ؟

— أبتاه . ان الله غفر لي وطهر قلبي حتى يردني اليك فأكون تعزيتك في شيخوختك

فصاح ثانية : — زينب . زينب . كفي عارك عني ، فقد جعل رأسي بين اقدام اعدائي . ردي خزيك عني فقد جعل نفسي مذلة لخصومي

— لا . لا يا أبي . لا لا . ما زلت امير الامراء وسيد العرب

— ألا ترينني ياشقية في أي مكان أنا الآن ؟

— ان الاسد في عرينه يا أبتاه . وسيخرج الاسد من عرينه ملكاً

وارتمت زينب على صدره . فما تمالك ان ضمها وهو يذرف دمعات الحنان الابوي ويقول : — آه زينب . آه زينب . هل عدت لتجددي خزيي ؟

وكانت زينب (او نجمة الصبح) قد اغرقت في البكاء فقالت : ابتاه . لقد بالغت في دينونتي والله قد غفر لي . فلا تكن متجاوزاً الى حقوق الله . سامحني يا أبي . الله سامحني

فاستسلم الامير لعواطفه برهة وما تنبه الا اذ رأى المرأتين تتعانقان ونعيمة تقول : لقد وجدت امي يا جدي فأين أبي

فقالت زينب : صه يابنيتي الامور مرهونة باوقاتها . دعينا من هذا الآن لنرى كيف يخرج ابي الامير من هذا القفص الذي لا تحفظ فيه الا الاسود . لقد عرضوا عليك شرطاً معقولاً يا ابتي للخروج فلماذا ترفضه

فصاح بها : ويحك ماذا عرضوا ؟ عرضوا عليّ ان ابيعهم قومي وعشيرتي وامتي ووطني بثمن بخس

— بثمن ؟ وهل تباع الامم بأثمان غالية أو بخسة ؟

— قولي هذا لنفسك

— ما هو الثمن البخس الذي عرضوه

— هو حياتي . فهل ابيع امتي بحياتي . وهل يبلغ مني الحين ان اشتري حياتي بوطني . أين مروءتي العربية ؟ أين وفائي العربي ؟ أين نخوتي . لا . لا . لا أقبل

— ولكني لا أعلم انهم اقترحوا ان يشتروا قومك أو عشيرتك أو وطنك

— اذاً ماذا علمت ؟

— علمت انهم يريدون ان يؤلفوا دولة عربية تكون تحت سيادة السلطان الاسمية باعتبار انه خليفة المسلمين

ليس هذا فقط . بل يريدون ان تكون تابعة للدولة العثمانية كما حق لها وان تبقى للدولة سلطة ونفوذ عليها

— ولكنهم لا يقولون هكذا

— يفعلون ولا يقولون

— كيف تعرف انهم يفعلون من غير ان يقولوا ؟

— لانهم يريدون ان الدولة العربية تؤلف بزعامة تركي . والدعوة تصدر من زعامة تركي . والحركة تقوم بقيادة تركي ، وزمام الامة كلها تكون في يد تركي — هو جمال باشا الذي لا تاريخ له الا التنكيل بالعرب . فماذا تنتظرين ان تكون هذه الدولة العربية غير ذيل للدولة الطورانية التي يريد الترك ان ينشئوها ليستعبدوا بها الامم العربية بل جميع الامم الاسلامية الاخرى بقوة الخلافة التي في يدهم الآن ؟

فتململت زينب او نجمة الصبح وقالت : انك لمغال في الظن ومتطرف في الحذر يا أبت . ان الغرض من تسليم الزعامة لجمال باشا هو ان يحسن الصلة بين العرب والترك . والغرض من جعل الدولة العربية تحت سيادة السلطان الاسمية ان تكون هذه الدولة ترساً لحماية الخلافة

— انهم منافقون كاذبون

— ابتاه . ان ٢٣ زعيماً يفهمون المشروع هكذا وهم يوافقون عليه هكذا . فهل كلهم مخدوعون

— لا تصدقي . قد يكون بين زعماء العرب اشخاص راضون فبعضهم خونة وبعضهم جبناء وبعضهم مخدوعون . ولو كانوا يسمحون لي ان اجتمع بهم جميعاً وأن نعقد اجتماعاً ونتشاور في الامر لكنت اريك انه ما من احد يقبل بهذا الاقتراح الا الخائن . ولكن هؤلاء اللئام فرقونا لكي يستحكموا من كل واحد وحده ويقولوا له ان الجميع راضون فيرى نفسه الوحيد الباقي معارضاً فيستسلم ان كان جباناً

— ابتاه . جيعهم سيطلق سراحهم غداً وانت الوحيد الذي يبقى تحت خطر الهلاك فدية للوطن . فلو كانت هذه الفدية تخلص الوطن لما كان ثمت من يأس في التضحية ولكنها فدية تذهب بلا قيمة ولا فائدة . فاقبل بشرط واحد فقط : دولة عربية مستقلة تحت سيادة الخليفة وانا ادبر المسألة

— ومن يكون زعيم الحركة

— لا بد من زعامة جمال تحامياً لمقاومة الترك لانهم لا يحسنون الظن بزعيم عربي

فصاح الامير ناصر الدين الدهري بابنته صيحة دوت في جميع انحاء السجن حتى خرج بعضهم ليستمعوا ما الخبر وقال: ويحك يا ناقصة! هل جئت لكي تجعليني تحت امرة جمال الذي اضطهد قومي ونكل بعشيرتي. لا أقبل البقاء في الحياة الا لمعاونة اقوامي العربية على بناء دولة عربية جامعة جميع عناصر العرب مستقلة مطلق الاستقلال لا علاقة لها بالترك ولا بأي اجنبي ولا ارتباط لها مع أي امة اخرى. فلا تحالف الترك الا اذا استغاثوا بها. ولا تحمي الخلافة الا اذا وضع الخليفة نفسه تحت حمايتها. ولا اقبل زعيماً للحركة العربية الا عربياً صميماً ولو كان من صغار العرب

قدراً اللهم على شرط ان يكون اعزهم نفساً

وكانت زينب ترتجف جزعاً وتخشى سوء المغبة فقالت همساً: ابتاه. مهلاً وتؤدة. لا تغضب ولا يرتفع صوتك. اني اخاف عليك من نقمة .... ان القلوب واجدة عليك لعنادك وصلابتك. فرفقاً بنفسك يا أبي. رفقاً بنا يا أبي

فصرخ صرخة اخرى دوت في المكان ولم تدع غافلاً في غفلة وقال: عني يا شقية. لست بنتي ولا انا ابوك يا أثيمة. أما كفى ما تلطخت بعارك حتى تأتي الآن لتلصقي بي عاراً أشد وساخة واحلك سواداً؟ تباً لك. اخرجي من هنا او اقض عليك بلطمة واحدة. اني افخر بالموت لأجل عزة قومي. عني يا هذه عني

ودفعها بيده فخرجت جازعة تتبعها نعيمة ومضت وهي تقول: لاريب ان الكبر اثر في عقله

الفصل الخامس والثلاثون

ما في غامض علم الله

لم تنم زينب في تلك الليلة من شدة القلق والاضطراب حتى كانت كالمجنونة. وكانت ابنتها نعيمة الى جنبها تبذل جهدها في مؤاساتها وتقوية املها.

وفي الصباح علمت ان الديوان العرفي سيسمع بقية المرافعات في قضية المتهمين زعماء العرب. وابلغها عثمان بيك باسلوب سري ان الحكم سيكون على الدمشقي وحده بالموت واما البقية فيبرأون

فقبل ان يخرج جمال باشا من مخدعه ليذهب الى مركز القيادة دخلت نجمة عليه وقالت بنزق وسخط: قبل ان تخرج يجب ان تعطيني امراً باطلاق سراح الدمشقي الآن

فنظر فيها جمال وقال: يلوح لي انك جننت

— الى الآن لم ازل عاقلة ولكني قد اجن

فعبس فيها قائلاً : اما بقي عندك من العقل ما يكفي لأن تفهمي معنى تصرفك هذا ؟

— نعم بقي

— بأي عقل تطلبين هذا الطلب بهذه اللهجة

— بعقلي الكامل . ان الأمير محمد نصر الدين الدهري اعظم امراء العرب نفوذاً فاذا اصبته بأذى عرضت نفسك للخطر الهائل .

فصاح بها جمال قائلاً : امجنونة انت ؟ الا تعلمين ان اكبر كبير الآن حياته بين شفتي

— نعم لهذا اقول لك يجب ان تطلق سراحه لأنك في حاجة الى رضاه اكثر من غضب قومه

— انه لعنيد متغطرس يجب ان يموت . لقد بلغني امس كل ما دار بينك وبينه من الحديث فناداه قاتله لا انا . يجب ان يموت حتى لا يكون عثرة في سبيل الحركة

فصاحت نجمة الصبح او زينب بكل جسارة : كلا لن يموت . يجب ان يعيش

— انه خائن يجب ان يموت

— انه امين لقومه وعشيرته فيجب ان يطوب

فحمي غضب جمال وقال : ليس هذا شأنك فلا تتداخلي بما لا يعنيك . والافضل ان تعودي الى خدرك حالاً

— لا اعود لأني لست طيراً في قفص . انا انسان له كل الحرية المطلقة . فلا اعود الا اذا كنت تعطيني الآن امراً باطلاق سراح الامير الدهري

— أتعنين انك حرة ان تبقي زوجتي تحت طاعتي او ان تنفصلي عني ؟

— هذا اقل ما اعنيه وهو حق لي

— مهما يكن حقك فاني آمرك بان تعودي الى خدرك الآن .

— اخرج الآن من طاعتك

— لا تقدرين ان تخرجي الا بارادتي

— بل اعلنك ثانية اني حرة ولا اخضع لأوامرك

— انك مجنونة بلا شك وقد تماديت في قحتك فاذا لم تذهبي الآن الى خدرك قتلتك في الحال

— لست اهاب قتلاً

— لا تظني اني امازحك او اتهددك تهدداً فقط . اني اعني ما اقول

وانتضى مسدسه من جيبه وقال : اذهبي حالاً والاّ . . .

وفي الحال احس ان شيئاً وقع على ذراعه واختطف المسدس من يده فالتفت فاذا نعيمة جاثية الى جنبه والمسدس في يدها وهي تقول ضارعة : رحمة ورفقاً يا سيدي القائد . ان حزنها على ابيها قد اخرجها من صوابها . فمذراً ورحمة

— ابوها ؟ من هو ؟

— الامير محمد نصر الدين الدهري

— الامير ابوها ؟ بالاحرى يجب ان يقتل اذاً .

عند ذلك دخل جندي بيده تلغراف ودفعه الى جمال باشا . ففضه وقرأه :

الباب العالي . . . . .
دولة الفائد جمال باشا . . . .
قرر مجلس الوكلاء حضوركم في الحال لامر خطير الشأن يهم الدولة . فحال وصول هذا سافروا الى الاستانة . (سكريتير الصدارة)

فلما قرأ جمال باشا هذا التلغراف تجهم وحملق ونظر هنا وهناك ثم نظر الى نعيمة وقال لها : خذي هذه المرأة الى خدرها وانتظرا اوامري

فجرت نعيمة امها الى خدرها صاغرتين

الفصل السادس والثلاثون

الاعيب الاقدار

انعقدت الجلسة الاخيرة لتتمة محاكمة زعماء العرب . وتكلم احد الضباط المحامي المسخر بعض كلام بسيط مختصر دفاعاً عن المتهمين . ومفاد كلامه انهم لبوا دعوة الدمشقي لاجتماع عام بغية البحث في شؤون اجتماعية غير محظورة ولم يكن لهم غرض سياسي

ثم وقف المدعي العمومي احمد بك السبعي وتكلم كلاماً عمومياً عن طبيعة الخيانات السياسية . ثم قال : ان وكيل المتهمين القى كل المسأولية على الدمشقي والمفهوم من كلامه ان الدمشقي خدعهم . وهنا عندنا شهادة شاهد عيان تنصّ على ان الدمشقي كان يغريهم على القيام بحركة عربية استقلالية فاذا كان المحامي عن الدمشقي المتهم لا يستطيع ان يدحض هذه الشهادة ويدفع التهمة فالمتهم مذنب

فقال الضابط وكيل المتهمين المسخر : لا اقدر ان ادحض شهادة شاهد عيان . ولا استطيع ان ادفع التهمة الا اذا كان الشاهد لا تصح شهادته لسبب قانوني . فمن هو الشاهد ؟

— هو الضابط عثمان بيك العدناني الذي استطاع ان يكمن في مكان مشرف على مجلس المتهمين ويسمع كلامهم . انظر نص شهادته

وما تقدم المحامي المسخر لكي يرى نص الشهادة حتى دوت رصاصتان في الديوان احداها اصابت ساعد احمد بيك السبعي والأخرى اصابت دماغ الضابط المحامي المسخر فقتلته في الحال

والتفت الحاضرون الى جهة مصدر اطلاق الرصاص فاذا الجندي الذي بخفر المجلس يقبض على عثمان بيك العدناني بيدين من حديد وعثمان يقول له : لا تتعب نفسك بالقبض عليّ لست ابتغي الهرب ياهذا . اني مسلم نفسي باختياري والا فما كنت افعل فعلتي هنا بل افعلها في مكان آخر . اني باقٍ هنا اسمع بقية المحاكمة وبعد ذلك خذني الى السجن . اني اود ان اسمع نص شهادتي .

وصاح عثمان اسمعني نص شهادتي ياجناب المدعي العمومي . اسمعني نص هذه الشهادة التي تبرىء الكل الا الدمشقي . لا اخرج من هنا حتى اسمع نص الشهادة . انكم محكمة منافقين وتحاكمون اناساً وطنيين . انتم قضاة خونة تحاكمون مخلصين

عند ذلك كان احد الحجاب قد دخل برسالة ودفعها الى حسين بك العظيمي رئيس المحكمة فلما فضها هذا نجهم وقال : عندنا امر بانجاز المحاكمة سريعاً : فأخرجوا هذا المتهم ، وهذا القتيل وليقل المتهم كلمته الاخيرة ان كانت له كلمة دفاع عن نفسه

وكان احمد بك السيفي لا يزال واقفاً رابط الجأش بالرغم من ان الدم يسيل من ساعده وهو يقبض على مكان الجرح بكفه منعاً للنزف فقال : نعم اسمع الكلمة الاخيرة من المتهم ان كان يستطيع ان يبرر نفسه .

عند ذلك وقف الدمشقي ونزع عن وجهه نقاب تنكره الذي كان لا يزال كاتماً لحقيقة امره كما كان سائر اخوانه حسب امر المحكمة وقال : — نعم . نعم . دعوا الفتى يسمع نص شهادته ان كنتم صادقين . لماذا تخرجونه . يجب ان يبقى لكي يشهد بنفسه . لماذا تأبون على الشاهد حضوره بنفسه والقاء شهادته ؟ وفي اي قانون تكون محاكمة بلا شهود . يجب ان يبقى الشاهد ويشهد . ان الامير محمد نصر الدين الدهري لا يهاب شهوداً ولا حكاماً ولا قضاة ولا افاكين ولا نماذقين . اشهد يا عثمان اشهد بالصدق . بما سمعت وبما رأيت . وليكذبك من يشاء وليصدقك من يشاء . فاسمع يارئيس المحكمة واسمعوا ياقضاة واسمع ايها المدعي العمومي اني دعوت زعماء العرب لاجتماع واقترحت عليهم انشاء دولة عربية مستقلة تمام الاستقلال فمن عارض من هؤلاء المتهمين فليقل عارضت . فلماذا ايها المدعي العمومي تتعب نفسك بمحاولة حصر الجريمة في واحد . اني احصرها في نفسي . اني المجرم الوحيد فاقضوا قضاءكم

عند ذلك رأى الحاضرون احمد بك السيفي يتداعى تداعي النشوان وهو يقول : ابتاه . ابتاه . ويلاه اني اجرم ابي . اني اذنب والدي . هات يا فتى رصاصة اخرى صائبة واقتص مني لابي . اني امالىء الاشرار على ابي .

وجعل يصيح : رصاصتك يا عثمان رصاصتك الثالثة . ولتكن صائبة هذه المرة ، صائبة القلب

عند ذلك رأوا عثمان يتداعى ايضاً وهو يقول : كدت انتقم من ابي لجدي . يالالاعيب الاقدار . ابتاه عفوا ورحمة . لقد اسأت اليك قبل ان اعرفك

وكان الحاضرون جميعاً يرون ويسمعون مبهوتين وهم يظنون انهم يرون رواية تمثل في مسرح . اما الدمشقي فكان ينتفض في مكانه تأثراً وهو يحملق في احمد بيك السيفي ويقول : من ؟ احمد ؟ احمد ؟ ابني ؟ احمد سيف الدين ؟ ابني ؟

فاجاب السيفي وهو يرتجف تأثراً أيضاً : نعم أبت . انا ابنك الضال الشارد . اني افتديك

فصاح الامير الدهري : لا . لا . استمر في مرافعتك . لا تخن عهدك لجنديتك . لا تنكث بيمينك لسلطانك يا ابني اني وايم الحق مجرم يا ابني . وانت يا بني يا عثمان اشهد بالصدق على ماقلت من خيانة وما دبرت من مكايد وما نويت ان ادس من دسائس . لا تكذب ولا تندّ عن الحق . ان هذا ميزان العدل التركي فلا تعطلوه . نعم اني غيور على عشيرتي وقومي وعريبتي بيد اني مجرم لدولة الترك خائن لسلطانها ، خطر عليها . فرافع يا ابني يا احمد واثبت اني مجرم . وانت يا رئيس اقض بالعدل قضاءك على مجرم

وكان في اثناء ذلك يقف المتهمون افرداً وازواجاً وينزعون ثيابهم ويقولون : انا مجرم أيضاً . انا خائن . فكلنا مجرمون

فصاح عندئذٍ احمد السيفي وقال : — اني جندي خائن . خائن لقومي ولدولتي جميعاً فلا يجب ان يبقى خائن

وقطع ازرار بذلته العسكرية وقال : اقبضوا عليّ أيها الجنود . اقبضوا على الخائن عميل الخونة

عند ذلك قال رئيس الجلسة حسن بك العظيمي : يا لله هل نحن في ملعب تمثيل ؟ أو في محكمة ؟ اقفل باب المرافعات الآن وارجىء اصدار الحكم الى حين آخر

وما انى على هذا الكلام حتى اصابته رصاصة في دماغه جندلته . فهاج رجال المحكمة وماجو وتراكض الجنود هنا وهناك ليقبضوا على القاتل فلم يعلموا من هو لان الرصاصة جاءت من شباك

ثم تقدم بعض الضباط الى الخوان الذي كان امام الرئيس وقرأوا الرسالة التي وردت اليه فاذا هي من جمال باشا وهذا نصها :

ارجىء الحكم في القضية الى اجل غير مسمى جمال

ثم قرأ تحت هذا الكلام بقلم رصاص : « اذا لم تحكم على الدمشقي بالبراءة قبل ان تخرج من المحكمة فلا تخرج منها حياً »

فاستغربوا الامر كل الاستغراب وبعضهم اشتبهوا بامضاء الرسالة . ثم سألوا عن الباشا فبلغ اليهم ان دولته برح الشام في اوتوموبيل سريع منذ ساعة في الطريق الى الاستانة .

ثم تساءلوا عن اوامره . فعلموا انه فوض رئيس اركان الحرب باستلام زمام القيادة في غيابه . واما رئيس اركان الحرب فقال ان ليس عنده اوامر خاصة بشأن المتهمين الذين يحاكمون سوى ان ينفذ الحكم الذي يصدره الديوان العرفي . ولما علم بما حدث في الديوان من الجنايات والاضطراب امر بايقاف كل شيء كما هو على حاله الى ان يعود الباشا

ثم علموا انه قبيل سفر جمال باشا حدثت ثلاث جنايات في داره واليك خبرها

الفصل السابع والثلاثون

اقتران الأرواح

لما استعد جمال للسفر طلب الى نجمة الصبح ان تسافر معه فاشترطت عليه ان يطلق سراح جميع المنهمين ويلغي قضيتهم كأنها لم تكن او ان يوعز للقاضي ان يحكم ببراءتهم جميعاً بلا استثناء احد بتاتاً

فصعب الأمر على جمال وقال لها : ليس مثلي من يخضع لشرط او لقيد فيجب ان تسافري معي في الحال بلا شرط

وقالت : لم يعد في وسعي ان اسافر معك لاني لم اعد زوجتك وزواجنا كان فاسداً

— كيف ذلك

— لان زوجي الذي قلت لي انه مات وموته سوغ زواجي بك لم يمت بل لم يزل حياً يرزق . فانت قد خدعتني

— أين زوجك ؟ يجب ان يطلقك

— لا أريد ان يطلقني

— أرملك اذاً

— لا يرملني الا الله يا هذا . فما انت الحاكم على القلوب والاعمار

— بل احكم على كل شيء فاين زوجك .

— لا شأن لك معه

— اذاً تذهبين معي في الحال . اني مسافر الآن ولا أقدر ان انتظر دقيقة

— سافر . أما انا فباقية هنا

— تبقين هنا لتعيشي على هواك ؟ يجب ان تسافري

— كلا . كلا لا أسافر . انا حرة

— اذاً خذي

وانتضى مسدساً وافرغ منه رصاصة في صدرها فوقعت مجندلة

عند ذلك استلفت نظره حفيف فالتفت فاذا الدرويش يوسف مندفع من باب حجرة ومتجه الى القتيلة فتلقاه جمال كأنه يرده . ولكن في تلك اللحظة دوى طلق رصاص آخر جندل الدرويش عند قدميه . فارتاع جمال اذ علم ان غيره يطلق رصاصاً أيضاً في الدار . وفي الحال رأى شبح رجل قد لاح كأنه يتوارى فبادره برصاصة جندلته سريعاً

وارتاع جمال اذ رأى حوله ثلاثة مجندلين . اما الدرويش فكان لا يزال يملك روحه قليلاً وهي تأبى ان تفارقه . فجعل يزحف حتى يقترب من زينب او نجمة . فقال له جمال : ويحك . كيف قدر لك ان تزج نفسك هنا في هذه اللحظة الرهيبة .

فنال الدرويش : الطالع السعيد يا وزيري . ان ملك العرب يقترن الآن بملكته . ولطالما تشوق الى هذا القران

— تباً لك من مهزار ! اني ساعة الموت مزاح وجنون أيضاً ؟

— لست امزح ياسيدي . ان دمي يمتزج بدمها ، وروحي تتأهب لمرافقة روحها الى الفردوس السماوي حيث تقترنان . بربك لا تشغلني بحديث تافه بارد لئلا تسبق روحها روحي . اجهز علي يا وزيري اجهز

— ويحك لم ارد لك سوءاً

— اني عالم انك كنت تستبقي حياتي الى حين تحتاج الى قوتي وسلطاني وجبروتي

— اذاً كنت تنوي اغتيالي

— هل ترى معي سلاحاً يا هذا حتى تتهمني بالغدر لك ؟

— لا . ولكني لا أفهم كيف هجمت عليَّ ولماذا قتلك ذاك

— لم يشأ ان يقتلني يا سيدي ولا انا غريمه . بل رام ان ينتقم لزوجته التي قتلتها انت . فسدد مسدسه اليك فأصابني مصادفة . اني اشكره لأنه فسح لي الطريق لمرافقة هذه الملكة الى الفردوس . واما انت فالعنك الف لعنة

— لماذا يا تعس

— لأنك ارسلته معي لكي ينازعني ملكتي . تباً لك

— اذاً هذا هو زوج هذه الشقية ؟

— نعم هذا هو زوجها الذي نازعته حقه يا شرير . اجهز يا ردىء . اجهز علي يا خائن يانادر . اجهز يابهيم ياغبي ياجاهل . لقد نصحتك خير النصائح فلم تنتصح . حاذر يا جاهل حنق العرب . استرض العرب

— تباً لك ولهم . خذ

واطلق جمال رصاصة اخرى في دماغ الدرويش قضت عليه قضاء نهائياً

ثم تقدم جمال باشا الى ذلك القتيل الذي يجهله واستغرب وجوده في داره حينئذٍ . وقلبه . ثم بحث في جيوبه عسى ان يعلم شيئاً عن هويته . فوجد معه رسالة ادرك في الحال انها بخط نجمة ففضها وقرأها :

«الى حليم العدني او حليم بك عدنان

— «ارجو حضورك حالاً الى السراي واستعدادك لاثبات شخصيتك وحقك بي والا اضعت كل شيء . اني سعيت بانقاذك من السجن لاجعل لك آخر فرصة للحياة السعيدة فان ضيعتها ضيعت كل شيء . احضر حالاً . ولا تبطىء لان الوقت ضيق» «زينبك»

ففهم جمال ان نجمة استدعت زوجها لكي تبرهن بوجوده حياً على فساد زواجها بجمال ، وعلم حينئذٍ انه قد قتل الزوجين معاً وعاشق نجمته في دقيقة واحدة وبقي هو حياً لعشيقة جديدة

ثم ركب الاتوموبيل وانطلق كالبرق الخاطف لأن الاتوموبيل اسرع من السكة الحديدية هناك — الى الاستانة

الفصل الثامن والثلاثون

تفسير الحوادث

بقي سر الرصاصة المفاجئة التي قتلت حسن بك العظيمي رئيس الديوان العرفي . فلم يعرف عاجلاً . فبحث رئيس اركان الحرب . فقيل له ان جمال باشا قبل سفره كتب رسالة وسلمها الى الجندي بدر الدين لكي يسلمها للعظيمي . فبحثوا عن بدر الدين هذا فلم يقفوا له على اثر الا بعد يومين اذ قيل ان في المستشفى جندياً وجد صريعاً في مكان خرب . وانه مصاب بضربتين على رأسه شجتاه وافقدتاه رشده . وفي اليوم الثالث وعى قليلاً وجعل يتكلم . فروى حكايته وقال : بعد ان اخذت الرسالة واتجهت الى الديوان العرفي لكي اسلمها ادركني اوتوموبيل كان يدب ورائي كانه الزلزال فالتفت فاذا في الاوتوموبيل جندي يسوقه وضابط الى جنب سيدة متزرة بدل حالها على جلال امرها . وعندئذ وقف الاتوموبيل وقال لي الضابط : هل معك رسالة من دولة الباشا الى حسن بيك العظيمي رئيس الديوان العرفي

فقلت — نعم

فقال — هاتها . فان دولتـه عدل عن ارسالها

فقلت — انا اردها لدولته

فقال — اذاً اصعد الى الاتوموبيل لأن دولته مسافر في هذه الدقيقة ويريد ان يعلم ان الرسالة لم تقدم للديوان العرفي

فما وسعني الا ان صعدت الى جانب الجندي سائق الاوتوموبيل وانا استغرب الأمر وما لبث الاوتوموبيل ان اتجه الى غير جهة السراي فسألت في ذلك . فقيل لي ان دولة الباشا خرج من السراي باوتوموبيله وهو مسافر ونحن تابعوه . فظننت ان السيدة حرم الباشا . وما خرجنا من الحواري حتى اصابتني ضربة على رأسي اطارت صوابي ولم اعد اعي حتى الآن

هذه حكاية الجندي الذي استلم الرسالة من جمال باشا العظيمي

* * *

في اليوم التالي ورد تلغراف من جمال باشا من حماه الى رئيس اركان حربه يقول له فيه ان اطلق سراح جميع زعماء العرب

فما تردد رئيس اركان الحرب في تنفيذ الامر ولا سيما اذ بلغه ان قبائل عربية هائلة متحفزة لثورة عظيمة . فعلل امر جمال باشا بذلك ايضاً . ولعل جمال باشا انتصح بنصح الدرويش فارسل تلغرافه بعد التفكير بصواب ذلك النصح

* * *

بعد ان اطلق سراح الزعماء اجتمع الامير

محمد نصر الدين الدهري وابنه الأمير أحمد سيف الدين وحفيده عثمان بيك العدناني وحفيدة نعيمة الزيفبية وخليل افندي الرحماني واستتموا التعارف وبسط علائقهم القرابية واقامة البراهين عليها

واسفوا عظيم الأسف على مقتل زينب وزوجوها حليم ابن حسن باشا عدنان

واما خليل الرحماني فقال للامير : مولاي ان والدي كان خادمكم الامين

— لا اشك بامانته يا بني . وانما خاني بأمر واحد — وما هو يا مولاي ؟

— قال انه نفذ امري بنتي ولكنه كذب علي

— الله غفر له هذه الكذبة يا سيدي

— وانا غفرتها ايضاً

— وقد ترك لي ابي وصية بعد موته يأمرني بها ان اتزوج هذه الفتاة وانا مثلها اجهل انها حفيدة سموكم . فاذا كنتم لا تباركون هذه الوصية يا مولاي فلا استطيع ان انفذها

فقال الامير : سمعاً يا بني . ان هذه الفتاة اصبحت ربيبة أبيك لانه لو لم يحقن ابوك دم امها لما ظهرت في الوجود . فانت احق الناس بها وما بدا منك من العناية بأمرها يجعلها مدينة لك بقلبها فهي مباركة عليك

فهنأ الجميع العروسين وعند ذلك سمعوا وقوع شيء امام الباب فخرجوا يرون ما الخبر فاذا هناك شيخ وقع مغمى عليه . وما لبثوا ان تبينوا انه حسن باشا عدنان وقد وقع لان قوته الشيخوخية وهت . فحملوه الى الداخل الى امام الأمير ففتح عينيه ونظر الى الأمير وقال : — رحمة يا اخي ومغفرة . لقد اسأت اليك كثيراً في حياتي . والآن انا اموت فسامحني

وعند ذلك غص ولم يعد يستطيع نطقاً . فحاولوا تنبيهه فاذا هو جثة هامدة

فبكاه الأمير وقال : سامحه الله وغفر له ولنا اجمعين

ثم وجه خطابه الى الحاضرين وقال : ايها البنون الصالحون . اني لا اعيش بعد الآن طويلاً . فنصيحتي لكم ان تعلموا جيداً ان مجدكم وشرفكم ونبلكم وعزكم وسعادتكم كل ذلك متوقف على شأن قوميتكم العربية . فاذا لم تقفوا قواكم واجسادكم وارواحكم لجامعتكم العربية فانتم خونة لانفسكم

حاشية : بعد ذلك اعترف خليل انه هو وزينب وصديق آخر تزيوا بزي جندي وركبوا اوتوموبيلاً وادركوا رسول جمال لكي يستعلموا عما اوعز به الى رئيس الديوان العرفي . وانه هو الذي ضرب الرسول على رأسه حتى صرعه . وانهم لما اطلعوا على الرسالة كتبوا تحتها ذلك التهديد . ثم اعطاها ذاك الجندي الى حارس الديوان فدفعها الى حسن بيك العظيمي

وبعد ذلك كمن خليل في مكان وراء الديوان تسيطر فيه على حسن العظيمي . ولما علم انه لم يحكم بالبراءة قتله برصاصة مخاطراً . والله انقذه اذ لم يدر احد من اي جهة جاءت الرصاصة . وكان قد افلت وما درى احد به

تمت

تأثير المهاجرة

على العقول القـــاصرة

هي حكاية حال رجل متزوج هاجر من الشرق الى اميركا وفيها وصف تاثير اميركا على نفسه وأخلاقه
(نظمت في نيويورك سنة ١٩٠٧)

لعينيكِ مشغوفَ الفؤاد الملوَّعِ ... فلا تفطري قلبي بهـذا التفجُّعِ
ادمعاً واشراقُ ابتسامـك مغنم ... اضحي له بالمقلتين ومسمعي
اعيذكِ يامعني حياتي من الاسى ... وافديكِ من وقع المصاب المصدِّع
فقالت وقد عادت يجدُّ بها البكا ... وتغرق فيه مثل طفـلٍ مروَّع
اتحبس عينـاي الدموعَ دوافقا ... ويبقى فؤادي هادئاً بين اضلعي
اذا أنت أزمعتَ الرحيلَ ويننـا ... بحارٌ وبلدانٌ وعهدُ تضعضع (١)
وشرُّ شمات بالتي بكَ أولعت ... وشذَّت على رغم الاب المتمنع
فما دأب ذات الخدر في الشرق ازدجا ... عليها الشقا يوماً سوف ذرف ادمع

* * *

فقال لها والحزن يسحق قلبه : ... وحرمةِ عهـدٍ قطُّ لم يتزعزع
وعينيكِ والمعنى المردَّد فيهما ... بمسمع قلبي الفاهم المتسمع
لاجلك أبغي السعيَ للرزق والثرا ... واجهد نفسي فيهِ إجهاد مزمع (٢)
الم تنظري ان الحياة هنـا غدت ... تسير مسير القانط المتفزِّع
وقد كفرت هذي البلادُ بأهلهـا ... فتأبى عليهم أيّ ريٍّ ومشبعِ
تميد بهم ميدَ الحروف تغيظاً ... اذا ما امتطـاه فارس غير اروع
وتقذفهم للغرب تحت يد القضـا ... وتدفعهـم في البحر أيّ تدفعِ
ألم تعلمي ؟ ان الزمان لضيقٌ ... بحالتنـا والعصر عصرُ توسع
ومورد هذا الرزق أصبح ناضباً ... على حين ان الآن عهـدُ التمتع

(١) الذل والفقر (٢) ثبات العزم على الامر . ولا يكون بمعنى العتيد كما يظنون (محيط المحيط)

دعيني اذاً أمضي الى حيث اهتدي ... الى موطنٍ عذبِ الموارد ممرع
فاطلقَ للنفسِ الطموح عنانها ... لتجري كما تبغي وراكل مطمع
واجمعَ من مجنى العزيمة ثروة ... وارجع في عامين أفضل مرجع
وننفق انفاق الكرام ونقتني ... رياشاً ونختار الذرى خير مرتع
وتُكسيْ جلايب الحرير ثمينة ... وتقنيْ نفيسات المصوغِ المرصع
ونقضي حياة العز والصفو والهنا ... ونأمنَ يأسَ المعدمِ المتوقعِ

* * *

فقالت له اقضي اذا طال ذا النوى ... وما من عزاء فيه غير التفجع
فقال لها لا عشت الا معذباً ... اذا كنت اسلو ما تركتُ وما معي (١)
اما انا في حبيك إرثي فقدته ... وخاصمتُ أصحابي وغاضبتُ مربعي
فدونك مني كل شهرٍ رسالةً ... مدبَّجة بالاصفر (٢) المتنوع
وعانقها مستعطفاً متحبباً ... وقبلها يبكي بكاء المودّع

* * *

مضى وهي مدلاةٌ بخيط من الرجا ... ضئيلٍ الى جب من البؤس مترع
تهبُّ عليها النائباتُ عواصفاً ... مهددةً خيط الرجا بالتقطع
مضت اشهرٌ لم يأتِ من بعلها سوى ... كتابٍ وجيزٍ بعد طولِ التوقع
واثقلها الحمل المبرّح منذراً ... باهوال وضعٍ مؤلمٍ ومروّع
ووافى لها غلاً شديداً وليدُها ... فعز عليها الرزقُ من أيّ مصنع
فباعت حلاها والعقارَ ولم تدَعْ ... سوى عرضها الباقي وديعةَ مودع
تنازعها المغوونَ والفقرُ والعنا ... فمنّعها عهد الزواج الممنّع
وظلت تصد النائبات شجيعةً ... وتلقى عزاء في الدعا والتضرع

* * *

وهاجر للارض الجديدة يوسف ... كهجرة اهل العدم من كل بلقع
فاذهله فيها مفاخرُ اهلها ... غرائب لم تخطر على بال اصمع

(١) أي اذا كنت اسلو قلبي الذي تركته معك وقلبك الذي معي (٢) الذهب . وهو يعني المال

وشاهدهم يجرون خلف ريالها سباقاً سراعاً جريَ سرب مفزع
فيصطدم العمال في كل منتحى تصادمَ جيشٍ في الوغى متدفع
ويُصرَعُ مكسارٌ ويسقط عاجز فتسحقه أقدامُ كل سميذع
وينتهب المحتال من كفِّ كادحٍ ويدَّخر المطماعُ من فمِ أقطع
ويستاق ذو المال الفقيرَ فيغتدي على عملٍ تشقى به ذات اربع
وينعم معتزاً بمعظم ريعه ويعطيهِ بعضَ الاجر كالمتبرع
وتخرج من أخدارهنّ نساؤهم ينازعنَ أهلَ السعي في كل موضع
فيالك جيلاً ماله من عواطف ولولا اقتضاء الرزق لم يتجمع
ويالنظام صامت بات اهله يدورون فيه مثل آلات مصنع

* * *

رأى كل هذا يوسفٌ متحيراً ولم يرَ بدأً من وجوب التتبع
فاسرع خلف القوم يبغي دراكهم فادركهم في منزعٍ إثرَ منزع
نما فيه حب النفس لكن ضميره قضى فأظلّ الحقّ في ظل برقع
وكان له قلبٌ يلين كشمعة متى مسه الفكر المؤثر يطبع
وتصهره نار الحنان اذا ذكت ويفريه صوت البائس المتضرّع
فقسَّته فيه عبرةٌ بعد عبرةٍ وامسى كصنجٍ بين كفي موقع
يردّدُ نفسَ الصوت مع أيّ عازف سواءٌ بحالي فرحةٍ او توجع
وباع بحب المال كلّ فضيلة وثمَّ غدا ذا متجرٍ متوسع
وكان غناه موقظاً لغروره وشر غرورٍ ما استتمَّ بأربع
ثراء بلا نبل وسير بلا هدى وحرية مع جاهل وهو مدع
وقصد الى العليا بغير طريقها ورب غرور ينتفي بالتطبع
تهالك في حب الوجاهة والعلى فضاجر اهل الفضل في كل مجمع
وفاخرهم في لبس كل نفيسة يظن التحلي سلماً للترفع
ونافسهم في الشرب واللعب والندى واسرف في حب الحسان المصنع

* * *

وعنّ له ان يستعزّ مفاخراً ... ويختالَ عجباً بين اهلٍ واربع
فباع ببخس السعر حانوته الذي ... تجاهد (١) في انشاه مدة اربع
وسافر يحدوه النباهي بماله ... ويبغي بافق الفخر افضل مطلع
فحلّ بدار الأهل كالنعمة التي ... تحل على اهل التقى والتخشع
وعانقه ابنٌ طالما اشتاق قربه ... لما عودته امه من توقع
وضمته زوج (٢) لم تصدق رجوعه ... وعزّ بلقيا رهطه المتجمع
قضى ذلك العام الطويل مدللا ... يحف به خلانه اينما دعي
يتيه عليهم آنفاً متعجرفاً ... ويشمخ فيهم شمخة المترفع
يميرهم بالجهل حيناً كأنه ... تلقن كل العلم من فم لوذعي
ويدعوهم همجاً خلوا من تمدن ... ويقدح فيهم قدح واش مشنع
ويحسب ما يأتي ولو كان منكراً ... نموذج ذوق او مثال تورع
وياطالما استزرى (ندى) فتذرعت ... الى عطفة منه جميل التذرع
فكان يباهيها ببنت اميركا ... ويمدح هذه شارحاً شرح مصقع

* * *

وفاخرهم يوماً ببنيان منزل ... يحف به الزهر الشديد التضوع
فانفق في عام جنى العمر كله ... واصبح ذا عسر ومن قل (٣) يخضع
فصمم ان يرتدّ من حيث قد اتى ... مخافة ملقى شامتٍ او مقرّع
فهبت اليه زوجه مستشيطة ... تسدد في إقماده كل مقنع
وقالت له حسبي الفراق الذي مضى ... وما سمت فيه من عنا وتوجع
فوالله ما غادرتَ دارك لحظة ... وما انتَ عني باعدٌ قيدَ اصبع
فقال لها ما لارتحالي فدحة ... فما عدت ارجو طيب عيشي بمرتعي
وفارقها لا يلتوي لنحيبها ... وراح ولم يعبأ به من مودع

* * *

ولكن ندى ظلت تهذ ببعلها ... وتوغل في تفكيرها المتوزع

(١) تجاهد بمعنى جدّ (٢) زوج مؤنثة بمعنى زوجة (٣) قلّ الرجل اذا نفد ماله

فخارها ظن اطار صوابها واذكى بها وجد الغيور الملوع
فما لبثت ان سافرت تستفزها بلابل لب موجس متضعضع
وقد باغتته ساكناً مع خليلة يدللها ما شاء تدليل مولع
ويبذل في ارضائها جني كفه وما لندى في قلبه شبه موقع
فما عتمت ان بادرت بمسدس تزمجر غيظاً مثل ليث مجوّع
وقد افرغته فيها وغليلها يرويه مرأى مصرع تلو مصرع
ويوم القضا احتجت وكان احتجاجها كقاعدة في حكم كل مشرّع
اذا خانني من رام مني امانة ودنس عرضي من بغى طهر مضجعي
تحلل لي نفسي اقتضاب حياته واي فظيع لا يكافا بأفظع ؟

نقولا الحداد

علم الاجتماع

حياة الهيئة الاجتماعية وتطوّرها

تأليف نقولا الحداد

في علم الاجتماع تعرف منزلتك في الهيئة الاجتماعية ومنزلة قومك ومنزلة امتك . وتفهم علائق الجماعات بعضها ببعض . وانفعال بعضها من بعض ، وتأثير بعضها على البعض . وتعلم النظامات التي تربط الافراد في جماعة والجماعات في جماعات . وتفهم العوامل التي تعمل في تنظيم الافراد في جماعات ومصادر قوات هذه العوامل . ثم تدرك الروح المشتركة التي تدب في الجماعة وتثير قواتها . ثم تفهم لشوء الأزياء والعادات والعرف والتقاليد والقوانين ، وتسلسل بعضها من بعض ولشوء الرأي العام وسننه ونواميسه . يطلب من جميع المكاتب ومن ادارة مجلة السيدات والرجال وثمنه خمسة وعشرون قرشاً صاغاً واجرة البريد ٣ قروش صاغ

رواية

فرعونة العرب عند الترك

الحلقة الاولى

من سلسلة روايات اسرار النهضة العربية او الاتحاد العربي العام

تاليف نقولا الحداد

وقعت حوادث هذه الرواية في الاستانة في مدة الحرب ومعظمها في اوائلها . وبطلتها الفتاة شعاع الابنوسي البغدادية الاب والمصرية الام . ولها مواقع مع انور باشا واحياناً مع طلعت باشا تزيد عند قراءتها شعور الرؤوس

والجاسوس انور الشيخ القشعمي وجاسوسته الرومية من المكائد والدسائس ضد شعاع ما يضرم نار الغيظ في النفوس

وكأن الله قد ارسل الفتاة شعاع الابنوسي هذه لسان القضاء الحاد الاسع لكي يقرّع بالامة التركية وينذرها بخراب الدولة وهدم عرش آل عثمان عن يدها ويتنبأ لها عن اشتقاق العرب عن الترك لانشاء الدولة العربية

فلذلك ترى في هذه الرواية خلاصة افعال الترك الهوجاء وسياستهم الخرقاء وتصرفاتهم الرعناء ولا سيما في معاملتهم السيئة للعرب

اذا لم تكن قد قرأتها حتى الآن فاطلبها من اي مكتبة عربية فان لم تكن فيها فتطلبها من ادارة مجلة السيدات . وثمنها عندنا ١٢ قرشاً صاغاً واجرة البريد قرشان

الاشتراكية — تاليف نقولا الحداد

وهو اسهل المؤلفات العربيـة بهذا الموضوع مأخذاً . يفهم مطالعه في الحال النظرية الاشتراكية العمومية . ويرى قضيتها واضحة كل الوضوح بما لها وما عليها

يطلب من ادارة هذه المجلة . وثمنه ٨ قروش صاغ واجرة البريد قرش صاغ

رواية

جمعية اخوان العهد

الحلقة الثانية

من سلسلة روايات اسرار النهضة العربية او الاتحاد العربي العام

تأليف نقولا الحداد

وقعت حوادث هذه الرواية في دمشق في اواخر عهد جمال باشا السفاك . ولا يكاد يتعين لها بطل خاص لان بضعة من اشخاصها لعبوا فيها ادواراً عظيمة هائلة بحيث يجوز ان يعد كل منهم بطلاً . وربما عد الدرويش المجنون الحكيم اول هؤلاء الابطال للادوار الغريبة التي لعبها بين جمال باشا ونجمة اصبح معشوقته الغنية

والغريب المدهش في هذه الرواية ان معظم اشخاصها متصلو النسب بعضهم ببعض وهم يجهلون ذلك . وانما كانت الحوادث الفظيعة الهائلة تكشف لهم اسرار نسبهم رويداً بأساليب مدهشة

ومدار الرواية على جمعية سرية مولفة من زعماء العرب اكتشف امرها جواسيس جمال وقبض جنوده على رجالها في حالة اجتماعهم في كهف سري وجعل يحاكمهم بتهمة استعدادهم للثورة وطرح نير تركيا عنهم لكي ينشئوا دولة عربية . ثم جعل سراً يساومهم على ان يكون زعيمهم .

والقارىء يقشعر بدنه في كل فصل بعد فصل حتى يكتشف القرابة والنسب اللذين بين زعيم المتهمين وبين القابضين عليه وعلى رفاقه ومحاكميه وعشيقة جمال والمقربين اليه

ننصح من لم يقرأ في الحجلة تباعاً ان يقرأها مجموعة . فيطلبها من اي المكاتب العربية في العالم أو من ادارة هذه المجلة . وثمنها عندنا ١٢ قرشاً صاغاً واجرة البريد قرشان

زغلولات مصر

معظم اشخاصها سيدات . احساسية وطنية بديعة الحوادث . ثمنها ٣ قروش وللبريد نصف قرش

DATE DUE

الحداد ،نقولا
جمعية اخوان العهد...
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037755

American University of Beirut

General Library

892.7B
Há2818jA
c.2